التنافس البريطاني الأسباني الفرنسي

في القرن السادس عشر
حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية

تأليف

جيمس أنتوني فرويد

السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم العربية والاجتماعية

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٣ - اسكندرية

التنافس البريطانى الأسبانى الفرنسى فى القرن السادس عشر حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية

تأليف

جيمس انتونى فرويد

ترجمة وتقديم

دكتور/ السيد يوسف نصر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
كلية العلوم العربية والاجتماعية

١٤١١ هـ / ١٩٩١ م

مقدمة المترجم

كان من دوافع ترجمتى الى هذا الكتاب – المعنون بـ:

(English "Seamen in the sixteen century)

والمؤلف بواسطة الأستاذ الدكتور جيمس أنتونى فرويد James Anthony Froude أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة أكسفورد – أنه يعالج تاريخ القرن السادس عشر الميلادى، ويوضح بصفة خاصة العلاقات البريطانية الاسبانية فى هذا القرن. فقد كانت هذه العلاقات سيئة الى أبعد حد ممكن، ويرجع ذلك الى سببين، أولهما التنافس حول جزر الهند الغربية، وثانيهما الصراع الناجم عن اعتناق بريطانيا للمذهب البروتستانتى. وفضلا عن ذلك فان هذا الكتاب يعالج مواضيع أخرى كثيرة، تعتبر بحق فى غاية الأهمية، وبخاصة فأنه يعالج فترة متأخرة من تاريخ أكبر دولتين فى أوربا فى هذا العصر.

ويتميز هذا الكتاب بالصعوبة، التى ترجع فى أساسها الى طول الجمل، فأحيانا يصل طول الجملة الى صفحة الا قليلا، علاوة على وجود جمل أعتراضية كثيرة، تتخلل الجملة الاساسية التى يصعب معها فهم هذه الجملة بطريقة سهلة وسريعة. زيادة على ذلك فأن مؤلف هذا الكتاب يعتمد فى المقام الاول فى الكتابة على ضمير الغائب سواء أكان المفرد منه أم المثنى أم الجمع، ثم يكرر هذه الضمائر كثيرا دون تمييز، وهذا يؤدى بالتالى الى صعوبة تتبع الاحداث، ومحاولة ربطها حتى تتضح الفكرة بصورة جلية. وفوق كل ذلك فان هذا المؤلف يستخدم العبارات الانجليزية القديمة، التى لم تعد تستخدم فى وقتنا المعاصر، حتى أصبحت فى طى النسيان، فضلا عن استخدامه لبعض الكلمات النادر استعمالها فى أيامنا هذه. علاوة على استخدامه لبعض التعبيرات الاسبانية واللاتينية القديمة، حتى أن مؤلف هذا الكتاب ذكر أنه كان يعجز عن ترجمتها فيضطر الى تركها على حالها مع الاشارة الى ذلك فى متن الكتاب. فهذه هى كل العوامل التى جعلت الترجمة أكثر صعوبة.

يعتبر هذا الكتاب على جانب من الاهمية، لانه علاوة على ما سبق، فانه يوضح لنا القوى السياسية فى أوربا فى القرن السادس عشر، والاوضاع التى كانت سائدة فى هذا العصر. كما يوضح لنا دور جون هوكنز John Howkins الانجليزى الجنسيية

فى تجارة الرقيق الافريقية، الذى يعتبر أول تاجر أنجليزى، تاجر فى أبناء أفريقيا، فضلا عن أنه كان مغامرا، وقرصانا خطيرا هدد الامن الاسبانى فى جزر الهند الغربية. وكان معروفا معرفة جيدة لدى الشعب الانجليزى بكل طوائفه. لهذا أفرد مؤلف هذا الكتاب فصلا عن "جون هوكنز" وتجارة الرقيق الافريقية. واستدللنا من هذا الفصل على مدى ما كان لهذا الرجل من أهمية فى عصره، وربما يرجع ذلك الى موقفه المعادى من فيليب الثانى ملك أسبانيا ويعود هذا العداء الى سببين : أولهما أن هوكنز كان قرصانا خطيرا هدد أمن السفن الاسبانية فى عرض المحيط الاطلسى، وبخاصة القادمة منها من العالم الجديد والمحمله بالذهب والفضة. وثانيهما أنه (هوكنز) قد تبنى محاربة فيليب بسبب تعسف الاخير ونصبه محاكم تفتيش للبحارة والقراصنة الانجليز، وذلك لاعتناقهم المذهب البروتستانتى، فضلا عن كونهم خطرا يتهدد المصالح الاسبانية فى جزر الهند الغربية، بل على السفن الأسبانية أيضا التى تمر عبر المحيط الاطلسى.

ويشير الكتاب أيضا الى السير فرانسيس دريك Sir Francis Drake، الذى كان هو الاخر قرصانا بحريا خطيرا زاد فى عدائه للاسبان. فقد أخذ هذا البحار على عاتقه بل على حسابه الخاص اعداد حملة لمهاجمة المستعمرات الاسبانية فى البحر الكاريبى. وقرر أن يدفع ملك أسبانيا تكاليف هذه الرحلة. فالمقصود بهذه العبارة أنه يبيح لنفسه الاستيلاء على المواردالاسبانية حتى يسترد ما أنفقه على هذه البعثة. وكان من أهم أسباب هذه الرحلة، الانتقام من أسبانيا فى مستعمراتها، نظرا لحرقها للبحارة الانجليز البروستانت، الذين أطلقت عليهم أسم المهرطقين. وقد تبنى دريك هذه القضية وسبب رعبا رهيبا الى أسبانيا بحيث أقلق مضجعها، وأزعج أمنها. ومن المعروف أن دريك هو الذى ساهم مساهمة فعالة فى هزيمة الارمادا "الاسطول الاسبانى العظيم" فى القتال الانجليزى عام ١٥٨٨م.

وفى هذا القرن كانت عناصر الصراع فى أوربا تتمثل فى اليزابيث ملكة بريطانيا - التى حاربت من أجل حماية مذهب والدها (المذهب البروستانتى) والتى عانت هى وشعبها من الاضطهاد من جانب أوربا الكاثوليكية كلها - وفى كل من البابا وفيليب الثانى، ملك أسبانيا - الذى تزعم حركة هذا الصراع - وفى مارى ستيوارت

ملكة الاسكتلنديين. ورغم حرمان الملكة اليزابيث كنيسيا بواسطة بابا روما، الا أنها ظلت متماسكة، ومحافظة على مبدئها، ومبدأ والدها من قبل. ومع ذلك، وفى نفس الوقت، فانها لم تكن ترغب فى خوض معركة ضد فيليب، خشية أن تهزم هزيمة نكراء، لذلك نجدها عندما فشلت فى مقاومة فيليب وفى حماية رعاياها من البحارة ومن القراصنة - تسمح للبريطانيين جميعا باستخدام كل الوسائل من أجل حماية أنفسهم ومحاربة الاسبان بالشكل الذى يرونه ملائما.

ومن هذا المنطلق نجد أن القراصنة الانجليز وبخاصة كل من هوكنز ودريك يذهبان على رأس الحملات العسكرية خاصة الى جزر الهند الغربية لضرب أسبانيا فى عقر دارها وكان دريك قد ذهب بنفسه الى قادش وهاجمها وأحرق سفنها الرابضة فى مينائها، وأثار الذعر بين الاسبانيين وجعلهم يرتعدون خوفا من مجرد سماع اسمه.

وانتهى هذا الصراع المرير بين أوربا الكاثوليكية ممثلة في فيليب وبين اليزابيث، بهزيمة أكبر وأعظم أسطول بحرى - عرفته أوربا فى هذا العصر - تابع لفيليب، الا وهو الارمادا، التى قادها ميدينا سيدونا Midina Sidona بدلا من سانتا كروز Santa Cruze القائد المحنك الذى مات قبل اقلاع الارمادا بأسابيع قليلة جدا. وقد هزمت الارمادا هزيمة لم يسبق لها مثيل، وقتل الكثير من جنودها بأيدى القراصنة الانجليز. وخاب أمل أوربا الكاثوليكية فى تطلعاتها الى عودة بريطانيا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية والى تولى فيليب الحكم في بريطانيا، والى التخلص من هذه المرأة الشريرة (اليزابيث) كما كان يعتقد فى هذا العصر. فقد دب اليأس بين صفوف الاسبان. ولكن منذ ذلك التاريخ أصبح لبريطانيا الهيمنة والسيطرة على البحار والمحيطات، وأفل نجم أسبانيا وتدهورت أوضاعها، وضاعت هيبتها، وفقدت مستعمراتها، ولم تقم لها قائمة حتى تاريخنا المعاصر.

ولعلى بهذا العمل أن أكون قد أضفت موضوعا جديدا في مجال التاريخ الحديث الى المكتبة العربية التى أعتقد أنها بلا شك فى حاجة ماسة اليه.

وعلى الله التوفيق.

المترجم

د. السيد يوسف نصر

الفصل الاول

البحر مهد حركة الاصلاح الدينى

قال جين باول Jean paul، الشاعر الالمانى أن الله قد أعطى لفرنسا امبراطورية الارض، وأعطى لانجلترا امبراطورية البحر وأعطى لألمانيا إمبراطورية الهواء أو الجو[1]. وقد تغير العالم منذ أيام جين باول، فقد تقصفت أجنحة فرنسا، وأصبحت الامبراطورية الالمانية متماسكة، وكانت انجلترا لا تزال لها السيادة والهيمنة على طرقها البحرية، كما أنها كانت لا تزال أيضا تهيمن على البحار. ومن هذه المكانة العظيمة نشرت بريطانيا السلالة الانجليزية التى كانت تتفاخر بها فى كل أرجاء المعمورة.

* وقد أسست انجلترا الامة الامريكية العظيمة، كما وطنت انجليز جدد فى استراليا ونيوزيلاندا، وجعلت من ملكتها امبراطورة على الهند، وفى واقع الامر كانت بريطانيا ظاهرة جديرة بالتقدير فى المجالين السياسى والاجتماعى، الامرالذى اعترف به الجميع. وقد أنجزت بريطانيا كل هذا فى غضون ثلاثة قرون من الزمن، نتيجة لتفوقها تماما كقوة بحرية، فلو كانت قد جردت من أساطيلها التجارية ومن أساطيلها الحربية التى تقوم بحماية اساطيلها التجارية، لانتهت امبراطوريتها تماما، ولتساقطت مستعمراتها كأوراق شجرة ذابلة، وتصبح بريطانيا مرة أخرى جزيرة لا أهمية لها فى بحر الشمال، يناقش مصيرها طلبة المستقبل – فى جامعات استراليا ونيوزيلاندا – فى الجمعيات الخاصة بمناظراتهم *

ومن الجدير بنا أن نفكر كيف بلغ الاسطول البريطانى هذه المكانة غير العادية، فقد كتب عنه الكثير، ولكن يبدو لى أن ما كتب فى لب الموضوع كان قليلا. وقد رأينا قوة وطننا تنمو وتتزايد، ولكن كيف نمت ولماذا، بعد نوم دام مئات كثيرة من السنين، وكيف أن عبقرية أجدادنا الاسكندنافيين دبت فيها الحياة مرة ثانية – كل هذا ترك دون تفسير.

---

(١) يعنى هذا أن المانيا لم يكن لها امبراطورية فى القرن السادس عشر (المترجم)

وبدون شك كانت البداية تتمثل فى هزيمة الارمادا الاسبانية The Spanish Armada عام ١٥٨٨ م. فحتى هذا الوقت كانت السيادة البحرية للاسبان التى حققوها بانفسهم. وقد أدى فتح جرانادا Granada الى تحفز الشخصية الاسبانية والى الزيادة من قدرها ، فقد كان رعايا فرديناند وايزابيلاFerdinand, Ezabela ومن بعدهم رعايا تشارلس الخامس Charless V وفيليب الثانى Philip II رجالا غير عاديين، فانجزوا أشياء غير عادية. فقد وسعوا حدود العالم المعروف انذاك، ففتحوا مكسيكو وبيرو، وأسسوا مستعمرات لهم فى قارة أمركا الجنوبية، كما أستولوا على جزر الهند الغربية الكثيرة، وبهذه القبضة الحديدية، فان كوبا على الاقل لن تفقد بصمة اليد الاسبانية التى استولت عليها . وكان الاسبان قد بنوا مدنهم، كما لو كانت ستظل الى الابد. وانتشروا كذلك في المحيط الهندى، واطلقوا اسم ملكهم على جزر الفلبين، وأنجزوا كل هذا فى نصف قرن من الزمان، أنجزوه بيد وباليد الاخرى كانوا يحاربون المغاربة والاتراك، ويحمون فى الوقت نفسه ساحل البحر المتوسط من قراصنة تونس والقسطنطينية.

ولضيق أراضيهم فقد ركبوا البحر باحثين عن أقطار جديدة ليفتحوها فى وقت كان نباح الكلاب المائية الانجليزية نادرا ما يسمع فيما وراء مناطق صيدهم، فكانت أضخم سفينة تجارية تبحر من ميناء لندن (فى ذلك الوقت) لايزيد حجمها عن سفينة ساحلية حديثة تستخدم لنقل الفحم. ومع ذلك وفى فترة حياة عادية واحدة، تمكن سكان هذه الجزيرة غير الهامة من انتزاع الصولجان من قبضة الاسبان، ووضعوا تاج البحار على رأس ملكهم. فكيف حدث ذلك؟ وأى كادموس Cadmus قد زرع أسنان التنين فى الخطوط المائية ليقفز منها هذا السباق ؟ أو من الذي زرع هذه الصراعات التى نتج عنها هذا السباق البحرى ؟ ومن الذى زود سفن الملكة اليزابيث بأطقمها ؟ ومن الذى حمل علم بلادهم حول الارض، فتحدوا وحاربوا الاسبان على سواحلهم وفى موانيهم ؟

وكانت القوة الانجليزية البحرية هى المولود الشرعى لحركة الاصلاح الدينى فكانت قد نمت – كما سيتضح لكم – بطريق مباشر من الحركة البروستانتية المحتقرة.

وكان من الممكن لماثيو باركر Mathew Parker والاسقف جويل Bishop Jewel وهوكر الحصيف نفسه The Judicious Hooker وهم رجال ممتازون- أن يكتبوا ويعظوا ويعلموا من أجل أهداف بسيطة دون الحاجة الى مصاحبة مدافع دريك.

ومن ناحية أخرى فان مدافع دريك هذه لم تكن لتهدر دون بحارة مدربين، قلبا وقالبا، وذلك لتشغيل هذه السفن واعداد مدافعها، وقد عزا الاسبان هزيمتهم الى مهارة البحارة البريطانيين والخاصية الممتازة للسفن الانجليزية وأطقمها. فمن أين أتت هذه السفن؟ وأين وكيف تعلم هؤلاء البحارة حرفتهم؟ وكان المؤرخون قد تحدثوا بحماس عن الروح القومية للشعب الذى ثار وتوحد ليقاوم الغازى وغيره.

ومع ذلك فأن الروح القومية هذه لم تستطع أن تعد أسطولا أو تقدم ضباطا مدربين وبحارة، كى يكونوا أندادا لغزاة لبانتو* Lepanto .

وفي البداية، أود أن أبدى ملاحظة موجزة، ولكن بالتأكيد- دون هدف مثير للتعصب. واعتقد أن كافة الكتاب المحدثين قد قالوا بثقة مرات عديدة بأن الغزو الاسبانى أوقف فى انجلترا الصراعات العقائدية، ووحد بين البروستانت والكاثوليك الرومان، وذلك للدفاع عن ملكتهم ووطنهم. ومن الجدير بالذكر أن هذه الصراعات تذكرنا بأن اللورد هوارد أف افنجهام Lord Howard of Effingham كان أدميرالا للملكة اليزابيث، وكان هو نفسه كاثوليكيا رومانيا. ولكن السؤال أكان هذا صحيحا ؟ وفى الوقت نفسه، كان ايرل أف ارندل عميد أسرة هوارد The Earl of Arundel the head of the house of Howard. وهو كاثوليكى رومانى- يصلى فى القلعة Tower ويدعوا بالنجاح لمدينة سيدونا** Medina Sidona ولم يزد اللورد هوارد أف افنجهام - وبصفته كاثوليكى رومانى- عن الاسقف الحالى لكانتربرى Canterbary أو أسقف لندن. وأرجو الا أكون بذلك قد سلبتهما شخصيتهما. فقد كان كاثوليكيا، ولكن كاثوليكى انجليزى، مثل هؤلاء الاساقفة الموقرين.

---

* لبانتو ميناء ومدينة قديمة تقع على رأس خليج كورنيث فى بلاد اليونان (المترجم).

** هى مدينة شذونة التى تقع فى الجنوب الشرقى للسواحل الأسبانية على لسان الدكتور/ حمدى عبد المنعم أستاذ التاريخ الأندلسى.

فهو لا يمكن أن يكون كاثوليكيا اذا ساند اليزابيث فى هذه المناسبة العظيمة. فالكاثوليكى الرومانى هو الشخص الذى يعترف بسلطة الاسقف الرومانى وكان البابا قد طرد اليزابيث من الكنيسة، وأعلن عزلها، وجعل رعاياها يتحللون من ولائهم لها، بل ومنعهم من أن يحاربوا من أجلها. ولم يكن يوجد انجليزى من الذين حاربوا فى هذه المناسبة العظيمة من أجل حرية الانجليز على وفاق مع روما.

وقد أعددت بيانات مختصرة غير مترابطة من هذا النوع كى تتوائم مع المزاج الحديث بحيث فهمت بسرعة، واستحسنت وكررت، ودخلت التاريخ دون مناقشة.

وكان فى حوزتى تقرير تفصيلى عن اتجاه الاحزاب فى انجلترا، وضع عام ١٥٨٥م، أى قبل الارمادا بثلاث سنين. وكان كاتبه من اليسوعيين المتميزين. واعد هذا التقرير من أجل أن يستخدمه البابا وفيليب، وركز بوجه خاص على استقبال قوة غازية، وجاءت فيه تفاصيل كثيرة، حيث يقول الكاتب "ان سكان المدن- كلندن، وبريستول - كانوا من البروتستانت الملحدين وبوجه العموم كان اللوردات والنبلاء المستأجرون أراضيهم والفلاحون الذين يكونون الغالبية العظمى من السكان من الكاثوليك. ولكن هذا الكاتب كان يميز بدقة بين الكاثوليك. فهناك كاثوليك متحمسون وعلى استعداد أن يكونوا " كهنة إعتراف وشهداء "، وعلى استعداد أن يثوروا فى أول فرصة ، وهم مستعدون كذلك للتخلى عن ولائهم، ولديهم الاستعداد لخلع اليزابيث، ووضع مارى الاسكتلندية مكانها Maryscots ويقول الكاتب: أن عدد هؤلاء كان يتزايد يوميا بسبب المجهودات التى يقوم بها الكهنة فى ندواتهم، وهو يتفاخر بالمكائد المستمرة التى كانوا يحيكونها لاغتيال الملكة .

وهناك كاثوليك من نوع اخر وهم الذين كانوا قلبيا من رعايا البابا، ولكنهم سايروا الاحداث لانقاذ ما يمتلكونه، وتطلعوا الى احداث تغيير فى النظام الطبيعى للاشياء، ولكنهم لن يقدموا على شىء بأنفسهم حتى يظهر لهم فى الواقع جيش غاز، ولكنه (أى الكاتب) يصر بأن الجميع متشوقون لثورة. دع أمير بارما يأتى، فهم سوف ينضمون اليه، وكانت هاتان الطبقتان معا من الكاثوليك يكونان ثلاثة أرباع الامة.

ويقول أن الحزب الوحيد – وهذا شيء حقيقي ملفت للنظر– الذى سيخوض الحرب حتى الموت من أجل الملكة يتمثل فى أصدقائها الحقيقيين، من البيورتان Puritans ويكون ذلك أول اشارة الى الاسم الذى وجدته، وبصفة خاصة بيورتان لندن وبيورتان المدن المطلة على البحر أو المدن الساحلية. وهو يسلم بأن هؤلاء الرجال كانوا خطيرين وجسورين ولديهم العزم ولكن من حسن الحظ كان عددهم قليلا.

وكما قلت فان تاريخ هذه الوثيقة يرجع الى عام ١٥٨٥م، وعلى وجه العموم، اعتقد أنها دقيقة. والخطأ الوحيد أنه كان يوجد من بين الكاثوليك الانجليكان عدد قليل، كانت الدولة عزيزة عليهم، مثل عقيدتهم. وبدأت هذه القلة ترى أنه فى ظل قانون التناسق يمكن أن تعلم وتمارس الطقوس الكاثوليكية، فهم الذين أخلصوا الولاء للطقوس القديمة للعقيدة، لهذا فأنهم لم يعتقدوا أن طاعة البابا ضرورية بحيث تمثل جزءا من العقيدة. وكان أحد هؤلاء هو اللورد هوارد أف أفنجهام Lord Howard of Effingham الذى عينته الملكة في القيادة العليا ليضمن لها ولاء اللوردات والنبلاء المترددين فى ولائهم. ولكن انطلقت القوة والغضب والحماس من البيورتان – كما اعتقد الجزويت – فهم رجال لهم نفس الاعتقادات مثل الكلفيين Calvinists فى هولندا وفى روشيل Rochelle، وهم من الرجال الذين طردوا من الارض ولجأوا الى المحيط كوطن طبيعى لهم، وتعهدوا حركة الاصلاح الدينى فى المحيط مهد هذه الحركة. فكيف تبنى هؤلاء الذين قدموا من الشمال الاوربى هذا الانطباع البروتستانتى القوى. لهذا فأن هدف هذه المحاضرات هو توضيح ذلك.

وعندما تبؤ Henry VIII العرش وجد انجلترا بدون اسطول، وبدون احساس واع بالحاجة الى مثل هذا الاسطول. وكان هناك القليل من السفن التجارية Hulks، التى تعمل بين بوردو Bordeaux وقادش Cadiz، ولشبونة Lisbon، وكل منها صنادل (سفن مسطحة القاع) لنقل الأثقال الضخمة Hoys ، وكان منها كذلك مراكب صغيرة وخفيفة Fly boats التى تتحرك ببطء ذهابا وايابا بين انتويرب Antwerp والتيمس Thames، وقد خصص اسطول جيد لصيد الاسماك، فكان يذهب سنويا الى ايسلندا، وذلك لصيد سمك الكود Cod (البكالاه). وعمل الصيادون المحليون فى بحر الشمال وفى القنال،

ابتداء من هول Hall وحتى فول موث Flamouth وذهب سكان تشستر Chester الى كنسل Kinsale من أجل الحصول على سمك الرنجة Herrings والميكرل Mackerel (السردين). ولم ترغب الامة الانجليزية فى الحصول على أكثر من كل هذا.

وقد قدم كولمبس Columbus العالم الجديد الى هنرى السابع، مع أن كشف هذا العالم لم تتضح معالمه بعد وقد أرسل كولمبس أخاه الى انجلترا ومعه خرائط وأشكال للكرة الارضية، واقتباسات من أقوال الفيلسوف أفلاطون، ليثبت وجوده (أى العالم الجديد) وتعامل هنرى كرجل انجليزى عملى مع كل هذه الاشياء التى أرسلها له كولمبس على أنها حلم يصعب تحقيقه.

وقد أتى الحلم من بوابة القرن (مضيق ماجلان في جنوب امريكا الجنوبية) فاكتشفت أمريكا وأول من امتلكها هم الاسبان وليس الانجليز. وكانت أمريكا لاتزال مكانا رحبا، ومرة ثانية حاول جون كابوت John Cabot، الايطالى الجنسية وابنه سبيستيان Sabestian مع هنرى (القيام برحلة). ومن المحتمل ان انجلترا كانت لاتزال لها القدرة على أن تضمن لنفسها جزءا واستمع هنرى السابع اليهما هذه المرة، واعدت لذلك سفينتين صغيرتين فى ميناء بريستول Bristol وعبرتا الاطلنطى، واكتشفتا نيو فوندلاند واتجهتا الى سواحل فلوريدا باحثين عن طريق يؤدى الى كاثى Cathay، ولكنهما لم يعثرا على شىء. وفى تلك الاثناء، مات كابوت الاكبر، وعاد كابوت الشاب الى أرض الوطن. وفشلت البعثة، ولم يظهر أى اهتمام بها.

وبتولى هنرى الثامن Henry VIII الحكم بدأت حقبة جديدة، بمعالم كثيرة، فكان الطباعة قد استخدمت – وقد هز أرازمس ورفاقه أوربا Erasmus بهذا التعليم الجديد. فقد غير علم الفلك الكوبرنكس مفهوم الارض من قرص مستوى الى كرة تدور، مما أصاب أفكار البشرية بالدوار. وقد اتسع الخيال فأصبحت حقيقة الاشياء تبدو بأحجام أكبر مما يتصوره الخيال، واقتلعت العقيدة الثابتة بكل جوانبها العديدة. ورحب أرزامس بهنرى الشاب لانه ربما يكون فخر لعصره الذى كان قد بزغ، فقد كان شابا لامعا، مهذبا طموحا. فما الذى ترنو اليه نفسه فى ظل هذه الظروف الجديدة ؟ كان هنرى الثامن يمثل كل ذلك، ولكنه كان حذرا. ونظر من حوله، وفى ذلك الوقت كانت

أوربا تنتشر فيها الحروب، التى كان من المحتمل أن ينخرط فيها. وكان والده قد ترك له خزانة عامرة ووجه الملك الشاب – بعقلية الرجل – اهتمامه فى المقام الاول نحو القناة الواسعة التى أسماها بالقنال الانجليزى، التى شكلت خط الدفاع الطبيعى للمملكة. وقد أحدث فتح المحيط ثورة فى الحرب والملاحة، فتطلبت الرحلات الطويلة سفنا أكبر. وكان هنرى الثامن أول أمير يرى أهمية البارود. ففى السنوات الاولى من حكمه أصلح ترسانات السفن، وبنى سفنا جديدة على أنماط محسنة، واستجلب الايطاليين كى يصنعوا له نماذج جديدة من مدافعه . ويقال، أن الملك هارى King Harry أحب رجلا توسم فيه الرجولة عندما رآه، وأقام علاقة شخصية مع قباطنة البحر فى كل من بورت موث Port mouth وثوثمبتون Southampton . وبوسيلة أو بأخرى تعرف على شخص ما هو المستر وليام هوكنز Mr. William Hawkins من بليموث Plymouth،ووضعه محل تقدير خاص. وقد بدأ المستر هوكنز رحلاته الى ساحل غينيا فى غرب أفريقيا تحت رعاية الملك هنرى الثامن، وعاد الى الوطن وهو يحمل معه الذهب والعاج، ثم عبر الى البرازيل، واتخذ أصدقاء له من الوطنيين البرازيليين، وأحضر معه عند عودته ملك هذه البلاد، الذى كان لديه فضولا فى أن يرى كيف تكون انجلترا، وقدمه هوكنز الى هنرى فى سرايا الملك White hall. ومرة أخرى، وبمساعدة هنرى خرج رجل آخر من بليموث Plymouth هو روبرت ثورن Robert thorne ليبحث عن الممر الشمالى الغربى، الذى كان كابوت قد فشل فى العثور عليه. وسميت سفينة ثورن باسم دومينوس فوبيسكوم Dominus Vobiscum. وعلى كل حال لم يتحقق هذا الامل الزائف. وبعد ذلك، حاول رجل من لندن هو المستر هورMr. Hore الذى يقال عنه أنه كان هاويا لدراسة العالم وكان متحدثا مقنعا فى الاجتماعات العلمية وغير ذلك. واستمال بعض المحامين الشباب (اعتقد أنهم لم يمارسوا مهنة المحاماة من قبل)، وكذلك استمال بعض الرجال المهذبين بحيث بلغ عدد الاشخاص الذين انضموا اليه مائة وعشرون شخصا. وحصل هذا العدد من الاشخاص الذين انضموا الى هور على سفينتين عند جرافسند Gravesend، وقبل الابحار منحتهم الكنيسة البركة. وبوضوح اعتمدوا على الرب كى يراعهم لان تجهيزاتهم التى أعدوها كانت قليلة. وكانوا قد وصلوا الى نيوفوندلاندNew

found Land ولكن مخزونهم من المؤن كان قد نفد، ومع ذلك واصلت سفينتيهما المسير الى الشاطىء. وفى أرض السمك، لم يعرفوا كيفية استخدام الصنارة والطعم، فتغذوا على جذور النباتات وعلى ثمار العنب البرى Bilberries، كما التقطوا عظام الاسماك المتبقى فى أعشاش الطيور. وفى نهاية الامر بدأ كل منهم يأكل الاخر، دون اكتراث بالسيد هور، الذى أخبرهم بأنهم سيذهبون الى السعير Unquenchablefire. وفى تلك الاثناء، وصلت سفينة فرنسية، فاستولوا عليها وعلى المؤن التى كانت على متنها، وعادوا بها الى أرض الوطن تاركين طاقمها من الفرنسيين يلقون مصيرهم. وفى سعادة وجد الفرنسيون التعساء وسيلة لتعقبهم أو اللحاق بهم وقد شكا الفرنسيون من معاملة الانجليز لهم، وعندئذ، أمر هنرى الثامن باجراء التحقيق، ولكن فى النهاية وكما قال التقرير، أن الرحمة والشفقة انتابتا هنرى تجاه جماعة المستر هور، وذلك لما لاقوه من كوارث، فلم يقم بمعاقبتهم على ما فعلوه، بل قام بمنح الفرنسيين تعويضا ملكيا من جيبه الخاص.

واذا أريد النجاح لأى مغامرة بحرية فى انجلترا، فان الحاجة لا تقتضي متطوعين، ولكن تقتضى شيئا أفضل. وتسببت الحروب الطويلة التى نشبت بين فرانسس الأول Francis، وتشارلس الخامس Charles V، فى جعل المشكلة أكثر صعوبة حيث كانت الحرب البرية دائرة بين الجيوش النظامية. ونجد أن سفن القراصنة المسلحة كانت تنطلق من الموانىء الفرنسية والفلمنكية والاسبانية، وقام الافراد باستصدار تصاريح حكومية من أجل مشروعاتهم، فأبحروا كى ينتهزوا الفرصة، ويستغلوا ما تقع أيديهم عليه.

وكان القنال هو ميدان الحرب الاساسى لأنه الطريق العام بين أسبانيا والاراضي المنخفضة. ولم يكن هناك فارق كبير بين القراصنة وأصحاب السفن الخاصة. واشتركت السفن بكافة أنواعها فى العمليات الحربية. وأصبحت جزر سيلى Scilly قلعة للقراصنة، فكانت الخلجان الصغيرة ومصبات الانهار – فى كل من كورك Cork وكيرى Kerry مخابىء يختبىء فيها القراصنة بأمان. وهناك يقومون بتقسيم غنائمهم مع الرؤساء الايرلنديين.

وازداد الاضطراب والفوضى عند طلاق كاثرين أف أراجون Cathrine of Aragon ، فقد جعل هذا الطلاق هنرى عدوا علنيا لأوربا الكاثوليكية. عندئذ تعرض التجار الانجليز ومراكب صيدهم للغرق والسلب والنهب مما أدى الى تسليح أطقمها كى يدافعوا عن أنفسهم. وعندئذ أصبح القتال مسرحا للحروب العنيفة، ابتداء من مصب نهر التيمس Thames وحتى لاندس اند Land's End. وفي نفس الوقت تغير نمط السفينة كى تلائم الظروف الجديدة، حيث أعتمدت الحياة على سرعة الملاحة.

وتصف الوثائق الحكومية الاساطيل الفرنسية الصغيرة، والاساطيل الاسبانية السريعة، وهى مندفعة الى كل من دارموث Darmouth وبلى موث Plymouth أو فلموث Falmouth، وذلك لاعتراض السفن الانجليزية أو لمحاربة بعضهما البعض. عندئذ، كان على الملك هنرى الثامن أن يهتم بأمنه دون ضوضاء بعد طرده من الكنيسة، وبعد ثورة ايرلندا، وبعد أن هددت الاضطرابات والفوضى انجلترا.

وقد كتب السفير الاسباني تقريرا عن الملك هنرى جاء فيه أن الملك يقوم ببناء السفن في صمت فى نهر التيمس وفى بورتسموث Portsmouth. ولما أصبح الغزو وشيكا بدأ فى تطهير البحار من السفن التى تثير القلق، واندفع فجأة من سولنت Solent عدد قليل من السفن المسلحة تسليحا جيدا، وأسرت ودمرت أسطولا للقراصنة فى خليج مونتس Mount's Bay كما أغرقت فى الدونز Downs بعض سفن القراصنة الفلمنكيين وأسرت أمير البحر الفلمنكى نفسه.

ولما أصبح الوطن أكثر تعرضا للخطر، وبدأ الرهبان الكاثوليك فى نشر العصيان الذى تطور الى حج الهداية Pilgrimage of Grage ، أخمد هنرى الاديرة وباع أراضيها، وسلح بأثمانها حصون الساحل، وكأنه قال لهم " أنتم تهددوننى، فأنتم ستستخدمون الثروة التى منحها لكم أباؤنا فى قلب نظام حكومتى ، وتستقبلون الغازى، فأنا سأستولى على ثروتكم، وسأستخدمها فى احباط غدركم". ولعلكم ترون ما تبقى من أعمال هنرى التى تتمثل فى الحصون التى أنشأها فى كل مكان على طول الساحل من بيرويكBerwick وحتى اللانس اند Land'a End .

وزمجر الفاتيكان راعدا. ففى عام ١٥٣٩م، كان عصر هنرى الثامن على الابواب، وكانت فرنسا وأسبانيا قد تصالحتا، وكان من المتوقع أن ينقذ تشارلس (ملك أسبانيا) أو كليهما معا قرار البابا وقد تجمع حشد من السفن الضخمة والصغيرة فى شلدت Scheldt (الارض المنخفضة Nether Lands) لا لغرض سوى لنقل الجيش الى انجلترا، وقد انضمت اسكتلندا الى العصبة الكاثوليكية.

ولجأ هنرى دون خوف الى الشعب الانجليزى فلربما فى هذه الحالة يتآمر ضده النبلاء والكهنة والكاثوليك - فكيف نفسر ذلك، هذا ما سنفعله - ولكن الامة الانجليزية كانت مخلصة فوقفت الى جانبه. وفى نفس الوقت، سلح تجار لندن سفنهم فى النهر. وقدمت السفن المسلحة ذات الشراعين، والمراكب ذات الشراع الواحد من كل الموانىء فى كل مكان كما تخلى صيادو السمك فى الغرب عن قواربهم وشباكهم الى زوجاتهم، ولم تسق حالة الصيد، لان النساء تناولن المجداف والشراع والصنارة، وذهبن الى أماكن صيد الاسماك، بينما ذهب أزواجهن ليحاربوا من أجل ملكهم. وعند نداء الوطن تمخضت العبقرية الانجليزية عن اكتشافات جديدة، فاخترع المستر فلتشر أف رى . Mr. Fletcher of Rye(سينكر اسمه) قاربا لم يرى له مثيل من قبل أبدا، اذ أنه سيستخدم فى اتجاه الريح، وله أشرعة مزركشة فى الامام والخلف، وتمثل صناعته أعظم ثورة فى مجال صناعة بناء السفن. وقد حشد ١٥٠ قاربا شراعيا فى ساندوش Sandwich لتتكافىء فى القوة مع الاسطول المرابط فى شلدت. وفى دهشة، كتب السفير الفرنسى ماريلاك Marillac تقريرا عن نشاط الملك والشعب. ونتيجة لذلك، بدأت القوى الكاثوليكية، تفكر بطريقة أفضل، فلم تكن هذه هى انجلترا التى أخبرهم عنها ريجنالد بول Raginald Pole والتى كانت تواقة الى مواجهتهم، وقد تبعثرت قوة شلدت (هولندا، أو الاراضى المنخفضة). عندئذ أعطى هنرى اسكتلندا درسا كانت فى حاجة اليه، وكان الاسكتلنديون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يستفيدوا من موقفه السىء، بحيث يهاجمونه من الخلف، عند مهاجمة الامبراطور له. وفى صباح أحد الايام، وعند استيقاظ الناس من نومهم فى ليث Leith، وجدوا الاسطول الانجليزى رأسيا فى المراسى Roads وقبل أن يكون لديهم الوقت ليتفحصوا ما حولهم اشتعلت

ليث، وسقطت آندبرج Edinburgh ولو أن تشارلس الخامس فكر بجدية فى غزو هنرى، لرجع الى مستشاريه الاكثر حكمة، ولأقام حلفا معه بدلا من ذلك. وتوجه البابا الى فرنسا، فاذا تخلى عنه الامبراطور فان أكثر الملوك تمسكا بالمسيحية ستساعده، ووعد(البابا) فرانسس أنه لو استولى على انجلترا فأنه يمكنه فى هذه الحالة أن يبقيها لنفسه. وقد صمم فرانسس أن يعمل ما يستطيع عمله.

وفى عام ١٥٤٤م، كان قد أنقضى خمس سنوات على التجمع فى ساندوتش Sandwichويذكر التاريخ أن الفرنسيين جمعوا فى هافر Havre ما يقرب من ٣٠٠ سفينة تتضمن سفنا حربية وشراعية، ونقالات للجند ومما لاشك فيه أن هذا العدد مبالغ فيه، ولكن على أية حال، كانت أكبر قوة تتجمع فى ذلك الوقت، كى تغزو انجلترا. وكان من الممكن لو استخدمت بطريقة جيدة أن ترغم هنرى على الركوع. وكانت الخطة تتمثل فى احتلال جزيرة ويت والاستيلاء عليها Isle wightوتدمير الاسطول الانجليزى وبعدئذ تستولى على بورت موث Portsmouthوسوثمبتون Southampton ثم تتقدم الى لندن.

ومع ذلك، لم يتراخ اهتمام هنرى بأسطوله. فقد بنى سفينة تلو الاخرى وكانت حمولة السفينة هارى Harry الف طن، وتحمل أيضا على ظهرها ٧٠٠ سبعمائة رجل، حيث كانت معجزة العصر. وكان هناك اثنتا عشرة سفينة أخرى، كان لها تأثير كبير.

وناشد الملك الأمة مرة ثانية، فأجابته الأمة مرة أخرى، وفى كل أنحاء انجلترا، كان هناك ١٥٠,٠٠٠ رجل مسلحين فى الميدان أو فى الثكنات، ووجد فى أسطول الملك الراسى فى بورت موث ١٢ ألف بحار (اثنا عشر ألف بحار) فضلا عن حشد من السفن الحربية الخاصة بالقراصنة والراسية فى الغرب والتى تجمعت بحماس مثلما كانت من قبل. وعلى الرغم من الأفكار السيئة التى سَمحنا لأنفسنا أن نكونها عن هنرى، فإننا نلاحظ الحماس الذى تجمعت به البلاد التى لم تقسمها الصراعات الدينية، وذلك للدفاع عنه. وفى اسطول بورت موث هذا بقيت عبقرية عظمة انجلترا البحرية المستقبلية على ما هى عليه دون تطور، وهذه حقيقة موجزة ترتبط بهذا، فهى جديرة بالتسجيل.

وكان الشعار على ظهر الأسطول هو "يحيا الملك" وكان الجواب فليطل حكمه لنا. ويعتبر هذا أول بداية أمكن اكتشافها للنشيد الوطنى الانجليزى.

وفى منتصف شهر يوليو من نفس العام، جاء الملك نفسه إلى بورت موث Portsmouth كى يشاهد الهجوم المتوقع. وفى تلك الأثناء، كان الأسطول تحت قيادة اللورد ليسيل Lord Lisle الذى أصبح فيما بعد دوق أف نورثمبرلاند Lord of Northumber land. وفى ذلك الوقت، كان الفرنسيون قد عبروا من هافر Havre دون مقاومة تذكر، ورسوا فى سنت هيلينا، على مقربة من مرسى ميناء هاربر بريدنج Harbour Briding.

وكان الانجليز فى انتظارهم فى المياه الضحلة، لأن الفرنسيين كانوا يفوقونهم عددا، وفى الصباح التالى لمجيء الفرنسيين كان الطقس ساكنا وحارا، لذلك لم يستطع الانجليز التحرك لقلة الريح، ومع ذلك عبروا بسفنهم واشتبكوا معهم (أى الفرنسيين) لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات وكان الموقف فى صالح الانجليز. وعند الظهر هب نسيم البحر، فاندفع عدد قليل من السفن السريعة، ذات الشراع الواحد، واجبرتهم على التراجع بسهولة، ولكن نفس هذا النسيم – الذى مكن الانجليز من التحرك – جلب معه كارثة خطيرة، تمثلت هذه الكارثة فى أن السفينة مارى روز Mary Rose وهى واحدة من أجمل سفن ليسيل Lisle كانت معرضة لنيران سفن الفرنسيين الشراعية الكبيرة ذات المجاديف. فقد تركت نوافذ هذه السفينة مفتوحة. وعندما هبت الريح، جنحت وامتلأت بالمياه وغرقت. وكانت تحمل على ظهرها مائتين من الرجال. ورآها الفرنسيون وهى تغرق، واعتقدوا أن مدفعيتهم هى التى فعلت بها ذلك. وأملوا فى مواصلة نجاحهم. وبالليل، أرسلوا قواربهم لتتوغل فى الداخل لتكتشف الطريق إلى الميناء. وأخبرت تلك القوارب بأن الحواجز الرملية جعلت الاقتراب أمرا مستحيلا. ولم يكن لدى الفرنسيين خطة واضحة للعمل. وحاولوا الرسو فى الجزيرة، ولكن قواتهم كانت صغيرة، ففشلوا فى تحقيق ذلك، ورفعوا مراسيهم، وتحركوا مرة ثانية إلى ما وراء سلسى بل Selsea Bill حيث فكر ليسيل فى أن يعوقها عن العمل فى الظلام منتهزا بذلك المد والجزر. ولكن كان أمام الفرنسيين عدو على ظهور سفنهم أسوأ بكثير من ليسيل نفسه، ويفسر

هذا حركتهم التى تدل على حيرتهم. وكان هذا العدو يتمثل فى مرض الدوسنتاريا الذى أصاب كافة من كان على ظهور السفن، نتيجة للطقس الحار، واللحم الردىء والمياه الفاسدة. وبعد ثلاثة أسابيع من ابحار غير فعال، كان عليهم الاسراع فى العودة الى هافر Havre ليتفرقوا. فلم يحقق أول اسطول عظيم - الذى كان عليه أن يسترد انجلترا إلى البابا - شيئا يذكر. ومرة أخرى، أظهر هنرى قوته، حيث ظل لا ينازعه أحد على البحار الضيقة.

وهكذا، فقد ظلت الأمور معلقة فى المدة المتبقية من عصر هنرى رغم ما بذله من جهد كبير، فقد حارب البابا، وجعل الكنسية تخضع لسيطرة القانون. وحتى ذلك الوقت سار الوطن كله معه، ولم يكن هناك تغييرات عنيفة فى شئون العقيدة. وعندما مات هنرى الغى الوصى العقيدة القديمة، وخلق بذلك صدعا جديدا وخطيرا بين البروتستانت والكاثوليك، فضلا عن تركه الأسطول العظيم الذى خلفه هنرى ينهار، فى وقت كانت فيه انجلترا فى مسيس الحاجة إلى أسطول أكثر من ذى قبل.

وتطورت روح المغامرة بنمو حركة الاصلاح الدينى. وفتحت الشركات التجارية مسالك للتجارة مع روسيا، ومع بلاد الشرق، وذهب قباطنة البحر المغامرين إلى غينيا من أجل الحصول على الذهب. وتتبع السير هيو ويلونجبى Sir Hugh Willonghby الطريق الشمالى الغربى المجهول، واتجه نحو الشرق مارا من حول الرأس الشمالى The North Cape وذلك للبحث عن هذا الطريق ولكنه مات بسبب الجليد. وكانت التجارة الانجليزية قد بدأت فى النمو رغم ممارسات الوصى.

ولكن كان هناك عنصر جديد وخطير للغاية قد بزغ يتمثل فى تحويل العقيدة إلى علاقات بين البحارة الانجليز والقوى الكاثوليكية، وبخاصة مع أسبانيا. وفى حماس لابعاد الهرطقة، وضعت الحكومة الأسبانية موانيها تحت هيمنة محكمة التفتيش، بحيث كانت تصادر أية سفينة يوجد بها كتاب هرطقى (بروتستانتى)، ويحمل طاقمها إلى السجون ليحقق معهم. وقد بدأت هذه المحاكم فى عصر هنرى، وحاول القضاة أن يعاملوا المخالفين فى الرأى كمهرطقين، واعتقلت أسبانيا الانجليز فى موانيها. عندئذ واجه هنرى، تشارلس الخامس بحزم. وفى ذلك الوقت، كانت محاكم التفتيش قد أسست

للقضاء على الهرطقة. وفى ذلك الوقت أيضا كان كل شيء قد تغير. ولم يكن من الضرورى أن يضبط أى بحار تعس وهو يلقن الهرطقة، بل يكفى أن يكون فى حوزته انجيلا انجليزيا أو كتابا للصلوات فى حقيبته، وكانت ترد قصص إلى دارتسموث Dartsmouth، أو إلى بليموث Plymouth، عن فلان وعلان – اللذين كان لهما أما زوجة أو أب أو أم – واللذين القى القبض عليهما بلا جريمة، والقيا فى غياهب السجون، وعذبا وتركا يتضوران جوعا، أو أرغما على العمل فى السفن أو أحرقوا بتهمة الهرطقة فى سيفيل Seville (أشبيلية).

والى حد ما Partly كان هدف محكمة التفتيش سياسيا، فكانت تهتم باعاقة التجارة، وتجعل الناس نافذى الصبر من التغيرات التى نتج عنها مضايقات كثيرة مثل هذه. وعلى وجه الدقة، كان التأثير على العكس من ذلك. فقد سببت هذه القصص الغضب عندما وصلت إلى الوطن، فدب الاحساس بالكراهية لدى الأفراد الذين يسافرون بحرا، وتولدت لديهم رغبة عارمة فى الانتقام.

وأدى الانقسام فى العقائد الى زيادة فى انقسام الأمم، فكان لكل أمة حلفاء فى قلب الأمة الاخرى. فاذا رغبت انجلترا أن تشن الحرب على أسبانيا، فيمكن لأسبانيا فى هذه الحالة أن تشجع المتمردين من بين الكاثوليك فى (انجلترا). وإذا أعلنت أسبانيا أو فرنسا الحرب على انجلترا، فيمكن لانجلترا فى هذه الحالة أن تقدم المساعدة للبروتستانت (الفرنسيين) أو لاتباع كلفن فى هولندا (الأرض المنخفضة). وكانت كل الحكومات متشابهة فى خوفها من الحرب الدينية الشاملة، التى من المحتمل أن تهز أوربا وتفتتها. وهكذا، ترك الأفراد إلى نزاعاتهم الطبيعية، وأحرقت محاكم التفتيش البروتستانت من الانجليز أو الفرنسيين أينما استطاعت اللحاق بهم. وانتقم البروتستانت للظلم الواقع عليهم بطرقهم الخاصة متحملين المخاطر فى سبيل ذلك.

وهكذا، ومنذ عهد ادوارد السادس، وحتى نهاية هذا القرن، أصبحت القرصنة المهنة الخاصة للرجال الأشراف الذين يحبون المخاطرة، ويريدون التفانى فى سبيل الله والوطن وأنفسهم، وذلك بمحاربة الكاثوليك فقد مسحت أساطيلهم المكونة من هذه السفن الخطيرة القتال، وتربصت فى سيلى Scilly أو حتى فى جزر الأزورس Azores،

وتبرأت الحكومات علنا من هذه السفن أو الأساطيل، بينما فى السر كانت هذه الحكومات تؤيدها لأنها كانت تشن حربا من تلقاء نفسها على من عرفوا بأعداء الله.

وفى هذا المضمار كان من بينهم قراصنة لا يهتمون بالله ولا بالإنسان، وكانت وحشية محاكم التفتيش، هى التى أجبرت البروتستانت على ذلك، لأن هذه المحاكم كانت قد بدأت أعمالها بحرق كل من تثبت عليه الهرطقة.

وقد سلب القراصنة سفن الكاثوليك وأحرقوها وأغرقوها انتقاما منهم فكل عمل عنيف يرد عليه أو يواجه بآخر أعنف منه حتى يتوارى الصواب والخطأ، فى خضم الكراهية الدينية. وقد بقيت صورا حية من هذه الأعمال الوحشية فى الوثائق الحكومية الانجليزية والاسبانية. وكانت ايرلندا مأوى محببا للقراصنة، فعلى العموم كان هناك فوضى، ولكنها تقريبا لا تشكل مسألة ذات أهمية، فكان القباطنة من القراصنة سيئى السمعة يلتقون فى كورك Cork أو فى كنسال Kinsale، وهناك كانوا يجمعون الذخيرة فى مخازن، ويقومون بتصنيع المدافع، كما يقومون ببيع غنائمهم، فنجد هناك رجالا من كل الأنواع، من رجال الدين المتعصبين الى المتشردين من غير المتنكرين فهذه حادثة من كثير توضح لنا قمة ما وصلت اليه الأمزجة. ويقول شخص ما، مخاطبا المجلس الاستشارى فى بداية عهد الملكة اليزابيث "أن السلام الطويل قد أصبح أكثر ضررا من الحرب الصريحة، نتيجة لمحاكم التفتيش الأسبانية الغاشمة. وكانت أسبانيا تصر فى الخفاء على اتباع سياسة كان الهدف منها تدمير الأسطول الانجليزى بما فيه من مرشدين، وضباط وبحارة، بواسطة محاكم التفتيش. ويدعى الملك الأسبانى أنه لا يستطيع أن يتعدى على محاكم التفتيش، بينما نحن فى انجلترا، نقول اننا لا يمكن أن نعلن الحرب على أسبانيا انتقاما للمقتولين، ولم تمض مدة طويلة على اعدام محاكم التفتيش الاسبانية لستين شخصا من سنت مالو St. Malo رغم توسلهم الى الملك الاسبانى كى ينقذ حياتهم. وبعد ذلك قام الفرنسيون بتسليح سفنهم التى كانت تنتظر الأسبان، فأسرت هذه السفن مائة من الأسبان، وقطعت رؤسهم، وأرسلت هذه السفن الأسبانية إلى الشاطىء وهى محملة برؤسهم، وتركوا فى كل سفينة شخصا حيا كى يحكى للاسبان سبب الانتقام. ومنذ ذلك الوقت، فإن المحققين الاسبان تركوا سكان

سنت مالو وشأنهم.

وفى تلك الأثناء أسس اللاجئون الهجنوت مستعمرة على ساحل فلوريدا، فسمع عنها الاسبان فقدموا اليها من سنت دومنجو St. Domingo وأحرقوا المدينة وشنقوا كل رجل وامرأة وطفل وتركوا نقشا يوضح أن هؤلاء المخلوقين التعساء قتلوا، لا كفرنسيين، ولكن كملحدين (مهرطقين). وقد سمع بهذا العمل التعصبى الكبير دومنك دى جورج أف روشيل Domenque de Gourges of Rochelle الذى جهز سفينة وأبحر بها إلى هناك، والقى القبض على أفراد الحامية الأسبانية التى تركت تحتل المنطقة، وأعدمهم عند نفس الأشجار، وترك ملحوظة ثانية تقول "أنهم شنقوا هناك ليس لكونهم أسبانيين ولكن لكونهم قتلة".

وأغرت روح المغامرة رجالا من النبلاء، كى يكونوا من ضمن طبقة القراصنة. فكان السير توماس سيمور Sir Thomas Seymour - أخو الوصى، وعم الملك - قائدا للبحرية. وفى أثناء شغله لوظيفته هذه قدمت شكاوى كثيرة من جانب التجار الأجانب أصحاب السفن، الذين تم الاستيلاء على سفنهم وعلى ممتلكاتهم فى مصب نهر التيمس Thames فلم يعوضوا، ولم ترد اليهم ممتلكاتهم، ولم يعاقب أى قرصان. وقد رئى اتباع سيمور بطريقة مريبة، وهم مزينون بحلى أسبانية. واتضح فى النهاية، أن سيمور اشترى لنفسه جزر سيلى، Scilly Isles. واذا لم يجد طريقه إلى البلاط فان ذلك سيدفعه الى تنصيب نفسه رئيسا للقراصنة، وقد جلب الاضطهاد الدينى فى عهد مارى Mary متطوعين أكثر احتراما من سيمور. وبمرور الزمن، كبرت الأجيال الشابة فى الاسر الغربية، فلو لم يكونوا بروتستانت لاهوتونيين لكرهوا الطغيان، وكرهوا أن يتزوج فيليب من مارى فهذا يهدد استقلال بريطانيا. فكانوا فى الوطن عاجزين وضعافا، ولكن أبناء الأسر النبيلة - أسرة استرنجويز Strangways، وتريمينس Tremaynes، واستافوردس Staffords وهورسيز Horseys والكارويز Carews - اندفعوا نحو البحار كى ينتقموا لمذبحة سميث فيلد Smithfield وبحثوا عن أقل مساعدة يمكن أن توجد وفى ذلك الوقت كره هنرى الثانى ملك فرنسا الهرطقة، وكان يكره الأسبان أكثر. ولما كان يفضل أن يرى انجلترا وقد امتصتها الملكية الأسبانية، فقد

نسى سياساته التعصبية. وقد أمد هؤلاء الشباب المتمردين بسفن ونقود، وخطابات مرور. وكان الهجنوت من أصدقائهم الطبيعيين. وباعداد روشيل كترسانة، تمكنوا من السيطرة على مدخل القناة، وعرقلوا المواصلات بين قادش Cadiz والانتويرب Antwerp. وكان هذا من الأعمال العنيفة. وقد أقر الدين، والكراهية للقسوة، القيام بمغامرات وقرصنة. وقد كانت هذه الأفكار مدرسة فريدة فى المجال البحرى، ومدرسة فى بناء السفن التى يمكن أن تبحر فى البحر أسرع من كل الأنواع الأخرى، وهى أيضا مدرسة لتدريب الرجال الأقوياء، الذين يجرى فى دمهم الكره لمحاكم التفتيش ولرؤساء هذه المحاكم. وعرقلت مراكب القراصنة أى تجارة أخرى، لهذا تم تسليح المراكب التجارية، بحيث كانت مستعدة لأى عمل يطلب منها. وقد كف الأسطول الأيسلندى The Ice Land Fleet عن بحثه عن سمك الكود Cod، وتخلى البحارة فى القتال عن الشباك والصنانير، بحيث تولوا أعمالا أكثر حيوية. وانشغلت مارى أيضا بحرق المهرطقين، ولم تهتم بأمن البحار. وقد تلفت سفن والدها الجميلة فى الميناء، وهجرت حصونه الساحلية أو أصبحت عديمة النفع. فضلا عن أنها فقدت كاليه Caluis، وفقدت حب شعبها، وذلك بسبب اجبارهم على اتباع المذهب الكاثوليكى، وتخلت عن البحار لسفن القراصنة، ولم تكن هناك حرفة مزدهرة، سوى ما أسمته القوى الكاثوليكية بالقرصنة.

ولما جاءت اليزابيث الى العرش شرع كل الأسطول التجارى لانجلترا، فى تجارة شرعية لا تزيد عن ٥٠ ألف طن. والآن تستطيع أن تراها أكثر وهى تمر كل يوم من مجرى الجول Gulstream. وكانت هناك فى خدمة التاج سبع سفن حربية جاهزة تبلغ حمولة أكبرها ١٢٠ طن، وكان برفقتها ثمانية سفن صغيرة عدلت لتكون سفن حربية. ولا يزال يوجد فى الميناء وفرة من السفن الضخمة، ولكنها كانت تالفة وعديمة النفع، وليس بها مدافع ملائمة للعمل فى البحر. وكما قال السير وليام سيسل بأن هذه السفن لا يوجد لها بحارة. ولكن لكى تجهز أى سفن بدون رجال فلابد من تزويدها بدروع وتشد بأوتاد على السواحل البحرية. ولكن كان بحارة انجلترا مشغولين بغير ذلك، وبطريقة لم تدخل السرور فى قلب سيسل، الذى كان من أقدر الوزراء فى وزارة اليزابيث. وفى مرة

من ٣٠ مرة، رأى أن رخاء وحرية انجلترا لابد وأن يعتمدا على الأسطول فى النهاية. ولو أرادت انجلترا أن نظل بروتستنتية فان ذلك لن يتأتى بمواد دينية أو بقوانين التناسق ولكن يتأتى بأسطول يقف من خلف اجلترا، وكان سيسل يؤمن بالقانون، لأنه كان من الطراز القديم. وقد ترك سيسل وثيقة دقيقة تبين الآراء الخاصة بالموقف. وكانت شركات السفن فى عصر هنرى الثالث تجمع من السفن الصغيرة، وكانت حركة الاصلاح الدينى قد دمرت حرفة الصيد. وأضاف سيسل أن اللحم كان لا يؤكل فى الأيام التى يؤكل فيها السمك فيما مضى. ولم يستطيع الملك نفسه منح تصاريح يكسر بها القانون الخاص بذلك، وكان أكل لحم البقر أو الضأن فى الأيام التى يؤكل فيها السمك انما هو اختبار للمؤمن الصادق. وكانت مصايد الأسماك الانجليزية فى أيسلندا تزود نورماندى وبريتانى اضافة الى انجلترا. والآن وصلت هذه الأسماك الى الفرنسيين. واعتاد رجال تشيفر أن يصطادوا فى البحار الايرلندية، ولكن فى ذلك الوقت تركوها (أى البحار) الى الاسكتلنديين. وفى تلك الأثناء ترك الصيادون مهنة الصيد، واتجهوا الى القرصنة، لأن الصيام الذى أوجبته الكنيسة قد أهمل، فرأى أن ذلك حقيقة، وقد دون سيسل رأيه الذى جاء فيه أن القرصنة وكما سماها كانت شيئا مكروها ولا يمكن أن يستمر.

ولكن وجد أنه من الممكن أن تدوم فيما بعد، وانها يمكن أن تشكل نظاما خاصا للجيل الذى تكون مهمته محاربة الأسبان، وناضل سيسل بصلابة ضد الاستنتاج غير المقبول، وحاول أن ينشط التجارة الشرعية عن طريق قانون الملاحة، وحاول أيضا أن يستعيد مصايد الأسماك بواسطة قانون يصدر من البرلمان. وقدم مشروع قانون يقضى بالتقشف الدينى كوسيلة للفضيلة، فقضى هذا القانون بأن أكل اللحم فى أيام الجمع والسبت مخالفة، بالاضافة الى أنه خصص نصف يوم الأربعاء لأكل السمك. ونتيجة ذلك ضحك مجلس العموم The House of Commons عليه، لأنه أحيا بذلك الممارسات الكاثوليكية، ولكى يرضى البروتستانت أدخل فقرة جديدة، كان مفادها أن القانون كان سياسيا وقصد به زيادة الصيادين والبحارة، ولم يقصد به أى خرافة خاصة باختيار اللحوم. وسمى هذا القانون بطريقة ساخرة "صيام سيسل"، ولابد وأن تنتظر مصايد

الأسماك بعد استعادتها حتى تنتعش الرغبة الطبيعية للبطون الانسانية من نفسها، لأسماك الكود Cod والى أسماك البياض.

وأضاف سيسل فى قوله، ينبغى أن تأخذ الاحداث مجراها وينبغى أيضا أن يجهز البحارة بوسائل أخرى مناسبة، وبحسب متطلبات الزمن وكانت القرصنة قد لاءمت اليزابيث وميولها، فهى تحب الجسارة والمغامرة، وتحب رجالا يؤدون لها أعمالا دون مقابل، وتحب أيضا رجالا يمكن أن تتنكر اليهم عند الضرورة، رجالا يفهمونها ولا يمتعضون من ذلك. وكانت اليزابيث على دراية بأن دورها سيأتى عندما يفرغ فيليب ليتعامل معها اذا لم تستطع أن تؤمن نفسها أثناء ذلك. وكانت فى حاجة إلى الوقت كى يستعيد الأسطول قوته.

وكان القراصنة مصدرا لمساعدتها فى تلك الفترة. ومن الممكن أن يسموا بقراصنة عندما يوجد هناك سلام شكلى، ولم يكن هذا الاسم ذا أهمية. فكان القراصنة يمثلون القوة المسلحة الحقيقية للوطن. وبعد نشوب الحرب فى الأراضى المنخفضة كان لديهم السلطات من أمير الأورانج.

وهكذا، فان هذه السلطات سوف لا تنقذهم اذا استولت أسبانيا على الأراضى المنخفضة، ولكن هذه السلطات مكنتهم من بيع غنائمهم، وفيما عدا ذلك، فقد اعتمدوا على سرعتهم وبنادقهم لتحقيق ما يريدون. وعندما كانت اليزابيث فى حرب مع فرنسا حول هافرHavre ضمت اليها غالبية القراصنة المشهورين، وذلك لخدمة التاج. وكان منهم ند هورسى Ned Horsey الذى أصبح السير ادوارد Sir Edward، والذى أصبح حاكما لجزيرة هويت Isle White، ومنهم أيضا سترانج ويز Strangeways الذى أطلق عليه القرصان الأحمر A red Roven، الذى كان مصدر فزع للأسبان، وقد قتل أمام روين Rouen، كما قتل تريمين Tremayne عند هافر، ونعته اليزابيث وقتل أيضا تشامبرنون – الذى كان واحدا من أعظم الجميع شجاعة فى ضاحية كولجنى فى مون كونتور Mon Contour، وبعدئذ حل محل هؤلاء القراصنة القتلى قراصنة آخرون. وكان هؤلاء لقراصنة الشرسون كثيرين فى عددهم مثل الطيور البحرية التى تتألق فوق الأمواج، وفى وسط الرياح الخفيفة أو العنيفة، وكانوا يضحكون أثناء المطاردة وهم فى

حالة شجاعة واستهتار. فهم يمثلون خليطا غريبا من البحارة. فكان القراصنة الانجليز يأتون من خلجان دفنشير Devonshire ومن كورنيش، وكان الهجنوت يأتون من روشيل Rochelle، وكان الجنود الايرلنديون - بخصلات شعرهم الطويلة - جنودا أقوياء وعنيدين وليس عندهم رحمة.

وكانت محاكم التفتيش تواصل عملها دون مبالاة، بل وبتصميم همجي. وكانت هذه المحاكم التى بدأت أعمالها هى التى تسببت فى ذلك. وتقول ملحوظة كتبت بيد سيسل أنه فى سنة واحدة هى سنة ١٥٦٢م، أحرق ٢٦ شخصا من الرعايا الانجليز على أوتاد فى أجزاء مختلفة من أسبانيا. وفى عشرات المرات كان الكثير من هؤلاء المساجين يتضورون جوعا فى السجون الأسبانية، وأحيانا كانت تنبعث صرخة تتبعها صرخات أخرى نتيجة حادث سعيد.

وفى عام ١٥٦١م، كتب تاجر انجليزى من الكناريز Canaries يقول: "أخذت بواسطة محاكم التفتيش الأسبانية، وبعد مرور عشرين شهرا وضعت فى منزل صغير مظلم ومملوء بالسلاسل الحديدية، دون رؤية الشمس أو القمر طوال هذه المدة. وكنت قد اتهمت بأننى قلت بأن قداسنا (أى قداس انجلترا) جيد مثل قداسهم (أى الأسبان)، واتهمت أيضا بأننى قلت اننى أفضل أن أعطى النقود للفقير ولا اشترى بها ثيران من روما. كما اتهمت لكونى من رعايا الملكة التى هى، وكما قالوا لى عدوة للعقيدة، وضد المسيح، اضافة إلى أنهم لصقوا بها أسماء حقيرة. ووقفت موقف المدافع عن صاحبة الجلالة مبرهنا على أن ما ألصقوه بها من سباب غير حقيقى. وعندئذ، وضعت فى سجن صغير مرة ثانية، محتجا على أن الدم البرىء يطالب به أمام قاضى ضد المسيح. ولم ينتظر الدم البرىء لهؤلاء الضحايا الفقراء لينتقم له يوم الحساب Jadjment بل قدم الحساب بعد وقت قصير، وفى الحال بفوهة المدفع.

الفصل الثانى

جون هوكنز وتجارة الرقيق

أبدأ هذه المحاضرة بالتماس موجه إلى الملكة اليزابيث، جاء فيه: "سمع توماس سيلى Thomas Seely – وهو تاجر من بريستول Bristol – أسبانى فى أحد الموانى الأسبانية يتفوه بتهم بذيئة على شخص الملكة فركله. لذا كان من الممكن أن ينقضى هذا السلام، ولكن مع ذلك، فانه لم يعتبر هرطقة بعد. وعندئذ ألقت محكمة التفتيش القبض على سيلى، وزجت به فى السجن، وتركته يتضور جوعا لمدة ثلاث سنوات، وفى نهايتها وجد وسيلة تمكن بواسطتها من أن تعرف انجلترا ظروفه. وكتبت الملكة بنفسها احتجاجا الى فيليب، ولكنه مع ذلك لم يتدخل. وظل سيلى فى السجن مقيدا بالسلاسل. وكان من نتيجة ذلك أن قدمت زوجته التماسا، كان من الممكن أن يقرأ فيه حدة الانفعال، وكان هذا الالتماس كالرسائل التى تتأجج نارا.

وقد طلبت دورثى سيلى Dorthy Seely (أى زوجة سيلى) فى ملتمسها هذا أنه عندما يسجن رعايا صاحبة الجلالة (اليزابيث) ويعذبون فى أسبانيا، فانه يكون من الواجب فى هذه الحالة على أصدقائهم، الاستيلاء على السفن الأسبانية، بتهم مناسبة أو ملائمة.. كما يقومون بالقضاء على الكاثوليك من رعايا ملك أسبانيا، سواء أكان ذلك فى البر أم فى البحر بحيث يحتجزونهم فى السجون ويعرضونهم للعذاب والجوع، مثلما يتعرض له رعايا جلالة الملكة فى أسبانيا. ويجب أيضا أنه اذا تقدم الملك الأسبانى بشكوى فانه يتلقى نفس الاجابة التى كان يرد بها على شكوى الملكة الخاصة برعايا الذين كانوا يتعرضون للسجن من قبل محاكم التفتيش. وطلبت دورثى فى التماسها هذا من الملكة أن تمنح كلا من رئيس كانتربرى Canterbury، والاساقفة الآخرين التفويض فى معاملة الكاثوليك بنفس الطريقة التى يعامل بها البروتستانت من قبل محاكم التفتيش فى أسبانيا. لذا فمن الممكن للجميع أن يدركوا أن صاحبة الجلالة لا يمكن أن تتحمل أكثر من ذلك. فقد تعرض رعاياها للعذاب والخسائر، ومن الواجب الا يخطر ببال الأسبان بأن هذه الملكة النبيلة لن تجرؤ على الانتقام لهذه المظالم غير المحتملة،

ومن الواجب أيضا الا يعتقد الأسبان بأن هذه الملكة سوف لا تنتقم لهذه المظالم غير المحتملة.

ولكن مع ذلك فلم تصدر صاحبة الجلالة تفويضا، على حسب ما طلبت دورثى، بل تركت رعاياها يبحثون عن الانتقام بوسائلهم الخاصة - وقد سعى رعاياها أحيانا الى ذلك بتهور.

ففى صيف عام ١٥٦٣م، رسى ثمان سفن انجليزية تجارية، عند جبل طارق - فى ذلك الوقت كانت انجلترا وفرنسا فى حرب - ومن بعدهم دخلت مركب شراعى فرنسى بساريتين، واقتربت منها (أى من السفن البريطانية) ولو كان فى امكان السفن البريطانية هذه الاستيلاء عليها (أى على السفينة الفرنسية) فان ذلك كان يعتبر غنيمة شرعية، لأن الأسبان كانوا لا يحترمون حياد الموانىء الانجليزية فى مثل تلك الظروف. وكان الانجليز يشكون فيما يجب أن يعملوه، بعد أن أوقفت محاكم التفتيش السفينة الفرنسية هذه. وعندما شاهد التجار الانجليز ما ألفوه من تصرفات الأسبان المشينة استشاطوا غضبا، واندفع ثلاثة منهم (أى من الانجليز) الى السفينة الفرنسية قاصدين اغراقها. عندئذ قفز المحققون الى قاربهم وابتعدوا خوفا على حياتهم. وقد فتحت مدافع القلعة (الاسبانية) نيرانها، وخرج حرس الميناء (الأسبانى) كى يتدخل. وكان من الممكن للانجليز أن يستولوا على السفينة الفرنسية، الا أنه لسوء الحظ قدم الفاريز دى باكون Alvarez de Bacon الى داخل المضيق، وبرفقته فصيلة أسبانية. عندئذ، كانت المقاومة من جانب السفن الانجليزية مستحيلة، لذا تم أسر الثمانى سفن الانجليزية هذه بواسطة الأسبان، واقتيدت الى قادش. وقام باكون بجذب العلم البريطانى بمؤخرة سفينته. ووضع أطقم السفن الذين بلغ عددهم ٢٤٠ بحارا (بريطانيا) على متن سفن أسبانية شراعية كبيرة، ذات مجاديف. ولم يستطيعوا فى دفاعهم، الا القول بأن الفرنسى كان عدوا، وكان من الممكن أن يعاقب، ولكن يجب أن يكون هذا العقاب عقابا معتدلا، بسبب خرق قواعد الميناء، التى لم يأبه بها الأسبان أنفسهم الا قليلا. وكانت محاكم التفتيش لا تعرف الرحمة فكانت تعامل الرجال بوحشية غريبة. فبعد تسعة شهور بقى على قيد الحياة تسعون شخصا من الأسرى الذين كان عددهم مائتين

وأربعين شخصا.

اصغى الى هذا، فقد رد على الوحشية بوحشية أخرى، ولقد كان سكان قلعة كوبها مس أف كولنج The cobhams of couling ينحدرون من السلالة البروتستانتية. وكان اللورد كوبها .Lord Thoms cobham المشهور فى تاريخ شهداء لولارد Lollard .. مثل الكثير من أصدقائه – من أسرة ركبت البحر. ففى أثناء تجواله فى القنال وقع بصره على أسبانى كان فى طريقه من أنتويرب Antwerp الى قادش Cadiz، وكان على ظهر سفينته أربعون سجينا كان من المفروض أن يرسلوا الى محكمة التفتيش وكانوا بالطبع من المساجين الذين يحقق معهم، فضلا عن مجرمين آخرين، سوف يحقق معهم فى الحال أيضا، ولكن كوبهام تعقب هذه السفينة فى خليج بسكاى The Bay of Biscay واستولى عليها، واغرقها وأنقذ الأسرى. ولكن لم يكن ذلك كافيا، بل خلط الكابتن والطاقم فى شراعهم، وقذفهم من على ظهر المركب فانجرفوا مع التيار الى الشاطئ، وهم موتى ملفوفون فى كفنهم غير العادى.

وقد استدعى كوبهام ليعلل أسباب هذا العمل، ولكن فى الواقع يبدو أنه لم يعاقب. وبعد فترة قصيرة عاد مرة ثانية الى مكان العمل القديم. وكان معه هذه المرة وفرة فى العدد، وبعد عملية جبل طارق، لم يصبح رعايا فيليب يلقون الأمان فى الموانئ الانجليزية فى هذا الوقت. فقد طارد جاكس لكلرك Leclerc – القرصان المشهور باسم بى دى بالو Pie de palo بسبب رجله الخشبية – سفينة أسبانية الى فالموث Falmouth. وهناك سمح له بالأستيلاء عليها تحت تهديد مدافع حصن بندس pendenis. وقال حاكم الحصن، أنه لم يستطيع التدخل لأن لوكلرك كان لديه تفويضا من أمير كوندى The Prince of Conde ، وذلك بأسر السفن الأسبانية. وفى صيف عام ١٥٦٣ م تجول فى القناة أربعمائة انجليزى، وعدد آخر من القراصنة الهجنوث، الذين قاموا بتوزيع ٧٠٠ غنيمة فيما بينهم. وكانت السفن الخاصة بالملكة تمارس نفس العمل. وكان الكابتن كوتون Captain Cotton، قد أسر فى فلشنج Flushing بسفينة الفيونكس، سفينة من انتويرب، فاحتج مدير الميناء على ذلك. ولكن ضحك كوتون، وأبحر بغنيمته. وفى هذا الصدد كتبت مارجريت Regent Margaret نائبة الحاكم بغضب الى

اليزابيث تقول، ان مثل هذه الوقاحة لا يمكن أن تحتمل، وأنها ستجعل الكابتن كوتون يتعرض للعقاب حتى يكون عبرة لكل الآخرين. ولكن اليزابيث قدرت الموقف بدقة أكثر من مارجريت. وفضلت أن تبين لفيليب أنها ليست خائفة منه، كما فضلت أيضا أن تدع رعاياها يكتشفون بأنفسهم بأن الأسبانى المرعب، الذى يرتجف العالم أمامه، ما هو الا تمثال كبير الحجم محشو بالخرق. لهذا سمحت اليزابيث باطلاق ايدى رعاياها من القراصنة حتى يقيد فيليب محاكم التفتيش.

ومن حين لآخر، وفى حالة ما تستدعى الظروف، فان اليزابيث نفسها، كانت تسمح بممارسة القليل من أعمال القرصنة لحسابها. ففى القصة التالية، التى ينبغى على أن أقصها، تظهر فيها اليزابيث كرئيس، ويظهر وزيرها العظيم سيسل كشريك. كان دوق الفا Duke of Alva قد خلف مارجريت كنائب للأراضى المنخفضة، وأغرق الهرطقة فى دمائها. وكان أمير الأورانج Prince of Orange يخوض ضده معركة نبيلة، ولكن الأمور انعكست عليه، فانهزمت قواته (بمعنى أن تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن) وقتل أخوه لويس Louis، عندما كان لايزال يناضل بمساندة نقود اليزابيث. وفى تلك الأثناء، كان الشجار Odds مزعجا بالنسبة لأمير الأورانج، وكان الأمل الوحيد أمامه هو استياء جنود الفا، الذين لم تدفع لهم أجورهم، فقد لا يحاربون بدونها. وفى نفس الوقت لم تكن الناحية المالية لفيليب مزدهرة لهذا اقترض (فيليب) نصف مليون من الدوكات من بيت تجارى فى جنوا من أجل أن يستخدمه الفا. وكان من المفروض أن تسلم النقود على هيئة سبائك فى انتويرب. وكان قراصنة القنال قد سمعوا بأن النقود فى الطريق فقاموا بمراقبتها والبحث عنها. واتخذت السفينة التى ارسلت بالنقود مأوى لها فى بليموث، ولكنها وجدت نفسها فى وكر للعدو. فقامت تسع عشر أو عشرين من سفن الهجنوث والسفن الحربية الانجليزية بمحاصرة هذه السفينة. وكان لدى هذه السفن – التى قامت بالمحاصرة – تفويض، من كوندى Conde بالاستيلاء على كل سفينة كاثوليكية يلتقون بها. وفكر أصدقاء اليزابيث المقربين لها، وقالوا صراحة يجب الا تؤول أية غنيمة ثمينة لأحد غير صاحبة الجلالة وفى الوقت نفسه، كانت اليزابيث تفكر فى نفس الشيء ولكن لسبب أكثر أهمية من هذا، هو أنه من المهم جدا ألا تصل

النقود الى دوق الفا، حتى أن سيسل Cecil قال ذلك، وأرسل الى أمير الأورانج يخبره بأن النقود سوف تمنع من الوصول الى الفا بأية طريقة.

ولكن كيف يستطيع عمل ذلك بطريقة سهلة؟ فبسبب هذا الموضوع كان القلق قد أصاب الملكة ولكن الأسقف جويل Jewel تمكن من اراحتها نفسيا وبخاصة من الناحية الأخلاقية، فرأى الأسقف انه من الجدير بالاهتمام وبدرجة عالية، اعتراض هذه النقود التى تستخدم فى اغتيال المسيحيين البروتستانت. ولكن كيف؟ فهذه هى المشكلة.

وأضاف فى قوله انه اذا ترك القراصنة يتولون ذلك علنا فى ميناء بليموث Plymouth، فسيكون ذلك فضيحة كبيرة. ولكن لما رأى السير أرثر تشامبرنون Sir Arther Champernowne – نائب الأدميرال البحرى فى الغرب – هذه المشكلة استعد لتقديم خدماته، فكان أرثر هذا يملك ثلاث سفن حربية تعمل جميعها ضمن أسطول قراصنة كوندى، الذى كان ابنه هنرى يقودها، ولما كان آرثر نائبا للادميرال البحرى، فقد كان هو نفسه القائد الأعلى فى بليموث. وكانت السفينة التى تحمل السبائك، قد وضع على ظهرها حارس. وكان آرثر قد أخبر بأن هذه السفينة التى تحمل السبائك لو تعرضت لضرر فى المياه الانجليزية فأن ذلك سيكون فضيحة لحكومة الملكة. لهذا كتب أرثر، الى سيسل يقول: "اذا كان يبدو مناسبا لحضرتكم أن أقوم أنا مع الآخرين بالمحاولة، من أجل فائدة صاحبة الجلالة، التى لا يمكن أن تتم، بدون اراقة دماء، فأنا لن أتولى العملية فحسب، بل اننى مستعد أيضا أن أتحمل أى لوم ينجم عن ذلك بحيث تكون النتيجة المرجوة لهذا هى أن تؤول ملكية هذه السبائك الى صاحبة الجلالة، آملا أن أجد منها رعاية طيبة، علما بأننى على استعداد تام لأن أتعرض لأية مخاطر من أجلها، وبخاصة أنها كانت قد سخطت سخطا مريرا وذلك لعدم اظهار الحقيقة على ما هى عليه. ويكون من المؤسف جدا عدم وصول هذه الغنيمة القيمة لجلالتها. وأؤمن بكل تأكيد بأن أى شىء يؤخذ من الأمة الشريرة، يكون فى جملته ضروريا، ومفيدا لحكومتنا، وللبلاد التى تحت التاج البريطانى. واعتقد الكثير من الناس الطيبين، بأن كتابة مثل هذا الخطاب من جانب آرثر يمثل صدمة عنيفة لهم. وأمل فى أن يشعر هؤلاء الناس كذلك بصدمة لا تقل عن الصدمة التى يحدثها احراق الملك فيليب للبحارة الانجليز على

خوازيق، لكونهم مخلصين الى قوانين بلدهم. وأن فيليب كان يشعل نيران الحرب فى كل أوربا، كى يرضى البابا، ويدفع بذلك مبادىء مجلس ترنت The Council of Trent الى داخل حلق الجنس البشرى على أسنة السيوف The Sowrds Point وكان من المحتمل أن يسود السلام بين أسبانيا وانجلترا، مع أن الكاثوليكية والبروتستنتية كانتا فى حرب مميتة. ومن المعروف أن الحرب تعرقل التزامات الحياة العادية. ففى أثناء الحرب يعتبر ارتكاب أفظع الجرائم فضائل، وذلك دفاعا عن العقيدة الكاثوليكية. ولم يستطع الكاثوليك أن يستفيدوا من مثل هذا التساهل بدون متاعب، فكانت قضية البروتستانت فى أنحاء أوربا تتمثل فى أنهم كانوا يهاجمون بوحشية فظيعة، فلم يكن فى استطاعتهم الاعتدال، فى الوسائل التى يستخدمونها للدفاع عن أنفسهم. ولم يستدعى السير آرثر تشامبرنون كى يضحى بنفسه بهذا الأسلوب الغريب. وكانت قد وجدت طريقة مناسبة للحصول على نقود الفا Alva's Money، تمثلت فى إنزال السبائك إلى البر، ثم إحضرت إلى لندن عن طريق البر أيضا، بحجة أن البحار كانت غير آمنة، ونقلت هذه السبائك إلى القلعة، ولما أصبحت فى داخل حوائطها، وجدت لتبقى ملكيتها للجنوبيينGenoese، حتى تسلم فى انتويرب.

وكان ممثل الجنوبيين فى لندن، على استعداد لأن يقرضها (السبائك) الى اليزابيث، كما كان على استعداد أيضا لأن يقرضها الى فيليب، وفى واقع الأمر فضل ممثل الجنوبيين هذا الجانب الذى يوفر له الضمان. وقالت اليزابيث بهدوء أن لديها نفسها سبب ملائم لاقتراضها هذه النقود، ولذا قبلت هذا العرض. وبعد ذلك أرسلت نصف هذه النقود إلى أمير الأورانج وأرسلت النصف الآخر الى أسطول الملكة.

وقد استشاط الفا غضبا. فقبض على كل سفينة انجليزية فى الأرض المنخفضة واعتقل أى انجليزى استطاع أن يمسك به، وصادر كل أملاك الانجليز. وقابلت اليزابيث ذلك بالمثل، فقد استولت على الأملاك الأسبانية والفلمنكية الموجودة فى انجلترا، وثبت أنها تساوى ضعف ما استولى عليه الفا. ولم يستطع فيليب اعلان الحرب، فقد أدى خروج الأراضى المنخفضة منه، الى ضعف موارده المالية. وبما أن اليزابيث كانت عدوا مباشرا لفيليب فان ثقل انجلترا كان من الممكن أن يبقى إلى جانب

أمير الأورانج. وكان الناس (فى انجلترا) يقولون ينبغى على اليزابيث نفسها أن تعلن الحرب، بدلا من النزول الى مثل هذا الخداع، فربما يكون ذلك، وربما لا يكون. وقد هزت هذه الاهانات – التى بقيت راسخة دون استياء – ثقة الانسانية، وبصفة خاصة البحارة الانجليز، فى المارد الاسبانى الذى لا يقهر.

والان أعود الى الجانب الآخر من الموضوع. فالقصص التى أخبرتكم بها تظهر مزاج العصر، والمناخ الذى كان الناس يتنفسونه، ولكنه من المفيد أن ننظر بدقة أكثر الى كل شخص على حدة فسأتناول فى البداية جون هوكنز John Howkins (الذى عرف بعد ذلك بالسير جون) والذى عرف بشخصيته المتميزة.

وكانت أسرة هوكنز أسرة راسخة من الطبقة الوسطى، التى كانت تقيم فى ديفونشير، Devonshire. فلمدة جيلين، هيمنت هذه الاسرة على تجارة المدينة ولايزال أفرادها يعيشون فى مقاطعة أشينز Achins فلهذا اعتدنا أن نناديهم بهذا الاسم، قبل أن نتعلم النطق فى المدرسة. وهكذا فقد وضع فيليب اسم جون فى ذهنه عندما بدأ الأخير يقلق أحلامه. وقد تكلمت من قبل عن وليام هوكنز العجوز Old William Howkins والد جون هوكنز الذى كان هنرى الثامن مغرما به، فقد استمال وليام هوكنز هذا "الملك البرازيلى، وقد تقاعد وليام المسن الآن، وترك مكانه وعمله إلى ابنه. ومن المحتمل أن جون هوكنز كان يبلغ من العمر ٣٠ عاما، عندما تولت اليزابيث العرش. فقد شاهد جون هوكنز هذا فترات حكم كل من ادوارد السادس، ومارى اللذين تميزا عصرهما بالعنف. وكان جون هوكنز قد أخذ الكثير من أصدقائه الى أعمال القرصنة ويبدو أنه قد ابتعد عن أعمال القرصنة هذه، والتزم بالتجارة. وكان توماس ستكلى Thomas Stukely واحدا من أصدقاء جون هوكنز، ومعاصريه. وفى الحقيقة كان من أقربائه. ولكن بعد ذلك أصبح توماس ستكلى سىء السمعة. ومن الممكن أن تقال كلمة عن حياة توماس ستكلى التى كانت على النقيض من حياة جون هوكنز. كان ستكلى هذا ولدا شابا من الأسر المتميزة فى المقاطعة، وكان قد ذهب إلى لندن كى يسعى من أجل مستقبله، وهناك أصبح ملازما للسير توماس سيمور Sir Thomas Seymour وبدون شك، فان توماس ستكلى كان على صلة بمشروع قرصنة سيمور فى سيسلى

Scilly، فالتحق توماس ستكلى هذا بالقرصنة كمهنة مثل غيره من النبلاء الغربيين، وعندما أصبحت اليزابيث ملكة، قدم نفسه اليها فى البلاط الملكى، واستهواها غروره، وقد رغب أن يكون ملكا وليس بأقل من ملك. وقال انه سيذهب الى فلوريدا ويؤسس هناك امبراطورية ويكتب الى الملكة كأعز أخت له.

وأخيرا أعطته الملكة اذنا ليقوم بمحاولته تلك، فاشترى توماس ستكلى سفينة بلغت حمولتها ٤٠٠ طن، وحصل على مائة جندى من الطوال القامة لينضموا اليه، الى جانب طاقم سفينته. وفى عام ١٥٦٣م، أبحر من بليموث. وفى لحظة خروجه من الميناء، أعلن أن البحر سيكون ملكه الخاص مع فلوريدا، وفى تلك الأثناء، عاد الى ممارسة أعمال القرصنة، فسلب بحرية، مما أدى إلى ازعاج الخلجان الايرلندية، وأقام صداقة مع بطل الأولستر The Ulster المدعو شان أونيل Shan Oneil. وأصبح كل من شان أونيل، وستكلى صديقين حميمين. وكتب شان أونيل الى اليزابيث يوصى بأنه ينبغى أن تتخلى عن ايرلندا الى ستكلى واليه نفسه، ليديراها معا، ووعد بأنه فى حالة موافقتها، فانهما سيجعلان من ايرلندا بلدا لم يشاهد لها مثيل من قبل، ومن الممكن أن يفعلا ذلك. ولكن اليزابيث لم توافق فارتد توماس ستكلى الى الكاثوليكية ونقل خدماته الى البابا وفيليب، وبتوجيه من البابا أعد ستكلى حملة فى ايرلندا، ولما أغرى بالانضمام الى البعثة الافريقية، التى كانت تحت قيادة سبستيان البرتغالى، لقى حتفه هناك.

وبينما كان ستكلى نفسه من النوع الأحمق من الرجال الشباب الذين يقطنون فى ديفونشير Devonshire، نجد أن جون هوكنز كان على النقيض منه تمام. فقد التصق جون هوكنز بالأعمال (التجارية)، وتجنب السياسات، فتاجر مع الموانىء الأسبانية، دون أن يسىء الى محاكم التفتيش، وكون صداقات، وبصفة خاصة مع جزر الكنارى، حيث يقال انه نمى حبه ورعايته مع السكان.

وفى جزر الكنارى هذه سمع بطبيعة الحال الكثير عن جزر الهند الغربية وكان هو بطبيعته مغامرا، وأخبره أصدقاؤه فى الكنارى، بأن الزنوج يمثلون سلعة عظيمة فى المستعمرات الأسبانية، وبصفة خاصة فى اسبانولا. وكان (جون هوكنز) على علم تام بساحل غينيا، وعرف الكيفية التى يمكن بها الحصول على شحنة من العبيد بسهولة.

ونحن نعلم إلى أى مدى تطورت تجارة العبيد. وتعلمنا أن نأسف على مشاركة انجلترا فى هذه التجارة، وأن نمقت كل شخص تلوثت يداه، عن طريق الاتصال بهذه التجارة الملعونة. ومن الممكن أن يؤخذ كل هذا على سبيل أنها قضية مسلم بها. ويجب أن ننظر الى هذا الأمر، كما لو كان يمثله فى الكنارى جون هوكنز نفسه.

وكانت أجناس الكاريبى الذين وجدهم الاسبان فى كوبا وسنت دومنجو St. Domingo قد تلاشوا أمامهم، كما لو كانوا قد أصابتهم كارثة، فمات الكثير منهم تحت وطأة سياط المشرفين الاسبان Over Seers، ومات الكثير أيضا أو ربما الغالبية العظمى منهم بأسباب غامضة، جعلت وجود المدينة مميتة بالنسبة للهندى الأحمر، وللاسترالى وللماورى Maori أحد السكان الأصليين فى نيوزيلنده، فقد عومل الناس معاملة الحيوانات. وأما الأجناس التى وافقت أن تستأنس، تكاثرت وازدهرت. بينما الأجناس الأخرى التى لم تستطع أن تعيش بدون حرية، ذبلت كالنسور فى الأقفاص، أو اختفت كجاموس البرارى.

وعلى أية حال، فإن الوطنيين أبيدوا من جزر البحر الكاريبى، بسرعة أذهلت الغازين أنفسهم، وقد أشفق لاساكاساس Lass Casas المشهور، الذى حاول أن ينقذ البقية التى بقيت. عندئذ طلب المستوطنون الاسبان عمالا Labourers للمزارع. ففى قارة أفريقيا كان يوجد سلالة أخرى متبربرة، بحالتها الطبيعية التى كان من الممكن أن تستأنس أفرادها مثل الأغنام والثيران والتى كان فى الامكان أن تتعلم وتتحسن بمباشرة الرجل الأبيض، ومع ذلك فلم ينهض الزنجى أبدا من بربريته، مثل أبائه، لذا ظل على حالته من عصر لآخر. وعندما ترك حرا - كما حدث فى ليبريا وفى هايتى - ارتد الى بربريته الأصلية، بينما عندما أخضع للرجل الأبيض، أظهر كما أظهر منذ ذلك الوقت، قدرات عالية فى الفكر والشخصية. تلك هى الحقيقة فى الحاضر والماضى، وقد تبادر الى ذهن لاس كاساس أنه اذا كان من الممكن ادخال الزنوج الى جزر الهند الغربية، فمن الممكن فى هذه الحالة أن يترك الهنود لحالهم. ومن الممكن أن يجد الزنوج فرصة ليخرجوا من بؤسهم، ويمكن لهم فى هذه الحالة أن يتحولوا الى نصارى، ومن الممكن أيضا أن ينقذوا على أسوأ تقدير من القدر المروع، الذى انتظر الكثير منهم فى

وطنهم(الأصلى).

وتنوعت السلالات السوداء، مثل الحيوانات الأخرى. فكان بعضها لطيفا وخجولا، وبعضها الآخر مؤذيا كالذئاب. وقد استبد القوى منها بالضعيف. وجعل من سجنائها عبيدا، وأحيانا كانوا يأكلونهم. وأما هؤلاء الذين لا يأكلونهم، فكانوا يضحون بهم كعادتهم، أى كانوا يقدمونهم قرابين على مذابح أصنامهم بعد ذبحهم. وفى الغالب كانت هذه العادة تقاليد مقدسة، عند السلالة الزنجية. وقد أوقفت هذه التقاليد. وفى الوقت نفسه، أعطت تجارة الرقيق قيمة للسجناء. فقد انتعشوا عندما ألغيت هذه التجارة. رعندما دخل اللورد وولسلى Lord Wolseley، إقليم الاشانتى Ashantee قبل ذلك بعدة سنوات كان قد وجد هذه المذابح مغطاة بطبقة سميكة من دم مئات الأجناس البشرية البائسة، الذين كانوا قد ذبحوا حديثا هناك. وفيما بعد نقلت مشاهد مشابهة ومروعة من داوهومى. فكان ريتشارد بيرتون Richard Burton الذى كان من معارفى القدامى قد مضى شهرين مع ملك داهومى، وأسهب لى فى عطف ووعى ذلك الملك المتان. وتساءلت اذا كان هذا الملك عطوفا حقا، فلماذا لم يغير تلك العادات. فنظر الى بيرتون فى دهشة، وقال "يغير العادات"، وتساءل بيرتون بالقول: هل تتوقع من رئيس اساقفة كانتربرى أن يغير الطقوس؟ عندئذ يجب الا يتهم لاسا كاساس، هؤلاء الذين كانوا على رأيه، باللا انسانيين المشينين، اذا هم اقترحوا أن يشتروا هؤلاء المخلوقات البائسة، من آسريهم، وينقذوهم من الممبوجمبو Mumbo Jumbo، وينقلوهم الى البلاد، حيث يصبحون ملكية لها قيمتها، وعلى الأقل يهتم بهم جيدا، مثل الاهتمام بالبغال والخيول.

وبدأت التجربة، وبدا لها النجاح. وكان الزنوج الذين أنقذوا من التقاليد، ونقلوا الى الجزر الاسبانية، ثبت انهم قابلون للتعليم، وأنهم مفيدون. وقد أسست المحطات التجارية البرتغالية والأسبانية على ساحل غينيا. وكان الرؤساء السود مسرورين بسبب حصولهم، على كسب من ضحاياهم التعساء، وكانوا على استعداد لبيعهم. وأصبح النقل فى الاطلنطى يمثل فرعا منتظما من فروع التجارة. ووضعت القوانين الصارمة من أجل المعاملة الحسنة للعبيد الذين يعملون فى المزارع. وكانت هذه التجارة تنقل

بترخيص من الحكومة، وقدرت قيمة الرسوم الجمركية على التجارة الواردة بـ ٣٠ دوقية Ducats للرأس الزنجية الواحدة التى تنزل الى البر. وقد سمى ذلك بتجربة. وكان لا يمكن التنبأ بالنتائج الإجمالية. ولم أستطع أن أرى أنها تجربة تستحق اللوم. ولكن فى النهاية أصبحت تستحق اللوم فى تطوراتها الاخيرة. وكان لاسا كاساس الذى وافق عليها واحدا من أعظم الرجال الممتازين. ولكن اسقفنا بتلر Buttler، لم يستطع أن يعطى رأياً محدداً ضد استرقاق الزنوج، عندما وجد هذا الاسترقاق فى عصره وأنه لمن المضحك أن نقول أن التجار العاديين، وقباطنة السفن كان ينبغى عليهم أن يروا هذا العمل المشين، الذى أشار به لاسا كاساس، ومع ذلك لم يستطع بتلر Buttler أن يشجبه. وطالبت كل من الحكومة الاسبانية والبرتغالية بالسيطرة على هذه التجارة (أى تجارة العبيد) واعترض المستوطنون الأسبان فى جزر الهند الغربية على أى قيد، يرفع السعر، أو يحد من الامدادات. واعتبروا أنهم ماداموا قد استقروا فى وطن جديد، فلهم الحق فى أن يدلوا بصوتهم فى شئون الاراضى التى يمتلكونها. وهكذا، فقد قدم الاسبان فى الكنارى المسألة الى جون هوكنز. وأخبروه انه اذا رغب فى القيام بمغامرة تهريب شحنة من غينيا فان رجالهم سيرحبون به ترحيبا حارا، وأنه لمن الواضح من القصة أنه لا هو ولا هم يتوقعون أن يؤخذ ذلك كمخالفة خطيرة فى مدريد. وفى هذا الوقت، كان هوكنز على علاقة طيبة تماما بالأسبان. وكان هذا يكفى، اذا اطمأن بأن المستعمرين سيسرون بالتعامل معه. فأنا أقول أنه ليس لديه أغراض لاسا كاساس الخيرة، وفى نفس الوقت لم افترض أن هوكنز فكر كثيرا فى انقاذ أرواح الرجال السود.

ولكنه رأى فقط الفرصة فى توسيع تجارته، بين الناس الذين كان على علاقة كبيرة معهم من قبل. وأسست التجارة ونالت موافقة الكنيسة بحيث لم يوجه اليها أى اعتراض من الناحية الاخلاقية فى أى مكان. وكان الموضوع الوحيد الذى فرض نفسه على هوكنز، هو حق حكومة أسبانيا فى منع الأجانب من الحصول على حصة من هذه التجارة المربحة، لأن ذلك ضد رغبات رعاياها. وبكل تأكيد، فأن أصدقاء هوكنز فى جزر الكنارى لم يجعلوه يتوقع أى معارضة حقيقية. ومن المؤسف أن يكون رجل

انجليزى مشهور على صلة بتجارة الرقيق، ولكن ليس لدينا الحق فى أن نحمله لوما عنيفا لأنه لم يكن أكثر استنارة من معاصريه حكمة.

وهكذا، فان جون هوكنز - بتشجيع من سانتا كروز Santa Cruz قد كون لدى عودته الى انجلترا شركة افريقية، من كبار مواطنى لندن. لهذا جهزت ثلاث سفن، كان هوكنز قائدا لها. وفى الوقت نفسه، كان يمتلك جزءا منها. وكانت هذه السفن من ذات الحجم الكبير. والأولى من هذه السفن، هى السفينة سولومون Solomon، وهى أضخم السفن، فبلغت حمولتها ١٢٠ طنا، وعرفت السفينة الثانية باسم سوالو Sallow وبلغت حمولتها مائة طن، وعرفت الثالثة بجوناس Jonas وبلغت حمولتها ٤٠ طنا. وهذا شىء صغير جدا. وحملت هذه السفن على ظهورها مائة من الرجال، حتى يتهيأ مكان لعبيد السود. وقد وجد هناك اختلاف فى معيار وزن حمولة السفينة بالاطنان. ونحن أنفسنا لدينا خمس مستويات من هذه المعايير، هى على النحو التالى: معيار السفينة التى يقوم بناوا السفن ببنائها، معيار الزورق (اليخت)، مسافة الانتقال، منطقة الابحار، المعيار المسجل (تسجيل المعيار). وتكون الحمولة المسجلة مثلها كمثل الآخرين. فاليخت المسجل بـ ١٢٠ طنا يعتبر مسجلا بـ ٢٠٠ طن، فى قائمة الشحن. وكان رعايا اليزابيث يستخدمون سفنا من ذات الشراع الواحد والشراعين، فى كل الرحلات الخطيرة، وكانت هذه السفن مجرد قوارب اذا ما قورنت بالسفن التى تستخدم الآن، فى مثل هذه المهام. وكان نجاح هذه السفن يعتمد على السرعة وقوة الابحار. ولم يكن فن بناء السفن الضخمة - ذات الاشرعة المربعة التى تعمل فى اتجاه الريح - قد اكتشف بعد بواسطة المستر فلتشر أف رى Mr. Fletcher of Rye فكان الشراعان الأمامى والخلفى يمكنان السفينة من تغيير اتجاهها. ويمكن أن يستخدم هذا فقط مع سفينة ذات حمولة متوسطة.

وفى أكتوبر من عام ١٥٦٢م أبحرت بعثة جون هوكنز، ووصلت الى الكنارى، وهناك احتفى بها بحرارة. وبعد ذلك واصلت السفن المسير الى سيراليون، وهناك حصلت على ٣٠٠ من الزنوج. وقد تجنبت بعثة هوكنز هذه، المحطات التجارية الحكومية، فكان أفراد البعثة قد جمعوا هذا العدد بقدر ما استطاعوا. فقد جمع بعضهم بالقوة،

وبعضهم الآخر بالمفاوضات مع الرؤساء المحليين، الذين كانوا على استعداد لبيع رعاياهم، مثلما فعل سانش بانزا Sancha Panza عندما قصد الحصول على جزيرته.
وبعد ذلك عبر أفراد البعثة - دون أن يتعرضوا الى كارثة - الى سنت دومنجو .St Domingo وهناك ادعى هوكنز أنه كان فى رحلة كشفية، ولكنه ضل طريقه، وهو الان يريد المواد الغذائية والنقود. وقال ان معه عددا معينا من العبيد، وطلب اذنا بالسماح له بأن يبيعهم. وقد تأكد من أن كل ما سمعه فى الكنارى حقا تماما. وعلى قدر معرفة حاكم سنت دومنجو، فان أسبانيا وانجلترا كانتا فى سلام، حيث ان القراصنة لم يزعجوا أمن البحر الكاريبى، كما لم يكن هناك هراطقة خطيرين يهددون العقيدة الكاثوليكية. وقد يعترى الشك المحققين، ولكن محاكم التفتيش لم تكن قد أسست بعد، فيما وراء الاطلنطى. وكانت ملكة انجلترا، شقيقة زوجة حاكم سنت دومنجو. ولذلك لم يجد الحاكم سببا لتفسير تعليماته العامة حرفيا. وفى الوقت نفسه كان المزارعون متشوقين لشراء العبيد، ولكن مع ذلك لم يرغب فى أن يكون هو غير محبوبا. ورغم ذلك، فقد سمح لهوكنز أن يبيع مائتين من الثلاثمائة زنجى على أساس أن يترك المائة المتبقية كتأمين، اذا ما أثير موضوع الرسوم الجمركية.

وكان كل ما يتوجسه الحاكم هو أنه، اذا كانت سلطات مدريد سوف تتقاضى من المستوردين الاجانب نسبة أعلى على العبيد أم غير ذلك، لأن الأمر كان جديدا، لهذا لم يحاول أى غريب أن يتاجر هناك. وكان كل شخص مقتنعا بما يحدث عدا الزنوج، الذين لم يسألوا عن رأيهم. وكانت الأرباح ضخمة. وهناك فى الميناء توجد سفينة واحدة، على وشك الابحار الى قادش. ومع ذلك استثمر هوكنز معظم ما لديه من جلود، وكما فهم فان الجلد كان مطلوبا فى أسبانيا، لذا أرسل جون هوكنز هذه الجلود على ظهر هذه السفينة، وتحت مسئولية أحد شركائه. ومنح الحاكم، جون هوكنز، شهادة تدل على سلوكه الطيب، أثناء مكوثه فى الميناء وبعد حصوله على هذه الشهادة، عاد الى انجلترا مع سفنه الثلاث ببطء. وقد تصور أنه نجح نجاحا عظيما، فكان عليه أن يشعر أنه لم يخدع بطريقة سيئة. وبعد أيام قليلة، وصل الى بليموث. وهناك قابل الرجل الذى أرسله الى قادش مع الجلود. وكان هذا الرجل فى حالة من البؤس، بل وخاوى

الوفاض. فقال لجون هوكنز أن محاكم التفتيش قد استولت على الشحنة وصادرتها، فضلا عن أنها أصدرت أمرا الى سنت دومنجو، وذلك لمصادرة العبيد المحجوزين فيها. وقد هرب هذا الشريك بنفسه، انقاذا لحياته وتبعه رفاقه.

ودهش هوكنز، عندما سمع بهذه الاخبار، ولم يكن هناك شيء أكثر من هذه الدهشة. ويرجع ذلك الى قصور تفكيره، أو الى ضحالة تفكيره، من أن رحلته هذه، ستعتبر مخالفة فى أسبانيا، فاحتج هوكنز، وكتب رسالة الى الملك فيليب. ولما وجد التوسلات غير مجدية أو عديمة الجدوى، أقسم هوكنز على الانتقام. ولكن مع ذلك، كانت تهديداته غير فعالة تماما. فلم يستطيع أن يسترد أى شيء لا من نقوده، ولا من جلوده. وقد فزعت الحكومة الاسبانية من اقتحام المغامرين الانجليز لفردوسها الغربى، ولتعرض اسطولها المحمل بالذهب للخطر.

وأسوأ من هذا كله، تعريض طهارة العقيدة (الكاثوليكية) للخطر. لذا أصدرت أوامر أكثر حسما، وذلك بغلق الموانيء هناك أمام جميع الاجانب. وحذر فيليب بصفة شخصية السير توماس السفير الانجليزى (فى أسبانيا) – بأنه اذا تكررت مثل هذه الزيارات فان نتيجتها ستكون وخيمة العواقب. وقد توسل كل من سيسل Cecil – الذى كره كل المشروعات التى تشبه أعمال القرصنة – وتشالونر Chaloner – الذى كان نصف أسبانى ورفيقا قديما فى جيوش الملك تشارلس الخامس – الى ملكتيهما كى تمنع مثل هذه المشروعات.

ومع ذلك، كانت اليزابيث لها وجهة نظرها الخاصة فى مثل هذه الأمور، فهى أحبت النقود، وأحبت أيضا تشجيع حب المغامرة لدى رعاياها، الذين كانوا يحاربون معارك حكومية، وعلى مسئوليتهم، بل على نفقتهم الخاصة. ورأت فى غضب فيليب اعترافا بأن جزر الهند الغربية هى نقطة ضعفه، واذا رغبت أن ترعبه لكان ذلك فى امكانها، ولاضطر لتركها وشأنها، بل ولا بعد محاكم التفتيش عن حرق بحارتها. فهناك، المكان الذى يكون فيه فيليب أكثر تأثرا. ومن المحتمل أيضا أنها اعتقدت بأن جون هوكنز لم يرتكب شيئا يستحق عليه اللوم. فقد تاجر فى سنت دومنجو بموافقة الحاكم، لذلك كانت المصادرة فى ذلك الوقت اجراء عنيفا.

وبوضوح، فقد كان هذا هو وجهة نظر جون هوكنز فى المسألة. فهو لم يؤذ أحدا، ولم يسيء الى آذان رجل تقى باستعراض بروتستنتينه، كما أنه لم يكن من رعايا فيليب، فمن المتوقع كذلك أنه لم يكن ملما بالتعليمات التى أصدرتها الحكومة الاسبانية فى الجهات النائية من أراضيها. فلو كان هناك أى شخص يستحق العقاب، فلم يكن هذا الشخص هو جون هوكنز، بل يكون الحاكم. واعتقد هوكنز بأنه سلب. وكان من حقه أن يعوض على حساب الملك نظير الضرر الذى لحق به، لهذا قرر أنه سيذهب مرة ثانية. وكان متأكدا من أن الزراع سيستقبلونه بود. فكان بينه وبينهم أقوى الصداقات والتفاهم، وكان صراعه مع فيليب، وفيليب فقط. وكان هوكنز قد قصد أن يبيع شحنة جديدة من العبيد. لهذا كان ينبغى على حكومة أسبانية الا تحصل الرسم الجمركى البالغ قيمته ٣٠٪ على هذه الشحنة.

ووافقت اليزابيث، وقد فتح هوكنز الطريق الى جزر الهند الغربية وقد أوضح هوكنز كيف كان من السهل تهريب العبيد، وكيف أنها كانت وسيلة مربحة، وكيف كان من الممكن أيضا للانجليز أن يقيموا علاقات ودية مع المستوطنين الأسبان فى جزر الهند الغربية، سواء أراد فيليب أم لم يرد. وعلى أثر ذلك تكونت شركة أخرى من أجل محاولة ثانية.، وكان لاليزابيث أسهما فيها، كما كان للورد بمبروك Lord Pembroke، وكذلك كان للأعضاء الآخرين فى مجلس ادارة هذه الشركة أسهما. وأقرضت الملكة هوكنز السفينة المسيح Jesus، وهى سفينة كبيرة تبلغ حمولتها ٧٠٠ طن. وأصدرت تعليمات رسمية، بألا يوجه الى ملك أسبانيا أى اساءة أو ضرر، أو يمس بسوء ولكن اذا لزم الأمر، فيترك ذلك الى حكمة القائد. وبما أن الزارع كان لديهم الرغبة فى الشراء، فان وسائل التجارة يمكن أن تكتشف دون التصادم مع السلطان. وفى هذه المرة أعدت الحملة على نطاق واسع، بحيث ضمت على ظهر سفنها مائة جندى، وذلك لمواجهة الطوارىء. وبعد أن أعد هذا، بدأ جون هوكنز رحلته الثانية فى أكتوبر عام ١٥٦٤م. واختارت البعثة فصل الخريف لتبدأ الرحلة ولكى تتجنب أعلى درجات الحرارة فى المنطقة الاستوائية. وفى البداية رغب هوكنز، أن يرى أصدقاءه فى الكنارى. وبعد ذلك واصل المسير الى ريو جراند Riogrand، وهناك التقى مع المغامرين السيئين

والجيدين على حد سواء، كما وجد رئيس قبيلة فى حرب مع قبيلة مجاورة، فساعد أحدهما فى الاستيلاء على مدينة، وأسر أبنائها، كما قام جون هوكنز باجراء مشتروات من المحطة التجارية البرتغالية. وبهذه الطريقة حصل فى ذلك على ٤٠٠ من القطيع الانسانى. وبعد ذلك، أبحر هوكنز فى الاتجاه القديم مع هؤلاء بمستقبل أفضل عما كانوا عليه فى أوطانهم. وبالقرب من خط الاستواء، دخل هوكنز فى منطقة تخلو من الرياح، وكان لديه نقص فى مياه الشرب، وخشى أن يفقد بعضا من العبيد. ولكن، وكما ورد فى سجل الرحلة "فان قدرة الله لن تعرض مختاريه للهلاك" فأرسل الله نسيما حمله بأمان الى الدومنيكان. وفى تلك الجزر الممطرة (الدومنيكان) وجد هوكنز المياه بوفرة. وعندئذ، كان عليه أن يفكر فيما يفعله بعد ذلك.

واعتقد بأن سنت دومنجو لم تعد مكانا آمنا بالنسبة له، لهذا انطلق عبر المنطقة الاسبانية الى مكان يسمى بربوروتا Burboroata حيث أمل بألا يعرف أحد عنه شيئا. ولكن كان هو مخطئا فى هذا فقد وصلت أوامر فيليب التى تقول: "لا يسمح لأى انجليزى من أى عقيدة أو جنس، بالاتجار فى الاراضى التى تخضع لسيادته فى جزر الهند الغربية". ومع ذلك، فقد تعمد المستوطنون أن يتاجروا، وتظاهروا فقط بالقوة وبالانصياع للأوامر المفروضة عليهم. وكانت هناك حاجة الى استعراض قوة الملك، وقص هوكنز قصته القديمة التى قال فيها "أنه كان فى الخارج فى خدمة ملكة انجلترا. وفى تلك الأثناء، ضل طريقه بسبب سوء الأحوال الجوية. فضلا عن أنه، كان لديه نقص فى الامدادات. مع العلم بانه كان برفقته على ظهر سفنه كثير من الرجال الذين كان فى امكانهم أن يصيبوا المدينة ببعض الأذى، اذا لم يسمح لهم بالنزول فيها بسلام، لشراء وبيع كل ما يريدونه. وبدا على الحاكم التردد. عندئذ، وضع هوكنز ١٢٠ من رجاله على الشاطىء، واحضر مدافعه ليضعها فى القلعة. فاستسلم الحاكم محتجا، وسمح لجون هوكنز بأن يبيع نصف عبيده. وبعد ذلك، قال هوكنز أنه بسبب عدم معاملته معاملة كريمة فلن يدفع الـ ٣٠٪، بل سيحصل الملك الاسبانى فقط على ٧,٥٪، وليس أكثر من ذلك، مع العلم بأنه لم يكن لدى المستوطنين أية معارضة، لأن السعر كان قليلا. وبهذا التخفيض فى السعر أنهى هوكنز عمليته التجارية بسرعة. ونتيجة لذلك، فلم

يحضر جلودا بعد ذلك. وكان قد قبض أثمان سلعه التجارية بالسبائك الفضية.

وبعد ذلك، واصل هوكنز السير من بربوروتا الى ريو دى لاهاشا Rio de Lahacha حيث تكرر نفس المشهد. وفى هذا الوقت كان قد تخلص بسهولة، وبنجاح من كل الـ ٤٠٠ أربعمائة عبد، ومع ذلك كان الموسم لايزال أمامه. وقد أنهى هوكنز أعماله، ومسح جزءا كبيرا من البحر الكاريبى، ورصد الأحوال الجوية، وكتب ملاحظات عن التيارات، ورسم خرائط عن السواحل والجزر. وبعد أن قام بكل هذا، اتجه الى الوطن متتبعا الشاطىء الشرقى لامريكا الشمالية، حتى نيوفوندلاند New Found Land وهناك قدم لطاقمه غذاء مختلفا يحتوى على سمك الكود الطازج، الذى حصل عليه من الشواطىء. وبعد غياب دام ١١ إحدى عشر شهرا، أبحر الى البادستو Padstow بعد أن كان قد فقد ٢٠ من الرجال فقط أثناء هذه المغامرة ومعه ٦٠٪ (من الأموال) التى تخص الملكة والمساهمين.

ويأتى النجاح بنجاح اخر، فقد انهالت الثناءات على هوكنز من كل لسان، ففى لندن، كان هوكنز بطل الساعة، فاستقبلته اليزابيث فى القصر، كما قابله السفير الأسبانى دى سيلفا De Silva على حفل عشاء. فتحدث هوكنز بصراحة عن الأماكن التى زارها، وعن الأعمال التى أنجزها، ولكنه لم يصرح بالقسوة الخفيفة التى استخدمها. فاعتبر ذلك مسرحية هزلية، لأنه لم يصب أى شخص من الجانبين هناك. وتفاخر هوكنز، بأنه قد أرضى الاسبان الذين تعاملوا معه رضاء لا مثيل له. ولم يملك دى سيلفا الا أن ينحنى (الى هوكنز)، ويقدم تقريرا الى سيده، يطلب منه التعليمات الخاصة بكيفية التصرف.وانزعج فيليب بصورة كبيرة من هذا التقرير، ورأى أنه من المتوقع أن يتحالف الغربيين مع الانجليز، وأن تزحف الهرطقة بينهم أو أن تنتشر الهرطقة بينهم وأن يتعرض الاسطول الذى يحمل الذهب للخطر، فضلا عن أى شىء آخر فى متناول اليزابيث تزعجه به. لهذا قرأ وأعاد قراءة خطابات دى سيلفا، وأمام اسم الاشينز Achines، كتب على الهامش عبارات تعجبية مروعة هى "أوجو! أوجو Ojo! Ojo".

وكان الأفق السياسى مؤيدا لاليزابيث، فكانت ملكة اسكتلندا فى ذلك الوقت، سجينة فى لوك ليفن Loch Leven. وكانت الأراضى المنخفضة فى ثورة، وكان الهجنوت يتجهون بأنظارهم الى فرنسا. لهذا اقترح هوكنز اعداد حملة ثالثة، واعتقد أنها (أى اليزابيث) يمكن أن تسمح له بها بأمان. وبالفعل وافقت الملكة على ارسال هذه الحملة، وخولت له استخدام السفينة المسيح Jesus مرة ثانية، اضافة الى سفينة أخرى أصغر منها، كانت تمتلكها الملكة، هى السفينة مينون Minon. وفى ذلك الوقت كان لايزال لدى هوكنز سفينتان مهيئتان للعمل، وأما السفينة الخامسة Judth، فقد أحضرها اليه ابن عمه الشاب المدعو فرانسيس دريك Françis Drake الذى ظهر لأول مرة على المسرح. وسأخبرك باختصار عن ما هو دريك ويكفى القول، أنه كان من أقرباء هوكنز، وكان يملك مركبة صغيرة أنيقة، ذات ساريتين، وكان لديه طموح فى المشاركة فى تجارة مثيرة أو فى عمل مثير.

وفى هذا الوقت، كان بحارة بليموث Plymouth يضمرون احتقارا خطيرا لفيليب. ففى الوقت الذى كانت فيه بعثة هوكنز تجهز، أتت سفينة الملك (فيليب) الى الكات ووتر Cat Water، وكان على متنها كثير من المساجين الفلمنكيين. وكان يرفرف عليها العلم القشتالى. وكما قيل فان هذا كان ضد القواعد المعمول بها فى الموانىء الانجليزية. ولم يغفر الانجليز الطريقة التى عومل بها العلم الانجليزى فى جبل طارق، لذا أمر هوكنز الربان الأسبانى بانزال علمه، ولكن هذا الربان الاسبانى رفض، فأطلق هوكنز عليه النيران فى الحال. وفى أثناء هذه الفوضى، هرب المساجين الى ظهر السفينة Jesus، وتركوا يهربون. عندئذ أرسل الكابتن الاسبانى شكوى الى لندن، والى سيسل، الذى رفض تصرفات هوكنز، واجراءاته، وأرسل سيسل ضابطا ليحقق فيما حدث. ولكن هوكنز الذى كان واثقا من حماية اليزابيث أجاب بهدوء، بأن الاسبانى قد خالف قوانين الميناء، وأنه من الضرورى تاكيد سلطة الملكة.

وقال دى سيلفا للملكة "ان بحارتك يسلبون رعايانا فى البحر، ويتاجرون فى الأماكن الممنوع الذهاب اليها، ويطلقون النيران على سفننا فى موانئك، كما أن وعاظك يهينونَ سيدى من فوق منابرهم Pulpits، وعندما نعترض على ذلك يرد علينا بالتهديد.

وقد تحملنا الكثير من مظالمهم. هذه المظالم أو الاهانات التى كانت ترجع بصورة كبيرة الى المزاج، والى السلوك السيء. ولكن لأننا لا نتوقع الحصول على أى تعويض يمكن الحصول عليه، ولأن نفس هذه المعاملة لنا سوف تستمر، فمن الواجب أن نتشاور مع جلالة الملكة ففى المدة الزمنية الماضية كنت قد طلبت من جلالتك أن تعاقبى القائمين بهذا الاعتداد فى بليموث، وأن تحافظى على السلام بين المملكتين".

ولن يكون هناك اعتبار لأى اعتراض أو احتجاج، حتى يرى ماذا يفعله الجانب الآخر، المتمثل فى البابا، والقوى الكاثوليكية الأخرى، التى أخذت على عاتقها اجبار البروتستانت فى فرنسا، وكذلك الفلمنكيين (فى الأراضى المنخفضة) على العودة الى سيطرة البابوية، وذلك باستخدام النار والسيف ولم يكن هناك سر بأن دور انجلترا سوف يلى ذلك، اذا ما أطلقت أيدى فيليب ففى تلك الأثناء، كان الملك يتآمر مع ملكة اسكتلندا، كما كان يشجع ايرلندا على الثورة، وكان أيضا يضطهد التجار الانجليز والبحارة فكان يتركهم جائعين حتى الموت، فى زنزانات محاكم التفتيش، أو يحرقهم على خوازيق. وكانت مساويء سميث فيلد Smithfield، لاتزال عالقة فى ذاكرة البروتستانت، واذا استطاعت القوى الكاثوليكية أن تفعل ما تريد، فلا يستطيع أى انسان أن يتنبأ بالسرعة التى سيتم بها أى رد فعل فظيع فى الوطن.

ولو سمح ملك أسبانيا، وقداسة البابا فى روما، الى أمم أخرى أن تعمل قوانين خاصة بها، لاختفى القراصنة، ومراكبهم من المحيط. ومن الممكن ترك جزر الهند الغربية دون ازعاج. ومن الممكن أيضا أن تعيش كل من أسبانيا وبريطانيا وفرنسا والفلمنك فى سلام جنبا الى جنب، كما هو الحال الآن. ولكن الحكومة الاستبدادية الدينية (الاسبانية) لم تكن قد استوعبت درسها بعد، فتركت "شحاذين البحر" وهم زبانية فيليب يمارسون عملهم بدون نظام، ولكن بطريقة مؤثرة. واستمعت اليزابيث بأدب أو بذوق الى ما قاله دى سيلفا، ووعدت بدراسة شكاياته. ومع ذلك سمحت لهوكنز بالابحار. فماذا حدث له. هذا ما سيقال فى المحاضرة التالية.

الفصل الثالث

السير جون هوكنز وفيليب الثانى

انهيت محاضرتى السابقة، عندما كان هوكنز يعد لرحلته الثالثة، وهى كما ثبت كانت من أكثر الرحلات أهمية. وذكرت أن شابا من أقربائه، كان قد انضم اليه، ومن الواجب على أن أذكر عنه بعض الكلمات التمهيدية. كان هذا الشاب هو فرانسس دريك Françis Drake أحد أبناء ديفونشير Devonshire الذى كان شأنه شأن هوكنز نفسه، ورالى Raleigh، وديفس Devis، وجلبرت Gilbert، واخرين أيضا من الرجال المشهورين فى تلك الأيام. وكان فرانسس دريك هذا، قد ولد فى حوالى عام ١٥٤٠م، فى مكان ما من تافستوك Tavistock. وقد أخبر دريك كامدن Camden بأنه (أى دريك) كان من أصل عادى. وكان يقصد من وراء ذلك فقط أنه فخور بوالديه، ولم يقصد الادعاء بأنه شريف المولد.

وكان والده من مستأجرى (الأرض) من الأيرل أف بدفورد The earl of Bedford فلابد وأنه كان قد سانده، لأن فرانسس راسل Françis Russell – وريث لقب الأيرل – كان أبا روحيا للولد (لفرانسس دريك). فمن فرانس راسل أخذ دريك اسمه الأول.

وفى وقت مبكر، تحول آل دريك Drakes الى المذهب البروتستانتى Protestantism. وبعد ذلك رحلوا الى كنت Kent بسبب التمرد الذى وقع فى تافستوك Tavastock، نتيجة للقانون ذى الستة بنود Six Articles Bill.

ومن المحتمل أن الوالد قد عين فى وظيفة فى أسطول هنرى الثامن فى تشاثام Chatham، وذلك بواسطة نفوذ اللورد بدفورد.

وفى فترة حكمه التالية، وعندما كان البروتستانت فى أوجهم، رسم والد فرانسس دريك ليصبح قسيسا، لأبنور Upnor فى الميدوى On Medway. وفى وقت مبكر، بدأ الشاب فرانسس يعمل فى البحر وهناك تعرف على قبطان سفينة، كان يعمل بالتجارة فى موانىء القنال. فهو الذى أخذ فرانسس دريك على ظهر سفينته، ودربه كى يكون

بحارا. وقد أظهر الولد نبوغا فى هذا المضمار حتى أن صاحب السفينة عندما مات أوصى بها لدريك. ولعدة سنين، التصق دريك بكل رسوخ، بعمله فى الساحل وجمع نقودا، وحقق شهرة واسعة. ونمى طموحه بنمو نجاحه.

وفى نفس الوقت، كان الانجليز الذين يسافرون بالبحر معجبين تماما بهوكنز وباستغلاله لجزر الهند الغربية. وقد عرف بأن آل هوكنز، وآل دريك كان أقارب من الدرجة الأولى. ولما سمع فرانسس دريك بأن هناك رحلة أخرى تعد، حصل على موافقة عمه، وباع سفينته ذات الساريتين، واشترى السفينة جودث Judth، فهى سفينة ملائمة للاستعمال وسريعة. ورحل دريك الى بليموث مع عدد قليل من البحارة الشجعان، الذين كانوا يعملون فى النهر، والذين تجمعوا هناك.

وفى تلك الأثناء، أرسل دى سيلفا خطابا الى فيليب جاء فيه، أن هوكنز رحل مرة ثانية، وقد اتخذت الاستعدادات لاستقباله. وكما سبق وبدون أن يساوره أدنى شك أبحر (هوكنز) وبرفقته أربع سفن Consorts فى شهر أكتوبر عام ١٥٦٧م. وكانت البداية شؤما عليه، فقد صادفته أزمة فى خليج بسكاى The Bay of Biscay، نتيجة لاختلاف الفصول فقد، فقد مراكبه وتمزقت السفينة Jesus، وتسرب الماء من خلال الواحها الخشبية. لهذا لم يسترح هوكنز لمجريات الأمور، حتى أنه فكر فى العودة، والتخلى عن الرحلة فى هذا الفصل. وعلى كل، فقد تحسن الطقس. وفى الكنارى، أسلح أعضاء بعثة هوكنز من أنفسهم، والتقطوا أنفاسهم، وواصلوا السير بعد ذلك. وفى نفس الوقت، كانت عملية أسر العبيد تدار أو تنفذ بنجاح، مع أنها كانت تواجه بصعوبات متزايدة، وكان التجار يتخلصون من أى شحنة فى المستعمرات الاسبانية، بنفس النجاح، وفى أثناء الليل، وفى مكان ما، كان يصل الزراع فى قواربهم، ليشتروا (العبيد). وفى ريو دى لاهاشا Rio de la Hacha، أرسلت أوامر اجبارية للغاية لمنع دخوله. ولكن هوكنز أنزل على البر قوة، كما فعل من قبل، واستولى على المدينة وبالطبع تغاضى المستوطنون عن ذلك. وفى كارثا جينا Carthagena أمر مرة ثانية بالابتعاد. وبما أن كارثا جينا هذه كانت محصنة، تحصينا قويا فانه لم يغامر بالدخول اليها، ولكنه وجد فى مكان آخر أسواقا فسيحة لتصريف سلعه. فهناك باع كل عبيده

وبواسطة ذلك، وأيضا بواسطة الصفقات الاخرى، جمع ما وصف بثروة وفيرة من الذهب والفضة والمجوهرات. وفى هذا الوقت، اقترب فصل الأعاصير، فاتخذ أفضل الطرق نحو الوطن ومعه غنائمه، خوفا من أن تلحقه هذه الأعاصير. ولسوء حظه، فانه قد تباطأ طويلا. فقد مر بالنقطة الغربية من كوبا. وعندما كان يتقدم ببطء من خلف الجزيرة صدمه الاعصار. وقد استمرت هذه العاصفة أربعة أيام، بحيث أصبحت قيعان السفن موحلة لدرجة لم يستطع معها البحارة، أن يشقوا طريقهم، وقد فقدت ساريات المراكب، وقذفت العاصفة أيضا بحبال تثبيت أشرعتها بعيدا. فالسفينة المسيح التى لم تكن صالحة للابحار منذ البدء زاد تدفق الماء اليها أكثر من ذى قبل، بحيث فقدت دفتها. وعندئذ بحث هوكنز عن ميناء، فى فلوريدا، ولكنه وجد الساحل ضحلا وخطيرا. وفى النهاية اضطر الى أن يتجه الى سان جوان دى أولوا San Juan de Ulloa الواقعة فى نهاية خليج المكسيك.

وتقع سان جوان دى أولوا هذه على مسافة أميال قليلة فقط من فيراكروز Vera Cruz. وكانت فيراكروز هذه فى ذلك الوقت الميناء الرئيسى لمكسيكو، التى من خلالها، كانت تمر كل التجارة بين المستعمرة والوطن الأم. وهكذا، فقد كانت مكانا ذا أهمية الى حد ما. فهى تقع على خليج صغير فى اتجاه الشمال. ويوجد على مدخل هذا الخليج حافة ضيقة من الرمل والحصى – بطول نصف ميل – كانت تعمل كحاجز مائى طبيعى، وفى الوقت نفسه، كانت تكون ميناء، فهذه الحافة أو الجزيرة (التى تسمى بذلك) كانت غير مسكونة. وكان يواجه المواجهة الداخلية منها حائط. وكان الميناء على جانب (هذا الحائط) عميقا، وكان فى امكان السفن أن تكمن فيه فى سرية تامة، بحيث تؤمن بربط حبالها فى حلقات مثبتة فى البناء. وكانت الريح السائدة تهب من الشمال، وتأتى معها الأمواج العنيفة، التى كانت تلاطم الجزء الخلفى من الجزيرة. وكان يوجد بها فتحة عند كل من نهايتى هذه الجزيرة، ولكن كان المتاح للسفن من ذات الغاطس الكبير، فتحة واحدة فقط. وفى هذه القناة كان مجرى الماء ضيقا، وكانت بطارية المدفعية المنصوبة عند نهاية الحاجز تسيطر عليها تماما. وكان فى امكان هذه البطارية فرض السيطرة الكاملة على الميناء. وكانت المدينة تقع على الجانب المواجه للخليج ودخل هوكنز

بأسطوله المزود بالمدفعية، الى هذا الميناء المنشأ هكذا، فى ١٦ من شهر سبتمبر سنة ١٥٦٨م.

ولم يستطع هوكنز أن يشعر بالراحة، ولكن لاعتقاده فى أنه ليس لديه نية سيئة، فانه لم يخف من السكان بصفة عامة، كما أن السلطات الأسبانية، لم تكن من القوة بحيث تعترض سبيله فى هذا الوقت. وفى هذا الوقت أيضا، جلب عليه سوء طالعه قدوم الفاريز دى باكان، فهو نفسه الضابط الذى كان قد دمر السفن الانجليزية فى جبل طارق، فكان متوقعا وصوله يوميا من أسبانيا - من طرف فيليب - خصيصا للبحث عن هوكنز، كما ثبت ذلك فيما بعد. ولما ظهر هوكنز (عند مدخل الميناء) ظن خطأ بأنه هو الأدميرال الأسبانى، وتحت هذا الانطباع سمح له (أى لهوكنز) بالدخول الى الميناء، ولكن سرعان ما اكتشف الجانبان خطأهما.

وعلى الرغم من أن هوكنز كان لايزال يجهل أنه هو نفسه الهدف الخاص لباكان Bacan فحتى ذلك الحين كان دى باكان هو الضابط الأخير، الذى كانت ظروفه تقعده عن الصراع (مع هوكنز). وفى هذا الميناء، كان يوجد العديد من السفن الاسبانية المحملة بشحنات وفيرة. وبالطبع لم يستطع هوكنز الاشتباك معها، مع أنه كان فى امكان هذه السفن أن تشتبك معه، اذا زودت بالامدادات اللازمة. وكأفضل ملاذ له (أى لهوكنز) أرسل رسولا - على وجه السرعة - الى مكسيكو ليعلم (ليخبر) نائب الملك هناك بوصوله، ويقول لهذا النائب أن لديه (أى هوكنز) أسطولا انجليزيا، قد أجبر على الدخول (فى هذا الميناء) نتيجة للطقس، ونتيجة لحاجته للاصلاح. وفى ذلك الوقت كانت الملكة حليفة لملك أسبانيا.

ولما علم هوكنز باحتمال وصول أسطول أسبانى، توسل لنائب الملك بأن يقوم بعمل ترتيبات من شأنها منع العراك بينه وبين قائد الأسطول الاسبانى القادم.

وكما قلت فى المحاضرة السابقة، أنه لم يكن يوجد هناك، محكمة تفتيش فى مكسيكو، ولكن بعد ثلاث سنوات أسست محاكم خصصت للانجليز. وحتى هذا الوقت لم يكن هناك نية سيئة تجاه الانجليز، انما كان على العكس من ذلك، فلم يؤذ هوكنز أى أحد، كما أن تجارة الرقيق كانت منتشرة بشكل واضح. ومن المحتمل أن يتغاضى نائب

الملك عن هروب هوكنز، ولكن لسوء الحظ وللمرة الثانية كان هذا الحاكم نفسه لديه أوامر بالاستدعاء أو بالعودة الى أسبانيا حيث كان خليفته قادما فى الاسطول الخاص ب دى باكان. وحتى لو كان هو (أى هوكنز) جيد التنظيم، ومقدرا لمصائر الأمور، وحر فى العمل، لما استطاع أيضا أن يفعل شيئا، لأنه فى الصباح التالى - أى فى ١٧ سبتمبر من نفس العام - تحرك دى باكان الى مدخل الميناء، ومعه ١٣ سفينة شراعية مسلحة تسليحا كثيفا، فضلا عن وجود سفن شراعية حربية أخرى.

وكان من المحتمل أن تكون حمولة أصغر ما فى هذه السفن ٢٠٠ من الرجال اذن كان الفارق بينهما فى ذلك الوقت (أى بين الجانبين) كبيرا. وكانت سفن هوكنز تصطف على طول الشاطىء، أو الحائط الداخلى للجزيرة، واحتل (هوكنز) على الفور الجزيرة نفسها، ونصب المدافع على نقطة تغطى الطريق اليها (أى الى الجزيرة). وبعد ذلك أرسل (هوكنز) قاربا الى دى باكان لتقول له، أن الرجل الموجود فى الجزيرة (يعنى هوكنز) هو رجل انجليزى وأنه يمتلك الميناء، ومن الواجب عليه (أى على هوكنز) أن يمنع دخول الاسطول الاسبانى حتى يتأكد (هوكنز) من عدم استخدام العنف من جانب دى باكان هذا. وقد كان هذا اجراء شديدا لمنع أدميرال أسبانى من الدخول الى ميناء أسبانى، فى وقت كان السلام يسود فيه. ورغم ذلك كان الطريق الى الميناء صعبا، ولا يمكن اقتحامه بسهولة، اذ كان هناك تصميم على الدفاع عنه (عن الميناء) (من جانب هوكنز). وفى تلك الأثناء بدأت الرياح الشمالية تهب، ولو تحولت هذه الرياح الى عاصفة، فان الاسبان سيلجأون الى ملجأ فى الشاطىء. وفى ظل ظروف يائسة كهذه، يمكن ارتكاب أعمال تتسم بالتهور والاستماتة. وهكذا، فقد شرح هوكنز ورطته هذه فى تقرير لاحق جاء فيه ما يلى:

"كنت أواجه صعوبتين، فكان هناك خيار واحد من اثنين، أما الأول فهو أن أجعلهم (الاسبان) خارج الميناء - وبقدرة من الله استطيع فى هذه الحالة فعل ذلك بسهولة - فى هذه الحالة - ومع هبوب الرياح الشمالية - يكون من الممكن أن تتحطم سفنهم، وأكون أنا المسئول عن ذلك. وأما الخيار الثانى، فهو أننى أخاطر بخداعهم، وهذا ما فضلت أن أقوم به".

وقد بدا أن الرياح الشمالية لم تهب "عندئذ" لم يختر القائد الانجليزى البديل الأول (لهذه المشكلة). وانقضت ثلاثة أيام فى مفاوضات. وكان كل من دى باكان ودون انريكويز Donenriquez - نائب الملك الجديد - تواقين بطبيعة الحال الى الحصول على مأوى بعيدا عن الموقف الخطير، ولم يكن لهما الرغبة فى تقديم أى تعهد أكثر مما تقتضيه الظروف الضرورية. وكان الاتفاق النهائى يقضى بأن باكان والأسطول يدخلان دون مقاومة. وفى هذه الحالة يمكن لهوكنز أن يمكث حتى يصلح الاضرار التى لحقت به، ويشترى ويبيع ما يريد. والأكثر من ذلك فانه كان فى امكان الانجليز الاحتفاظ بملكية هذه الجزيرة طوال مدة بقائهم فيها. ويضيف هوكنز فى قوله ما نصه "لقد تعرضت هذه الفقرة للاعتراض طويلا، ولكن، ووفق عليها فى النهاية. وانه كان من الضرورى تماما - ومع وجود الجزيرة فى أيديهم (أى فى أيدى الانجليز) - على الأسبان أن يقطعوا مراسى الانجليز، لتندفع سفنهم عبر الميناء الى الشاطىء.

وقد وقعت المعاهدة بهذا الشكل وبطريقة رسمية. وتبدلت الرهائن بين الجانبين ودخل باكان، ورسى الاسطولان، كل منهما على حدة، بحيث يفصل بين كل منهما مسافة تقدر بالحجم الذى يسمح به الميناء.

وتبدلت أيضا المجاملات، وانقضى يومان على ما يرام. وكان من المحتمل أن نائب الملك، والادميرال (دى باكان) لم يعرفا فى أول الأمر أن الرجل (هوكنز) الذى أرسلا من أجله كل من نائب الملك والادميرال لاغراقه أو لأسره، يقبع على مقربة منهما.

ولما عرفا الحقيقة، كان من الممكن لهما أن يعتبراه قرصانا، عندئذ لم يعد لهما حاجة فى المحافظة على وعدهما معه، مثلما يفعلان مع الهراطقة وعلى أية حال، كان الفأر فى المصيدة، ولم يسمح دى باكان بأن يدعه يخرج. وفى ذلك الوقت، كانت السفينة المسيح ترسو بعيدا، ومن خلفها من جهة المدخل رست السفينة مينون، وقد ربطت السفينة الثانية مينون "فى حلقة فى الرصيف، ولكن كان من الممكن أن تتحرك بحرية. وأما السفينة جودث Judth قد رست بنفس الطريقة، وعلى مسافة أبعد. ولم يذكر شيئا عن السفينتين الصغيرتين الباقيتين.

وقام دى باكان بعمل استعداداته فى صمت، بحيث تكتمته المدينة وكان لدى باكان هذا وفرة فى الرجال المستعدين، لأن يفعلوا ما يؤمرون به. وفى اليوم الثالث الموافق العشرين من شهر سبتمبر، وعند الظهر، كان طاقم السفينة مينون، قد ذهب لتناول الغذاء، وفى تلك الأثناء، رأوا سفينة ضخمة وبطيئة حمولتها ٩٠٠ طن، تسير ببطء جنبا الى جنب منهم، ولما كانوا لا يشعرون بود تجاه هذا الجار، أعدوا المرسى للتحرك (الانجليز)، وبدأوا فى فرد أشرعتهم. وفجأة سمع اطلاق النيران والعويل من المدينة فقد هوجم الأشخاص الانجليز الذين كانوا على البر بعنف، وقتل الكثير منهم، وشوهدت البقية منهم وهم يلقون بأنفسهم فى الماء، ويسبحون فى اتجاه السفن. وفى نفس اللحظة اطلقت مدافع السفن الشراعية، الحربية الضخمة نيرانها، وكذا اطلقت مدفعية الشاطىء النار على السفينة المسيح، ورفاقها، واندفع ٣٠٠ من الاسبان من سفينتهم الحربية الضخمة، وبأعداد كبيرة – تحت ستار الدخان والهرج – الى ظهر السفينة مينون، وعلى الفور صد بحارة السفينة مينون هؤلاء (المهاجمين الأسبان) وطردوهم من فوق ظهرها، ورفعوا أشرعتهم، واقتحموا طريقهم خارج الميناء، وتبعتهم السفينة جدث. بينما تركت السفينة المسيح وحيدة غير قادرة على التحرك، ولكنها دافعت عن نفسها باستماتة. ولم يحدث مثل هذه القسوة وهذه الشجاعة فى المعارك التى وقعت بين الانجليز والاسبان وقد غرقت سفينة دى باكان، واشتعلت النيران فى سفينة نائب الادميرال. وكان الاسبانيون يتميزون بالعدد الضخم، لذلك استطاعوا انزال قوة على الجزيرة للاستيلاء على بطارية المدفعية الانجليزية الموجودة هناك، واعدموا أفرادها وصوبوا المدافع على السفينة المسيح.

ومع ذلك استمرت السفينة المسيح، تحارب وتحبط كل محاولة للوصول الى ظهرها. وأخيرا، أرسل دى باكان السفن الحربية نحوها (أى نحو السفينة المسيح) عندئذ جاءت النهاية. وكان كل ما حققه هوكنز فى رحلته – من نقود وسبائك ذهبية وحتى السفينة نفسها – تركه ومصيره. ولجأ هوكنز نفسه، ومن تبقى معه من أفراد أطقم سفنه على قيد الحياة الى قواربهم، واندفعوا فى وسط الاعداء، الذين حاولوا عبثا الامساك بهم (أى بالقوارب) ولكن هذه القوارب، ناضلت بهم كى تشق طريقها

لتلحق بالسفينة مينون والسفينة جدث. وقد جاءت قصة هروب رجل انجليزى بمفرده مخجلة لباكان، رغم وجود قوة كبيرة تحت أمرته.

وفى خارج الجزيرة كان موقف هوكنز حرجا، ويمكن أن يقال بأنه كان يائسا. ومن المعروف أن حمولة السفينة مينون كانت لا تزيد عن مائة طن. وهما الآن (أى السفينتان مينون وجدث) مكتظتان بالرجال وكان لدى هاتين السفينتين مياه قليلة، ولم يكن لديهما وقت لتخزين ما يكفى البحارة أنفسهم من الماء فى البحر. ولحسن الحظ، كان الطقس معتدلا، ولكن لو هبت الريح فلا يمكن لأى شىء أن ينقذهم. وبعد ذلك رسوا على مسافة ميلين كى ينظموا أنفسهم. ولم يغامر الأسطول الأسبانى بالتحرش أكثر من ذلك بخصم بائس. وفى يوم السبت ٢٥ من الشهر نفسه أبحروا، ولكن كان من الصعب عليهم معرفة أى جهة يتجهون اليها، لأن أية محاولة للقيام برحلة عبر المحيط، وهم فى هذه الحالة يعنى التدمير الأكيد، كما أنهم لا يستطيعون الاعتماد أكثر من ذلك على توقف أو امتناع وجبن دى باكان عن مطاردتهم.

ومن المفروض أن يكون هناك مأوى من أى نوع، وفى أى مكان على الجانب الشرقى من خليج مكسيكو، لأنهم كانوا يأملون فى الحصول على مؤن.

وبعد ذلك، وصلوا المكان فى ٨ من شهر أكتوبر، ولكن لم يجدوا شيئا ولم يكونوا فى حاجة الى اتخاذ قرار. وعرفوا أنهم إذا ظلوا على ظهر السفينة فكل واحد منهم كان من المؤكد أنه سيموت جوعا. ولكن تطوع ١٠٠ مائة منهم، للنزول الى البحر، وذلك لتجربة حظهم. وأملت البقية التى كان لديها مؤن قليلة أن تشق طريقها عائدة الى الوطن، بحيث قبلت النصيحة. وقد تجول هؤلاء الرجال المائة لعدة أيام قلائل فى الغابات، وكانوا أثناءها يتغذون على جذور النباتات، وعلى التوت البرى. وفى تلك الأثناء، كان الهنود يطلقون عليهم السهام. وأخيرا، وصلوا الى المحطة الاسبانية، ومنها أخذوا وأرسلوا الى مكسيكو كمساجين. ولم يوجد هناك - وكما قلت - محكمة تفتيش فى مكسيكو. مع أن نائب الملك الجديد كان فى حرب فى سان جوان دى أولوا، الا انه لم يكن حقودا. وقد عومل هؤلاء المائة فى البداية معاملة انسانية، فقد اطعموا وكسوا، واعتنى بهم، وبعد ذلك وزعوا على المزارع فوظف بعضهم كمشرفين، ووظف البعض

الآخر كميكانيكية. وسمح للاخرين الذين كانوا ملمين بأى حرفة، بالاستقرار فى المدن، فجمعوا النقود حتى أنهم تزوجوا وبنوا أنفسهم. ومن المحتمل أن يكون فيليب قد سمع عنهم. وخشى أن الكثرة من المهرطقين تدخل الطاعون (الى المنطقة).

ومضت ثلاث سنوات فى هدوء، وفى نهايتها، وصل المحققون عندئذ، أصبح هؤلاء الرجال البائسون، كما لو كانوا هم الهدف الخاص لهذه المؤسسة التى سعدت بذلك. فقد طورد هؤلاء الانجليز البائسون والقوا فى السجون، وفحصت عقيدتهم، وعذبوا، وأحرق البعض منهم فى مكان حرق المهرطقين، وجلد البعض الآخر بالسياط فى شوارع مكسيكو، وهم عراة على صهوة جواد، وبعد ذلك أعيدوا الى سجونهم.

وأما هؤلاء الذين لم يموتوا تحت هذه المعاملة الدينية، فقدموا الى محكمة التفتيش فى سيفيل (أشبيلية)، وأدينوا وحكم عليهم بالعمل كمجدفين على سفن مكشوفة. وهنا، أتركهم للحظة. ومرة ثانية نحن سنسمع عنهم عما قريب، فى موقف غريب. فى غضون ذلك، أخذت كل من السفينة مينون، والسفينة جودث طريقهما الكئيب. ثم افترقتا بعد ذلك.

وكون أن بحارة السفينة جودث كانوا أفضل، فقد وصلوا، أولا الى بليموث فى شهر ديسمبر، وهم فى حالة من التمزق والانهيار، وفى الحال توجه دريك من موقعه ليحمل الاخبار السيئة الى لندن. وكان مصير السفينة مينون أسوأ. فقد اتخذت طريقها عبر قناة الباهما ، ومات طاقمها بسبب اصابته بوباء الطاعون. وأخيرا، لم يصبح عليها عدد كاف من الرجال لتسييرها. وكان الباقون على مسافة بعيدة من جنوب انجلترا وأخيرا، وصلوا الى فيجو Vigo (ميناء أسبانى يقع فى الشمال الغربى من أسبانيا) [المترجم].

وكان من المحتمل أن يكون مصيرهم السجن الاسبانى. وقد غمرهم الفرح عندما صادفوا سفنا انجليزية أخرى، زودتهم بمؤن ورجال. وبهذه الامدادات وصل هوكنز الى خليج مونت Mount's Bay أى بعد شهر من وصول جودث فى يناير عام ١٥٦٩م.

وكان دريك قد حكى القصة، وكانت كل انجلترا على دراية بها، ويعتقد الانجليز باستمرار بان مواطنيهم يكونون دائما على حق.

وأما الاسبان الذين كانت لديهم سمعة سيئة بين المسافرين بالبحر فقد اتهموا بالخيانة البغيضة. وأما الحرب العظيمة التى خاضها هوكنز فقد جعلت منه بطلا قوميا. وعلى الرغم من أنه كان يعانى من ضائقة مالية، الا أنه عوض عن خسارته بالشهرة والسلطان.

وكان كل قرصان فى الغرب شغوفا للخدمة تحت قيادة بطل سان جوان دى أولوا (أى تحت قيادة هوكنز)، وبسرعة وجد نفسه، يقود أسطولا كبير وغير نظامى، حتى أن سيسل اعترف بأهمية هوكنز. ومع ذلك، كان قلق هوكنز الأساسى والدائم ينصب على رفاقه الذين تركهم من خلفه، لهذا تحدث عن حملة جديدة، لاستعادتهم أو للانتقام لهم، اذا كانوا قد قتلوا، ولكن كان عليه أن ينتظر حتى تتضح الأمور لأنهم ربما يجدون وسيلة للاتصال به، طالما أنه لا توجد هناك محاكم تفتيش فى مكسيكو. وربما أنه قد علم بأنه لا يوجد هناك فرصة لعمل سريع.

وقد أخفت الملكة اليزابيث استياءها بقناع من الشجاعة، مع أنها عرفت أنها مطوقة بالخيانة، ولكنها عرفت أيضا أن أجرأ أسلوب هو الأكثر أمانا. فقد استولت على نقود الفا، الذى لم يكن لديه الرغبة الملحة فى استعادتها. وقد حققت (اليزابيث) أحسن الصفقات الرابحة بسبب الاستيلاء على السفن الانجليزية والاسبانية وعلى شحناتها أيضا. ولم يشجع الفا فيليب على اعلان الحرب على انجلترا، حتى تخضع الاراضى المنخفضة تماما، وكان فيليب بخطواته الوئيدة، يفضل الصبر والتآمر. واعتقد (فيليب) أن نفسه والوقت والبابا ثلاث سلطات ستبرهن فى النهاية على أنها لا تقاوم. وفى الواقع، وبعد عودة هوكنز، بدت وكما لو أن فيليب ثبت أنه كان على حق. وثار النبلاء الكاثوليك بسبب حضور ملكة اسكتلندا الى انجلترا (يبدو أن مارى ستيوارت قد سجنت فى لندن فى تلك الأثناء). وقد اعتصر الفا الاقاليم اليائسة، كى يدفع أجور (رواتب) قواته. فكان قد سحق التمرد بقدراته العالية وتصميمه العنيد. حتى أصبح كل ميناء فى هولندا، وفى نيوزيلندا فى أيدى الفا.

وقد ضعف عرش اليزابيث بمؤامرة ريدولفى Ridolfi فهى من أخطر المؤمرات التى قابلتها على الاطلاق. وكانت القوة الحربية البروتستانتية الوحيدة التى بقيت فى

البحر، والتى يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كليا، تتمثل فى اسطول القراصنة. الذى كان معظمه تحت أمرة أمير الاورانج. وكان هذا الاسطول أغرب ظاهرة فى تاريخ البحرية فكان نصفه من الهولنديين والنصف الآخر من الانجليز، فضلا عن تطعيمه بالهجنوت. وقد كان على رأس هذا الاسطول نبيل فلكمنى هو كونت دى لا مارك Cont de la Mark وكانت مراكز قيادته فى الدونز Downs أو فى مراسى دوفر Dover حيث كان فى امكان مراكز هذه القيادات مراقبة البحار الضيقة، والاستيلاء على كل سفينة أسبانية تمر، بحيث لا تكون هذه السفينة قوية لدرجة لا يمكن معها اعتراضها. وكان يتم الاستيلاء على الشحنات، بحيث تباع علنا فى سوق دوفر. واذا وجه السفير الاسبانى أى شكوى الى سيسل، فان الرجال الاسبان سيؤخذون سجناء، ويعرضون فى مزاد علنى من أجل دفع الفدية عنهم والتى كانت تبلغ قيمتها بالنسبة لكل شخص ١٠٠ مائة جنيه. واذا أرسل الفا سفنا حربية من أنتويرب لانقاذ هؤلاء الأسبان عن طريق حرق مكان تجمعهم بهدف اجبار الانجليز على الهرب منه، تطلق مدافع دوفير نيرانها على سفنه فتجبرها على التقهقر والانسحاب.

وكانت بعض الاساطيل الانجليزية التى تتجول فى (المحيط) تندفع الى السواحل الاسبانية، فينهب أفرادها الكنائس، وتحمل كنوزها. وفى الوقت نفسه، كان القباطنة يشربون نخب نجاح هذه القرصنة فى كئوس القربان، وذلك أثناء تناول الولائم التى كانوا يقيمونها عندئذ. وقد قدر التجار الاسبان الممتلكات التى دمرت بـ ٣ مليون من الدوكات. وقالوا اذا لم يستطع علمهم حمايتهم فسيرفضون توقيع المزيد من العقود، لامداد جيش الاراضى المنخفضة بالمؤن. وبالنسبة لاليزابيث فكانت المسألة حياة أو موت. فقد كانت مؤامرة ريدولفى مؤامرة ذكية وفوق التصور. وكان الهدف منها اجبار اليزابيث على التنازل عن عرشها، والقضاء على الهرطقة. اذن كانت هذه المؤامرة متكاملة ومحكمة. وقد وافق عليها كل من البابا، وفيليب، وكان على الفا عملية الغزو، كما كان على دوق أف نورفولك Duke of Norfolk أن يتزعم التمرد الذى يحدث فى المقاطعات الشرقية ولم تتعرض اليزابيث لخطر من قبل أكبر من ذلك فهى نفسها كانت ستغتال، وكان الهدف من وراء ذلك معروفا. وقد بقيت تفاصيل المؤامرة سرية، حتى لا

يتوفر لديها الدليل الكافى لاتخاذ الاجراءات الخاصة بحماية نفسها، وفى الوقت نفسه، كانت مراكب القرصنة فى دوفر تمثل نوعا من الحماية، وعلى الاقل كانت هذه المراكب ستجعل عبور الفا أكثر صعوبة، ومع ذلك كان من الضرورة القصوى الكشف عن تفاصيل هذه الخيانة، فأى تهاون من جانب اليزابيث لم يؤد الى نتيجة، بل كان الخلاص الوحيد فى هذه الحالة يكمن فى الجرأة.

وفى انتويرب، كان يوجد هناك على وجه التحديد، دكتور ستورى Dr. Story الذى كلفه الفا بمراقبة المهرطقين الانجليز. وكان ستورى هذا أداة تعذيب تحت حكم مارى Mary، ومع ذلك دافع هذا الرجل عن حرق المهرطقين فى أول برلمان وجد فى عهد اليزابيث. وفى تلك الأثناء رفض ستورى هذا أن يقسم يمين الولاء (للملكة)، لهذا ترك الوطن (أى انجلترا) ولجأ الى استخدام أسلوب الخيانة. ولكن سيسل رغب فى الحصول على دليل يؤكد صدق خيانة هذا الرجل، الذى من الممكن أن يكون هو الدليل بعينه، (ويبدو أن سيسل قد أعد خطة لاغتيال ستورى) تتمثل فى ارسال كلمة اليه عن طريق مخبر مزيف. وقد جاء فى هذه الكلمة أنه توجد سفينة انجليزية فى تشلدت Scheldt، ويعتقد أنه من الجدير فحصها. وقد أغرى ستورى هذا بذلك، فصعد الى ظهر هذه السفينة، عندئذ، أغلقت المنافذ عليه. وبعد يومين سلم ستورى فى القلعة، وهناك انتزعت منه الاسرار بأداة تعذيب. وبعد ذلك أعدم. وكان سيسل قد علم، أو ألم ببعض الأشياء، التى كانت فى الواقع قليلة، عما يحتاج اليه لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بحماية الملكة.

والآن، ولمرة أخرى، كان علينا أن نقابل هوكنز فى شخصية جديدة فلقد مرت ثلاث سنوات على كارثة سان جوان دى أولوا، التى فى أثنائها علم هوكنز بكل أسف بأن رفاقه التعساء قد وقعوا فى أيدى محكمة التفتيش مؤخرا، فأما أحرقوا أو جلدوا بالسياط وإما ماتوا جوعا فى السجون، أو أنهم عملوا وهم مقيدون بالسلاسل فى أحواض سيفيل (أشبيلية). لهذا كان قلب هوكنز الذى لا يعرف الرقة يدمى بمجرد أن يفكر فيهم. وفى هذه الأيام، كانت أجمل سمة للبحارة هى تفانى كل منهم للآخر. ومن هذا المنطلق صمم هوكنز على انقاذ حياة أصدقائه القدامى بطريقة أو بأخرى علما بأن

التوسلات كانت عديمة الجدوى كما كانت القوة مستحيلة. ولكن فى هذا الوقت نفسه، كانت لاتزال هناك فرصة سانحة للدهاء. فهو (هوكنز) يمكن أن يخاطر بأى شيء حتى ولو فقد حياته من أجل انقاذ حياتهم.

وقد غادر سيلفا انجلترا، وفى ذلك الوقت وقع على كاهل السفير الأسبانى دون جيوارو أو جيرالد دى أسبس Donguerauor Gerald de Espes مهمة مراقبة وادارة المؤامرة فكان على فيليب أن يعطيه الاشارة، وكان على دوق أف نورفولك والنبلاء Peers الكاثوليك الآخرين أن يثوروا، ويعلنوا تولى ملكة اسكتلندا العرش (بدلا من اليزابيث) وفى هذه الحالة يمكن أن يعتمد النجاح على اتساع مجال التمرد فى انجلترا نفسها، وكان من مهام السفير الأسبانى العمل على تشجيع كل بوادر الاستياء والترحيب بأهلها وعلى وجه العموم كان هوكنز قد عرف ما الذى كان يدور فى الخفاء؟ ورأى فى الوقت نفسه أن الفرصة سانحة للتعامل مع فيليب عن طريق استغلال جانبه الضعيف. ومن المحتمل أن هوكنز هذا كان يتحدث الاسبانية بطلاقة، وذلك لأنه أمضى مدة طويلة فى جزر الكنارى. فقد زار هوكنز، دون جيورو، وببرود وجسارة شرح له أنه هو والعديد من أصدقائه غير راضين عن البقاء فى خدمة الملكة، لأنه وجدها غير مخلصة. وجاحدة، ويسرهم أن ينقلوا ولاءهم الى ملك أسبانيا، اذا قبلهم هذا الملك. وأما هو نفسه فانه سيتعهد باستمالة كل اسطول قراصنة الغرب، ولم يطلب شيئا فى مقابل ذلك، الا اطلاق سراح العدد القليل من البحارة الانجليز التعساء الذين يوجدون فى سجن سيفيل (أشبيلية). وكان دون جيورو واثقا بأن الأمة كلها مستعدة للثورة، وبشغف بلع جيورو الطعم الذى ألقاه له هوكنز. فكتب الى الفا، وكتب الى وزير فيليب كياس Cayas، يهيب بهما على أهمية هذه الاضافة الى صفهم، وأنه من المسلم به أن هوكنز فى الواقع كان قرصانا، ولكن أعمال القرصنة كانت خطأ شائعا بين الانجليز، ولا عجب عندما رضخ الأسبان لهذا السلب بكل خنوع. وهذا الرجل (يعنى هوكنز) الذى قدم خدماته كان جسورا، وذا عزيمة قوية، وقدرة، فضلا عن أنه كان لديه نفوذ كبير على البحارة الانجليز فانه كان ينصح بكل قوة تشجيع مثل هذا الضم الى صفهم (أى الى الأسبان).

ولم يهتم الفا بذلك. ولم يصدق فيليب ذلك الذى كان يرتجف عند سماع هوكنز، لذا أخبر دون جيورو السير جون هوكنز بأن الملك فى الوقت الحاضر كان لا يرغب فى تنفيذ هدفه (أى هدف هوكنز) أى أنه رفضه.

لذا نصح دون جيورو هوكنز بأن يذهب بنفسه الى مدريد، أو أن يرسل بعضا من أصدقائه الموثوق بهم ومعه التأكيدات والتفسيرات. والآن يظهر شخص آخر على المسرح، كان هذا الشخص هو جورج فتزوليام George Fitzwilliam فأنا لا أعرف. من كان هو؟ أو لماذا اختاره لهذا الغرض؟ وفى ذلك الوقت كان دوق فيريا Duke Feria واحدا من أعظم وزراء فيليب الموثوق فيهم. فقد تزوج هذا الوزير (دوق فيريا) من سيدة انجليزية كانت تعمل وصيفة شرف للملكة مارى. ومن الممكن أن يكون فتزوليام على معرفة شخصية بها أو بأسرتها. وعلى أية حال، ذهب فتزوليام الى البلاط الاسبانى، وتوجه بنفسه الى أسرة فيريا وكسب ثقتها، فبواسطتها سمح له بمقابلة فيليب، وأخبره عن هوكنز، بأنه كاثوليكيا مخلصا، وساخطا على انتشار الهرطقة فى انجلترا، وهو مستعد أن يقدم المساعدة فى الاطاحة باليزابيث، وأن يساهم فى تولية ملكة اسكتلندا مكانها كما أن له القدرة والرغبة على نقل أسطول القراصنة الغربى العظيم معه والذى يظن فيه الأسبان بأنه مرعب. استمع فيليب الى فتزوليام، وكان مهتما بذلك، على حد رأى فيليب ومن الطبيعى فقط، أن المهرطقين كانوا لصوصا وقراصنة. ولو كان فى الامكان عودتهم الى الكنيسة فانهم فى هذه الحالة سيتركون عاداتهم السيئة. وكان الاسطول الانجليزى يمثل بالنسبة للغزو المنشود العقبة الخطيرة. وكان هوكنز يمثل (الاشينزى) مصدر للكوابيس وهذا لا يمكن أن يكون أو يحدث. وسأل فيليب فتزوليام عما اذا كان صديقه على معرفة بملكة اسكتلندا أو دوق نورفولك، واضطر فتزوليام أن يقول لم يكن هوكنز على علاقة معهما. وكان قبول فيليب لهوكنز أهم شىء عند فتزوليام. وقدم فتزوليام للملك عرضا رائعا، تمثل فى أسطول مكون من أجمل السفن فى العالم، وربما لم يكن هذا الاسطول فى حالة ممتازة بسبب بخل الملكة، ولكن كان من الممكن أن يصلح مرة ثانية، اذا دفع الملك بعض الأموال اللازمة، لاصلاح سفن هذا الاسطول، فضلا عن دفعه لأجور البحارة. ويعتبر اطلاق سراح عدد قليل من المساجين التعساء

[illegible]

[illegible] Pazias متحمسين بشكل خطير، وتحدثوا بحرية الى فتزوليام عن ملكة اسكتلندا وبالبابا، وعهدوا اليه بخطابات وهدايا، تضمن لفتزوليام الاستحواذ على ثقتها. ومن المعروف أن هوكنز كان قد أرسل فيزوليام لغرض واحد يتمثل فى الاحتيال على فيليب من أجل تحرير رفاقه من محكمة التفتيش، ولكن فتزوليام وقف على أسرار سياسية هامة لهذه الفترة (مثله في ذلك مثل سول Saul ابن كيش Kish الذى ذهب ليبحث عن حمير أبيه فعثر على مملكة). وأسرع فيتزوليام الى الوطن بخطاباته وأخباره، وأصبحت الأمور خطيرة، ولم يستطع هوكنز أن يتصرف أكثر من ذلك على مسئوليته الخاصة. لهذا تشاور مع سيسل، وتشاور سيسل بالتالى مع الملكة، فاتفقوا جميعا على أن العملية – كما سموها – لابد وأن تستمر، فمن الممكن أن تؤدى الى كشف السر بأكمله.

واعتقد بعض الناس الأفاضل بأن ذلك خيانة كبيرة، ولكن حسنا، فهناك أوقات يعجب فيها المرء حتى بالخيانة نفسها. ويعتبر ذلك اعترافا بأن الملك فيليب كان يشجع أحد الرعايا الانجليز كى يخون ملكته. فهل من الخطأ أن نمجد مهندس المؤامرة بمفرقعاته؟ وهل كان من الخطأ لهملت Hamlet أن تناول مجموعتى رسائل كل من روزنكرانتز Rosencrantz وجيلدنسترين Guildenstern وأن يعيد كتابة رسائل عمه؟ إذن دعنا نتناول هذه الأمور مغيرين وجه الحقيقة.

ففى ذلك الوقت كانت مارى ستيوارت Mary Stuart فى قلعة شفيلد Sheffiled تحت مسئولية لورد شروسبرى Shrewsbury لذا لم يستطع فتزوليام رؤيتها دون أمر من التاج (أى من الملكة اليزابيث) ومع أن لورد شروسبرى كان مخلصا الى اليزابيث، الا أنه كان مشهورا بميله الى مارى، لذلك لم يثق به، وكتب سيسل اليه قائلا: "أن أصدقاء

فتزوليام كانوا فى السجن فى أسبانيا، فاذا تشفعت ملكة اسكتلندا من أجلهم لدى فيليب، فانه من المحتمل أن يقتنع، ويطلق سراحهم" لهذا سمح لفتزوليام بمقابلة خاصة مع تلك الملكة.

وهكذا، عاد فتزوليام، مسلحا بهذه التوصيات الى شفيليد Sheffield حيث التقى بالملكة مارى، وبدأ فى تقديم خطابات التحية اليها التى كان قد أحضرها من آل الفيرياس Ferias والتى أدخلت الى قلبها السرور فى الحال، وكان من المستحيل بالنسبة لها أن تشك فى صديق لكل من الدوق والدوقة. فكانت مسرورة جدا عند استقبالها لزائر من البلاط الاسبانى. وكانت أيضا حذرة لدرجة أنها تجنبت اعطاء أى ثقة يترتب عليها أية مخاطر، وقالت أنها دائما تسر عندما تستطيع أن تقدم خدمة الى رجال انجلين، فمن كل قلبها ستتشفع من أجل المساجين. فكتبت الى فيليب، وكتبت كذلك الى الدوق والدوقة، وأعطت الخطابات الى فتزوليام كى يسلمها اليهم، ولكن فيتزوليام أخذها الى لندن، وهناك زار دون جيرالد Don Gerald – السفير الاسبانى فى لندن – وأخبره بنجاحه. وبعد ذلك، كتب الدون جيرالد الى سيده (فيليب) بدون تحفظ، وأوكل الى فتزوليام تسليم هذه الرسالة الى الملك فيليب.

وأخذت مجموعة الرسائل المختلفة هذه الى سيسل أولا، ومن بعده عرضت على الملكة، ثم أعيدت بعد ذلك الى فتزوليام، الذى سافر بها مرة ثانية الى مدريد. فإذا أتت هذه الخطابات بالنتائج المتوقعة فإن سلعا سوف تتبع ذلك، وقد لاحظ سيسل ذلك بهدوء. وسوف يتحرر البحارة الانجليز وسفنهم من محكمة التفتيش، وسوف تتكشف أهداف العدو. واذا اقتنع ملك أسبانيا بعمل ما، اقترحه عليه فيتزوليام – كالمساعدة الخاصة بإصلاحات السفن فى بليموث – فإنهم (فيتزوليام وسيسل وهوكنز) بذلك سيحصلون على مبلغ من المال يستخدمونه فى تدميره (أى فى تدمير فيليب). واذا حاول الفا أن يقوم بالغزو المتفق عليه، ففى هذه الحالة يمكن لهوكنز أن يأخذ سفن القراصنة كما لو كانت تقوم بحراسة الفا. عندئذ يقوم هوكنز بعمل استغلالى مثير فى منتصف القناة.

ويلاحظ الاتجاه الواضح لكل من سيسل وهوكنز، وكذلك للأطراف الأخرى المشاركة فى الامر. فنواياهم لم تغلف بعبارات رنانة، ولم تكن هناك استعراضات لأى تبرير، انما اتجهوا مباشرة الى لب الموضوع. وكان هذا من خصائص الانجليز فى مثل هذه الأوقات العصيبة. فهم يواجهون الحقائق ويفعلون ما تتطلبه الأمور. وفى الواقع، فإن كل هذا قد حدث تمام، كما شرحت. فلقد سردت القصة من الخطابات والوثائق التى لا يوجد أى ظلال من الشك فى صحتها.

بعد ذلك سنعود الى فيتزوليام، الذى كان قد وصل الى البلاط الاسبانى فى نفس اللحظة التى أحضر فيها ريدولفى Rridolfi من روما موافقة البابا على المؤامرة. وأضيفت اللمسات الأخيرة بواسطة مجلس الدولة الأسبانى. وكان الجميع مفعمين بالأمل، وكانت تملؤهم الحماسة الصادقة. وقد أقنعت خطابات مارى ستيوارت فيليب، فأطلق سراح المساجين، وكان فى جيب كل واحد منهم عشرة من الدولارات. ووقعت إتفاقية رسمية فى الاسكيوريل Escural والتى فيها منح فيليب عفوا لهوكنز عن كل أعماله الشريرة فى جزر الهند الغربية، كما منحه براءة النبالة الأسبانية وخطاب إئتمان بمبلغ ٤٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى، وذلك لإصلاح سفن القراصنة من أجل إعدادها للخدمة. وفى الواقع، فإن هذا المبلغ قد دفع عن طريق وكيل فيليب فى لندن. وكان فيتزوليام الذى منح كل الثقة، قد علم بكافة تفاصيل هذه المؤامرة الكبرى فكانت هذه القصة أشبه بفصل من فصول قصة مونت كريستو Mont Cristo ولكنها كانت فى الحقيقة قصة واقعية.

وانتهت هذه القصة بالخطاب الذى سأقرأه لكم من هوكنز الى سيسل، وقد جاء فيه ما يلى:

"سيدى العظيم لعله يسر معاليكم أحاطتكم علما بأن فيتزوليام قد عاد من أسبانيا بعد أن سلم الرسالة التى قام بحملها، والتى حازت على الرضا من جانب كل من الملك فيليب نفسه، ودوق فيريا، وكذلك من جانب بعض الاشخاص الآخرين فى المجلس الخاص. وكان الملك قد رد عليها بسرعة فائقة وبتأييد كبير وبمساندة منه، ورعاية.

وقد أرسلت البنود مع الأوامر الى السفير (الاسبانى) وذلك لدفع النقود حتى يسير المشروع بكل اجتهاد. وكان من التظاهر أن تنضم قواتى دوق الفا التى سيعدها سرا فى الفلندرز، والى القوات التى ستأتى مع دوق مدينة سيلى Duke of Medine Celi من أسبانيا، لكى تغزو هذه المملكة (مملكة أسبانيا) وبعدئذ، تنصب ملكة اسكتلندا على عرش انجلترا، وقد تدربت هذه القوات معا على حرق سفن صاحبة الجلالة، لذلك كان ينبغى أن يكون هناك حرصا شديدا، ولكن دون أن يبدو أن أى شىء قد اكتشف. وقد أرسل الملك فيليب ياقوتة غالية الثمن الى ملكة اسكتلندا، ومعها أيضا خطابات كانت فى تصورى جيدة، كى تسلم (الى مارى)، ومع ذلك فلم يكن لهذه الخطابات أهمية، ولكن كانت رسالته الشفهية (فيليب) مريحة لها، وتقول رسالته الشفهية هذه ما نصه: "أنه (أى فيليب) ليس لديه الآن أى اهتمام آخر سوى وضعها (أى وضع مارى ستيوارت) فى مكانها. وكان من الأشياء الطيبة أن فيتزوليام استطاع مقابلة ملكة اسكتلندا، ليقدم لها الشكر على انقاذها للمساجين، الذين هم الآن فى حرية تامة. ولو أنك تشاورت معه باستفاضة، فان ذلك سيكون من الأمور الطيبة.

وقد أرسلت الى معاليك نسخة من العفو عنى والممنوحة الى من ملك أسبانيا بالترتيب والطريقة التى تسلمتها مع الالقاب العظيمة، ودرجات الشرف التى حصلت عليها من الملك (فيليب) والتى أنقذنى الله منها. ومن المعروف أن سلوك الاسبان كان مشينا، لهذا لم يركنوا الى الكسل. فأطلب من الله أن يدمرهم، وأن يرد مكائدهم الى نحورهم".

تحياتى واخلاصى الى معاليك.

جون هوكنز

وسأنهى هذه القصة العجيبة ببعض كلمات أخرى، اذ أنه بمساعدة مفتاح اللغز الذى تم الحصول عليه من فيتزوليام، ومن الاعترافات التى انتزعت من بعض الشهود الذين أدلوا بأقوالهم رغما عنهم، قد تكشفت مؤامرة ريدولفى قبل أن تبدأ عملها. واعدم نورفولك وأيضا أعدم الأوغاد اللئام. وكانت فرصة الهروب بالنسبة لملكة اسكتلندا ضئيلة. وفى الوقت نفسه كان البرلمان الانجليزى قد أكد الشخصية البروتستانتية فى

كنيسة انجلترا، وذلك بتضمينه البنود الـ ٣٩ فى تشريع. ومنذ البداية لم يثق الفا فى ريدولفى، ولم يعد يرغب فى تشجيع التمرد، ورفض أن يهتم أكثر من ذلك فى القيام بالمزيد من المؤمرات الأنجلو كاثوليكية بنفسه. والآن تستطيع اليزابيث وسيسل أن يتنفسا الصعداء بحرية، ويعطيا فيليب درسا بسبب عمليات التآمر الخطيرة التى كان يرتكبها ضد حياة الملوك.

وفى هذا الوقت كان وجود دى لامارك De la Mark وقراصنته فى الدونز Downs غير ملاءم، طالما كان هناك سلام اسميا بين انجلترا وأسبانيا. وفى تلك الأثناء، أعلنت لجنة من التجار فى البروجز* Bruges، بأن خسائرهم (كما قلت) بلغت ما قيمته ٣ مليون من الدوكات. والآن أصبحت اليزابيث فى أمن نسبيا، ومالت الى الاستماع الى الاحتجاجات، عندئذ أرسلت الأوامر الى دى لا مارك، التى جاء فيها ما نصه "أنه من الواجب عليه أن يعد نفسه للرحيل". فمن المحتمل أنه هو والملكة كانا يفهمان كل منهما الآخر كما أن دى لا مارك عرف جيدا أين يذهب؟ وماذا عليه أن يفعل.

وفى ذلك الوقت، كان الفا قد استولى على كل حصن فى الأراضى المنخفضة سواء فى الداخل أو على الساحل، فضلا عن قيامه بسحق الشعب فى هذه المناطق وبعد ذلك انتصب تمثال الدوق (أى تمثال الفا) فى ميدان فى انتويرب وكأنه رمز على الغاء الحريات القديمة للمقاطعات.

وفى الوقت نفسه، كان أمير الأورانج لايزال يواصل الصراع البحرى غير المتكافىء بمفرده (ضد الفا) ولكن اذا كان عليه أن يحافظ على نفسه كقوة بحرية فى أى مكان، فإنه فى هذه الحالة يحتاج الى ميناء خاص به فى وطنه. وقد استخدمت دوفر، والتيمس فترة من الزمن كقاعدتين للعمليات، ولكنهما لم يستمرا طويلا، فبدون حصوله على موطىء قدم فى هولندا نفسها، فان النجاح سيكون أمرا مستحيلا فى النهاية. وفى ذلك الوقت، كان العالم البروتستنتى مهتما بمصيره (أى بمصير الأورانج). وكان دى لا مارك، وما برفقته من تجمعات مختلفة، ضمت القراصنة الهجنوت والانجليز والهولنديين على استعداد تام للقيام بأى عمل بطولى مستميت.

---

* البروجز: ولاية صغيرة تقع فى الشمال الغربى من بلجيكا وغرب الفلندرز (المترجم)

[illegible] علي القوى، ولكن لم

[illegible] أساطيل انجلترا.

[illegible] في [illegible]

أسبانيا [illegible] وقع دى لا مارك [illegible]

القافلة، واستولى على أكثر [illegible] من فرقهما الى

جانبهما في الماء وطارد البقية من هذه السفن في القتال، وبعد يوم أو يومين ظهر دى

لا مارك بنفسه فجأة عند مدينة البريل Brille الواقعة عند مصب نهر الميوز* Muese وبعدئذ أرسل قاربا الى الشاطىء ومعه رسالة الى حاكم البريل، يطلب منه فيها الاستسلام العاجل للمدينة وتسليمها الى الاميرال (أمير الأورانج). ولكن ثار السكان في حماسة (أى سكان المدينة) مع أن حامية هذه المدينة كانت صغيرة، لذا اضطر الحاكم الى الاذعان لمطلب دى لا مارك، واستولى الأخير عليها، ولكن حاولت قلة من الكهنة والرهبان المقاومة، ولكنهم سحقوا بدون صعوبة وقتل قادة المدينة. وتطلفت الكنائس من الأوثان، وحلت الكلفانية، محل طقوسهم. وقد أرسلت المدافع والذخيرة من لندن، وأنزلت الى البر. وحصنت مدينة بريل قبل أن يتحقق الفا مما ألم به أو مما حدث له. وقيل أنه قد نتف لحيته بسبب الغضب، وفعل فلاشنج Flushing مثلما فعل الفا. وفي غضون أسبوع أو أسبوعين (من احتلال دى لا مارك لمدينة بريل Brille) تمردت كل النقاط القوية الواقعة على الساحل. ولكن في تلك الأثناء، وضع اسطول القراصنة أساس الجمهورية الهولندية العظيمة، التي انضمت الى جانب انجلترا للقضاء على سيادة فيليب في البحار، وانقاذ الديانة البروتستنتية (من شروره).

وقد نفكر كما يروق لنا وبمسحة جنفية (لاهوتية بروتستانتية) في هؤلاء شحاذى المحيط – القراصنة النرويجيين – الذين أتوا بحيوية مرة ثانية، فقد أتوا هذه المرة بجسارة، وببراعة، وبتصميم عنيد كي يكونوا أحرارا من الناحية الروحانية أو ليموتوا في سبيل ذلك. وهم يشبهون القراصنة البروتستانت في القرن السادس عشر، الذين كانوا من النادر أن يلتقوا في هذا العالم.

---

* الميوز نهر تتدفق مياهه من الشمال الشرقي من فرنسا، مارا من الجنوب البلجيكي ثم يصب في بحر الشمال بعد عبوره للأراضي المنخفضة (المترجم).

وقد عم انجلترا الفرح عندما أتت الأخبار التى تفيد بأنه قد تم الاستيلاء على مدينة بريل. فجلجلت أجراس الكنائس، وتوهجت المشاعل وتدفقت النقود بكثرة، وعادت الاسر المنفية الى أوطانها (التى كانت قد فقدتها من قبل) لتكون أوطانهم مرة أخرى. وتحصن سكان الأراضى المنخفضة، والهولنديون فى خنادقهم، واستعدوا لصراع برمانى ضد أعظم قوة فى ذلك الوقت على الأرض.

(الفصل الرابع)

رحلة دريك حول العالم

أظن أن بعض الأشخاص المعاصرين قد سمعوا عن اسم لوب دى فيجا Lope de vega الشاعر الأسبانى، الذى عاصر فترة حكم فيليب الثانى. فقد يعرف القليل منكم عنه أكثر مما يعرف عن اسمه، ومع ذلك ينبغى أن يحوز على بعض اهتمامنا، لأنه كان واحدا من كثيرين من الأسبان الشبان المتحمسين الذين أبحروا فى الأرمادا العظيمة (أى الاسطول الاسبانى). وقد فشل لوب دى فيجا فى بعض غرامياته، فهو كاثوليكى جاء ومع ذلك، فقد رغب اللهو ولا داعى هنا للقول بأنه قد وجد قدرا كافيا من اللهو فى القتال الانجليزى، يكفى لابعاد متاعب غرمياته عن تفكيره. و بحيوية بينت مغامراته (أى لوب دى فيجا) شخصية الأمة التى كانت دولته مشتبكة معها فى حرب مميتة، أى بينت له على وجه الخصوص شخصية البحار الانجليزى العظيم الذى عزا الأسبان اليه بصفة عامة هزيمتهم. وقد درس لوب الأعمال الجريئة لفرانسس دريك، منذ ظهر وحتى نهايته، وقد تغنى لوب بهذه الأعمال الجريئة بحيث جعله (أى جعل دريك) بطلا لملحمة شعرية، بينما انجلترا نفسها لم تعتقد أنه يستحق ذلك. وعرفت ملحمة لوب دى فيجا باسم دراجونتى Dragontea (التنين). فكان دريك نفسه هو التنين فى الملحمة، وكان هو أيضا الأفعى القديمة للأبوكاليبز Apocalypse . وقد سمح لنا نحن الانجليز بأن نثنى ثناءا محددا واكيدا على دريك. واعترفنا نحن الانجليز أيضا بأنه كان بحارا جسورا بارعا، حيث أنه قام بعمل خدمة جليلة لوطنه عند الغزو. فنحن نوافق على أنه كان بحارا مشهورا، فقد أبحر حول العالم، بحيث لم يبحر شخص آخر قبله. ومع ذلك فقد كان لصا وقرصانا. والعزاء الوحيد له ، أنه لم يكن أسوأ من معظم معاصريه. فكان لوب دى فيجا هذا أسوأ منه بدرجة كبيرة، فكان الشيطان بعينه، بل كان تجسيدا لعبقرية الشر. وكان زعيم أعداء كنيسة الله.

وأنه لمن الجدير بالذكر، أن ننظر كثيرا وبصفة خاصة الى الرجل الذى ظهر الي الاسبان بصورة مرعبة كهذه، فأنا من ناحيتى اعتقد بأن الوقت سيأتى، ويمكن أن نرى أفضل مانراه الآن، وماذا كانت حركة الاصلاح، وبماذا نحن مدينين لها. فسوف يشكل

قبطانه البحر فى عصر اليزابيث موضوع ملمحى قومى انجليزى عظيم فى عظمة الأوديسا.

وبعد ذلك وبأسلوبى المتواضع، سأحاول من خلال هذه المحاضرات أن أرسم لكم رسم تخطيطى أو صورة لدريك وأعماله، كما تبدو هذه الأعمال لنفسى، فاليوم استطيع أن أعطيكم جزءا من القصة المتنوعة والثرية، اذا سارت كل الأمور على مايرام، ففى هذه الحالة أمل أن أتمكن من مواصلتها فى الزمن المستقبل.

وأننى لم أنته بعد من السيرجون هو كنز، فسوف نسمع عنه مرة ثانية. فقد أصبح السيرجون هو كنز هذا مديرا لترسانات الزابيث. فهو الذى أعد السفن التى حاربت أسطول فيليبب فى القناة، وفى ظل حالة كتلك لم يسترب الماء الى أى منها، ولم تقتلع صاريا واحدا، ولم يفصل حبل فى غير وقته. وكان كل ذلك بأقل التكاليف. وقد خدم السيرجون هو كنز بنفسه فى الأسطول الذى جهزه، فكان هوكنز واحدا من مجموعة صغيرة من الأميرالايات التى التقت فى يوم الأحد بعد الظهر فى كابينة السفينة رالى Raleigh وأرسلت السفن الحربية لدفع السفينة مدينا سيدونا Medina Sidona للخروج من مرساها فى كاليه.

وكان هو كنز ابن البحر، وفى البحر مات، وفى النهاية لفظ أنفاسه، فى أحضان إمه (البحر). ولكن بعدئذ يجب أن أتحدث الان على قريبه الذى لا يزال أكثر شهرة " هو فرانسس دريك". وبعامة ، فقد أخبرتكم فى يوم سابق، من هودريك، ومن أى جهة قدم، وكيف ذهب الى البحر عندما كان صبيا، فقد لاقى عطفا من سيده، وأصبح فى عهد مبكر يملك سفينة خاصة به وفى تلك الأثناء التصق بالتجارة التصاقا قويا، و أظنكم لم تسمعوا عنه شيئا، ولا عن صلته بقراصنة القنال. فانه لم يكمل حتى سن ال ٢٥ سنة، الا وكان هوكنز قد أغراه بالعمل فى صيد العبيد، والاتجار فيهم، وكانت هذه تجربة واحدة كافية. فهو لم يحاولها مرة أخرى.

وفى الواقع ، فان صوره تختلف كثيرا، وانه لمن الطبيعى أن تكون كذلك لأن معظم هذه الصور التى قصد منها دريك لم تكن لدريك على الإطلاق. فان هذا هو النمط الذى كان سائدا فى هذا القطر، فهو نمط ردئ للغاية، فعندما نجد صورة شهيرة، وليس

لها اسم رسمى، يطلق عليها بطريقة عشوائية اسم رجل مشهور، وبهذا تظل مصدرا للحيرة والتضليل، وأحسن صورة أعرفها لدريك تلك الموجودة فى مجموعة السير وليام استرلنج ماكسويلز Sir William Stirling Maxwell's الخاصة بمشاهير القرن السادس عشر، وهى تمثله بشكل واضح فى سن الـ ٤٣ سنة، كما تقول الكتابة الموجودة فى أسفل هذه الصورة فقد ظهر فيهادريك بوجه مستدير، وبجبهة عريضة مكتنزة، ويتدلى من على جانبيها شعر بنى قصير ومجعد، وكانت حواجبه مقوسة بشكل واضح، وأعينه حادة، ولامعة وواسعة، ولم يكن فى امكانى تحديد لونها، ولكن أستطيع أن أحكم بأنه يمكن أن تكون رمادية داكنة كعيون النسر، وكان أنفه قصيرا سميكا، وكان الفم والذقن يختفيان تحت شارب كث، فوق الشفاة العلوية، و ظهر بلحية متساوية منتشرة فوق ذقنه وخديه. وتدل سمته على المزاج الطيب، ولكن دون لين فى العريكة، ودون أن تبدو عليه أى سمة للضعف، و كان دريك متوسط الطول قوى البنية، ولا يبدو للرحمة مكانا فى قوته. وقد تكون السترة المطرزة التى البسه اياها الفنان قد بالغت فى عرضه.

ولقد رأيت له صورة أخرى، وزعم أنها أصلية، ويظهر فيها دريك بقوام أكثر نحافة، وبعيون سوداء منتفخة، عميقة التفكير وحازمة، ومن حول رقبته وضع حبل البحار، والمتصل به صفارة، كما دفعت دبلة معدنية دون عناية فى الأبهام، الذى ارتكزت عليه ذراعيه بثقلها فى وضع مميز وبوضوح فان هذه صورة مرسومة بعناية لبحار جدير بالأهتمام فى زمنه.

وأحب أن أصدق أنها لدريك، ولكننى لست متأكدا من ذلك.

وكنا قد تركناه (أى دريك) وهو عائد الى الوطن فى السفينة جودث من سان جوان دى أولوا وهو محطم. فهو لم يؤذ الاسبان أبدا. فكان قد رحل مع ابن عمه ليتاجر فقط، وقد تلقى استقبالا حارا من المستوطنين فى أى مكّان يتواجد فيه. وقد غدر به أدميرال اسبانى وهاجمه هو وأقرانه، ودمر نصف سفنهم، و سلبهم كل مالديهم. وقد تركوا من خلفهم مائة من زملائهم الذين خشوا على مصيرهم ومنذ ذلك الحين، فصاعدا اعتبر دريك بإن الممتلكات الاسبانية حق خالص له الى أن يعوض خسارته. وانتظر فى هدوء لمدة أربع سنوات حتى أعاد بناء نفسه، وبعدئذ، بدأ يجرب حظه مرة ثانية بصورة

أكثر جسارة.

وقد تناقلت الألسنة السائبة سوء الحظ هذا، الذى أصاب دريك فى سان جوان دى أولوا. فقد كان هناك حديث كثير عن ذلك، وتورطت فيها أطراف كثيرة. ومن المعروف أنه كان لدى الحكومة الاسبانية علم بذلك، فاستعدت لذلك. وقد عقد دريك العزم على أن يعمل لحساب نفسه، دون أن يكون معه شريك، وأن يحافظ على سره، وقد وجد أناسا يثقون فيه، ويعطونه أموالهم له دون أن يطلبوا منه أية أيضاحات. وكان بحارة بليموث حريصين على أن يأخذوا فرصتهم معه. وكانت قوته صغيرة بشكل مضحك، فكانت تتكون من مركب شراعي وحيد الصارى، أو من مركب شراعى بصاريين. وتبلغ حمولتها مائة طن وقد أطلق علي هذه السفينة اسم دراجون Dragon (ربما مثل اسم ملحمة لوب دى فيجا، أى مستغلا فى ذلك اسم دى فيجا) علاوة على مركبين شراعيين صغيرين. وفى نهاية فصل صيف عام ١٥٧٢م، غادر دريك بليموث على رأس هذه الحملة. وقد تحقق دريك بأن ذهب وفضة فيليب القادمة من مناجم بيرو Peru Vianmines قد أنزلت فى بنما Panama بعد ذلك حملت عبر البرزخ، على ظهور البغـال، وعبر مجرى قناة دلسييس، وأعيد شحنها فى نومبردى دوا NombredeDois الواقعة عند مصب نهر تشاجر Chagre Rive .

لم يخبر دريك أى شخص عن الوجهة التى يتجه اليها، حتى أنه لم يتفوه بعد عودته بأكثر من الضرورى. ومايمكن معرفته بالتأكيد هو نتائج مغامراته لا تفاصيلها، وقد دفعته حكمته أن يحتفظ بمشورته، وقد احتفظ بها.

وفى منتصف القرن التالى، نشرت أسرة دريك تقريرا عن هذه الرحلة، ولكن كان من الواضح أنه حرا فى أجزاء منه، لأنها كانت مزيفة ولا يمكن الاعتماد عليها، فى أى مكان، ويمكن اثبات أنه ذهب الى نومبر، وأنه وجد طريقة الى المدينة، ورأى مخازن السبائك الذهبية هناك، التى كان يجب أن يحملها معه عند عودته، ولكنه لم يستطع. وأنا لا أصدق قصة معركة خيالية فى المدينة. فأولا، لأن عدد حملته كان صغيرا، فأى محاولة لاستخدام القوة ستكون مضحكة، وثانيا: لوكان هناك حقا شئ مثل معركة، لانذرت المناطق المجاورة. ومن الواضح أنه لم يعط أى انذار. وكان يوجد فى الغابات

جماعات من العبيد الهاربين الذين عرفوا باسم سيماروتز Cimarons. وقد قدم دريك نفسه لهؤلاء الذين تطوعوا (من السماروتز) لارشاده الى المكان الذى يستطيع منه أن يفاجئ قافلة الكنز (الأسبانية)، وهى فى طريقها من بنما. وكانت تحركاته تتم بسرعة، وفى صمت. وقد وقعت حادثة عرضية خطيرة، وهى حقيقية موثوق بها، فقد أخذه السيماروتز عبر الغابة الى مكان تجمع المياه التى منها تتدفق المجارى المائية الى المحيطين. وكان لايمكن رؤية أى شئ عبر غابة من الحشائش الطويلة، ولكن دريك تسلق شجرة طويلة، ورأى من قمتها المحيط الهادى يتألق من أسفله، وقد أقسم أنه فى أحد الأيام سيبحر بنفسه فى سفينة فى تلك المياه.

وفى ذلك الوقت ، كان أمامه عمل عاجل، واحترم المرشدون كلمتهم معه، فقادوه الى الطريق القادم من بنما، ولم ينتظر طويلا، قبل أن يسمع طنين أجراس البغال عندما كانت قادمة عبر هذا الممر. فلم يكن هناك شك فى الخطر، حتى فى أقل ما يمكن أن يحدث منه. وكان لقافلة البغال حارسها العادى، هذا الحارس الذى هرب عند أول مفاجئة. وسقطت كل غنائم القافلة فى أيدى دريك، من ذهب ومجوهرات، وقضبان فضية، فبسهولة حصل على الكثير، كما قال أميرهول Prince of Hall فى جاد شيل Gadshill وقد دفن دريك الفضة فى الأرض، لأنها كانت ثقيلة فى نقلها. وحمل أتباعه الذهب واللؤلؤ، والياقوت والماس والزمرد مباشرة الى سفينتهم. وكانت رحلة العودة الى الوطن ناجحة. وقد قسمت الغنائم المسلوبة فيما بين المغامرين ، بحيث لم يكن لديهم مايدعو للشكوى. وكانوا من الحكمة أن أمسكوا بألسنتهم فكان دريك فى وضع يتفحص فيه ماحوله، ويستعد للقيام بمغامرة أكبر.

ورغم هذا التكتم، فقد راجت اشاعات فى الخارج. عندئذ، طارت التخيلات فى الآفاق، واعتقد الهواة المتهورون بأن فى استطاعتهم أن يحققوا ثروات بنفس الطريقة، وحاولوا ولكن دون جدوى.

ومن الممكن أن نتلمس نوعا من الغرور، أصاب تفكير البحارة الانجليز عندما اتسعت اعمالهم. حتي أن آل هوكنز – المستنيرين منهم والعمليين – قد اصابتهم العدوة. ولم يكن هذا فى أسلوب دريك الذى التزم بالواقع والحقيقة فدرس الكرة الأرضية.

وتفحص كل الخرائط التى استطاع الحصول عليها، بحيث أنه أصبح معروفا لمجلس شورى الملك والملكة، عندئذ أعد لمغامرة ستشهر اسمه، وترعب فيليب بصورة حادة.

وكانت السفن التى استخدمها الاسبان فى المحيط الهادى، تبنى فى الحال ولكن عرف أن ماجلان قد ذهب عن طريق القرن، فأينما ذهب البرتغاليون ذهب الانجليز، وقد اقترح دريك أن يحاول ذلك، وكان هناك مجموعة فى مجلس اليزابيث ضد هذه المغامرات كما كانت فى نفس الوقت تعمل لصالح السلام مع أسبانيا وكانت اليزابيث تؤيد المشاريع المهمة والسريعة، فكان لها الرغبة فى تقديم المساعدة (لدريك)، وكان لبعض الأعضاء الآخرين نفس الرغبة بشرط عدم ذكراسمائهم، ولكن كانت المسئولية تقع كاملة على كاهل دريك. ومرة ثانية فان السفن التي كان يعدها ليجرب بها حظه كانت بليكان Pelican أو السفينة جولدن هند Golden Hind ، التي كانت خاصة بدريك نفسه، والتى كانت حمولتها تبلغ ١٢٠ طنا، فهى لم تكن أكبر من مركب شراعى حديث ذى مجاديف.

ورغم أنه لا يوجد مركب شراعى سريع ذو مجاديف قد تم بناؤه فى ترسانة هويت White's Yard، الا أن السفينة بليكان هى التى كان من الممكن أن تؤدى هذا العمل. وكانت المركب التالية تتمثل فى السفينة " اليزابيث"، التى كانت قد قدمت من لندن، ويقال بأن حمولتها بلغت ٨٠ طنا، فضلا عن وجود مركب شراعى صغير تبلغ حمولته ١٢ طنا. وينبغى علينا أن نخاطر بهم جميعا فى جولة صعبة حول الأرض، وسترافقنا سفينتان حربيتان تبلغ حمولة احداهما ٥٠ طنا، وتبلغ حمولة الأخرى ٣٠ طنا، وهما يمثلان بقية الأسطول. وكانت السفينة اليزابيث تحت قيادة الكابتن ونتر Captain winter ضابط الملكة، ومن المحتمل أنه كان ابنا لأمير بحر عجوز.

وكان لدريك الفخر بأنه كان على علم بما كان سيقوم به، فهو وزملاؤه، كانوا يحملون حياتهم على أيدهم، فلو تم أسرهم، فأنهم فى هذه الحالة سيشنقون لا محالة، وأن سلامتهم فى هذه الحالة أيضا تعتمد على سرعة الابحار، وبخاصة على قوة العمل السريع، وذلك بمساعدة الريح.فالسفن المسطحة الثقيلة لا تستطيع القيام بمثل هذا العمل. وبلغ عدد أطقم هذه السفن – على حد ماعلم به – ١٦٠ شخصا من الرجال

والصبيان. وكان برفقة دريك شقيقة جون. وكان من بين ضباطه أيضا قسيسا يدعى المستر فلتشر Fletcher ، علاوة على كاهن آخر من النوع الذى يتحدث الأسبانية. كما كان يوجد ضمن أفراد البعثة المستر دوتى Mr. Doughty الذى كان فى احدى سفن دريك، والذى كان غامضا، وغير مفهوما. فمن هو المستر دوتى هذا، ولماذا أرسل. هذا لم يكن مؤكدا أو معروفا. فعندما كانت أية بعثة هامة، جاهزة لبدء مهمتها، فان المجموعة الموالية للأسبان فى مجلس الوزراء (البريطانى) كانت فى العادة تلحق بها (أى بهذه البعثة) شخصا يكون بمثابة الرجل الثانى فى القيادة، وتكون مهمته تعطيل هدف البعثة. وبعد سنوات، وعندما ذهب دريك الى قادش ليشذب لحية فيليب، كان قد أرسل معه (أى مع دريك) زميلا له، فهذا الزميل هو الذى كان عليه أن يحبس فى داخل الكبينة (أى كابينة سفينة دريك) قبل أن يبدأ (دريك) عمله. وعلى قدر تصورى فأن المستردوتى كانت له نفس المهمة. وبهذه المناسبة كانت السرية مستحيلة. وكان من المعروف فى العادة أن دريك كان عليه أن يذهب الى المحيط الهادى، عن طريق مضايق ماجلان، كى يعمل بعدئذ، أو فيما بعد بما تمليه عليه حكمته. وفى ذلك الوقت كان السفير الاسبانى (فى انجلترا) هو دون برناردينودى ماندوزا Don Bena'rdino de Mondoza الذى أخبر فيليب بما هو مقصود ، ونصحه (أى نصح فيليب) أن يصدر الأوامر من أجل اغراق كل سفينة انجليزية على الفور، كما كان عليه أن يعدم كل بحار انجليزى يظهر على أى جانب من جوانب البرزخ فى مياه جزر الهند الغربية. وبالفعل أرسلت الأوامر على وجه السرعة ويبدو أنه كامن المستحيل على أى قرصان انجليزى أن يتمكن من الوصول الى المحيط الهادى لدرجة أن كل أهتماماتهم تركزت علي البحر الكاريبى، ولم ترسل أى إشارة بانذار الى الجانب الاخر.

وفى ١٥ من شهر نوفمبر عام ١٥٧٧ م ، أبحرت السفينة بليكان ورفيقاتها من ميناء بليموث سوند Plymouth sound ، وقد عبست لهم الاقدار عند بدء الرحلة، ففى اليوم الثانى، فاجأتهم عاصفة شتوية هوجاء عندها رفعت السفينة بليكان ساريتها الرئيسية. ثم بعد ذلك، عادوا لاعادة التجهيزات، واصلاح ماتلف. ولكن دريك تحدى تنبؤات العرافة، فقبل منتصف شهر ديسمبر كان كل شئ على مايرام مرة ثانية، فمع

تحسن الطقس والريح الجميل والمياه الهادئة، بدأوا رحلتهم على وجه السرعة ، عبر خليج بسكاى، وهبطوا مع الساحل الى جزر الكيب دى فيرد The cape de verd Island وهناك شرع دريك فى استغلال الرياح التجارية التى تهب من الشمال الشرقى. وبعد ذلك، نفذوا الى المحيط الاطلنطى، وعبروا خط الاستواء، واستقروا جنوب خط عرض ٣٣° فى قارة أمريكا الجنوبية. وبعد ذلك، مروا من مصب نهر البليت Plate. R واندهشوا عندمات وجدوا فى النهر المياه العذبة بجانب السفينة وهى على عمق ٣٢٤ قدما.

ويبدو أن كل شىء كان يسير على مايرام ، عندما اختفت سفينة المستر دوتى فى صباح أحد الأيام، وكان هو على متنها. وقد بدا أن دريك كان لديه سبباً من قبل فى عدم ثقته فى دوتى، فقد خمن فى الجهة التى اتجه اليها وأرسلت السفينة مارى جولد فى أثره، فلحقته وأعادته. ولمنع تكرار ماحدث فأن دريك استولى على مخزون السفينة وأحرقها، ووزع طاقمها علي السفن الاخرى، وأخذ المستر دوتى تحت رقابته. وفى ٢٠ من شهر يونيو، وصلوا الى ميناء سنت جولين، الواقعة على الساحل باتا جونيا Patagonia واستغرق سيرهم فى الطريق وقتا طويلا، وكان الشتاء الجنوبى قد أقبل، وكان عليهم أن يتأخروا مدة أكثر ، لكى يقوموا بعمل استقصاء معين، بسبب ترك دوتى لهم فى أثناء الرحلة، وعندما دخلوا الميناء، وقعت عيونهم على منظر عجيب وغريب، بعث هذا المنظر على التشاؤم. ففى تلك البقعة المنعزلة أو المهجورة تماما كان هناك هيكل عظمى يتأرجح على مشنقة، وقد أتت الطيور الجارحة على لحمة حتى أصبح هذا الهيكل نظيفا تماما. وكان هذا الهيكل لأحد أفراد بحارة ماجلان الذى أعدم هناك بسبب التمرد، قبل خمسين عاما. وكان هذا المصير قد وقع لرجل انجليزى تعس، كان قد ارتكب ذنبا لنفس الخطأ. فبدون نظام صارم، فانه كان من المستحيل للمشروع أن ينجح. وقد كان دوتى هذا مذنبا ، بما هو أسوأ من التمرد. وقد أخبرنا بأختصار بأن سلوكه كان يميل الى النزاع وتهديد نجاح الرحلة. وقد قيل انه اعترف، وقيل أيضا أنه قد ثبتت ضده أشياء، ولكن لا نعرف نحن شيئا عما حدث. وشكلت محكمة لدوتى من أفراد الطاقم، وحوكم على حسب ماسمحت به الظروف ، وعلى حسب العرف الانجليزى

صار مذنب !!!، وحكم عليه بالأعدام، ولم يقدم دوتى أى شكوى أو على الاقل لم يحفظ أى منها فى سجل. وقبل الاعدام، طلب القربان المقدس، وبالطبع سمح له بذلك، وقام دريك بدور قسيس الوعظ.. وبعدئذ، قبل كل منهما الاخر، وأستأذن هذا التعس - سيء الحظ - من رفاقه، ووضعت رأسه على وضع، وبعد ذلك، فصلت عن جسمه. ويمكن التخمين فقط فى الذنب أو الأساءة التى ارتكبها ولكن الريبة، والفضول حول مصيره، الذى ظهر بعد ذلك بواسطة مندوزا، فقد قيل أنه من المحتمل كان مأجورا من الأسبان، بوضوح، وعلى وجه الخصوص فقد سأل السفير الاسبانى الكابتن ونتر Winter بشأن (دوتى)، وعلمنا بحقيقة ملفته للنظر، من خطابات مندوزا، الذى لم يذكرها أى كاتب انجليزى وهو أن دريك نفسه الجلاد اختار أن يتحمل المسئولية كاملة.

وقد كتب شاهد عيان يقول " فبعد أن تم ذلك (أى الاعدام) ألقى الجنرال دريك خطبا مختلفة الى كل مجموعتنا، وحثنا على الوحدة والطاعة والاحترام لرحلتنا. ولتأكيد ذلك بطريقة أفضل سمح لكل رجل منا فى يوم الأحد التالى أن يقوم بقداس، كما ينبغى أن يقوم به أخوة وأصدقاء مسيحيون، وقد تم ذلك بطريقة مهيبة. وبعد ذلك، مارس كل رجل منا عمله برضا تام ويجب عليكم أن تتناولوا هذه الحادثة الأخيرة بتصوركم لشخصية دريك، وفكروا فيها كيفما تشاءوا.

وفى ذلك الوقت كان يصادف منتصف فصل الشتاء، وهو أكثر فصول السنة عواصف، عندئذ ظلوا ستة أسابيع فى ميناء سنت جوليان St. Julian وهناك أحرقوا قاربا شراعيا حمولته ١٢ طنا، لأنه كان صغيرا، ولا يتناسب مع العمل الموجود أمامهم، ولكن فى نفس الوقت، بقيت السفينة بليكان فقط و السفينة اليزابيث، والسفينة مارى جولد. وبعد ذلك رفعوا مرساهم فى جو عاصف وبارد. وفي ٢٠ من شهر أغسطس دخلوا مضايق ماجلان التي بلغ طولها ٧٠ ميلا، والتي كانت متعرجة وخطيرة، وفي نفس الوقت، لم يكن لديهم خرائط. وعند تقدمهم، تقدمتهم قوارب السفن التى أجرت رصدا للأحوال الجوية أثناء هذا التقدم، ومن كل جانب تدلت من فوقهم الجبال الجليدية، وتساقط الجليد الثقيل. وأحيانا كانوا يقفون من وقت لآخر، عند جزيرة لينعم الرجال ببعض الراحة وليقتلوا القليل من عجول البحر (الفقمة)، ومن طيور البطريق لكى

يحصلوا منها علي طعام طازج. فكل شئ، كانوا قد رأوه ، كان جديدا، وقفرا ومدهشا.

ولما كان عليهم أن يتلمسوا طريقهم ، فقد ظلوا ثلاثة أسابيع فى السير، وقد اعتمدوا فى وصولهم الى المحيط الهادى، على الانتهاء من أسوأ واجب (القى على عاتقهم)، واستطاعوا أن يدخلوا فى الحال الى خطوط عرض أكثر دفئا، وأكثر هدوءا. وعندما دخلوا الى المحيط الهادى تأكدوا من أنه أعنف محيط هم أبحروا فيه. وفى تلك الأثناء، هبت عليهم عاصفة غربية هوجاء عنيفة، دفعتهم ٦٠٠ ميل الى الجنوب الشرقى من مخرج القرن. وحتى هذا الوقت، كان يظن بأن تيرا دل فيوجو Tierra del fuego كانت أرضا ، طبة، تقع فى منطقة القطب الجنوبى. وكانت المضايق هى وسيلة الاتصال الوحيدة، بين المحيط الأطلنطى و المحيط الهادى. وفى ذلك الوقت كانوا قد عرفوا الشكل الحقيقى، وخاصية القارة الغربية. وعند خط طول رأس الهورن Cape Horn تهب عاصفة غربية دائمة هوجاء، حول الكرة الأرضية ، وتكون أمواجها أعلى من أى أمواج فى أى مكان آخر معروف. وقد واصلت السفينة مارى السير فى هذه المواجهة الهائجة. وأما الكابتن ونتر ، فقد عاد بسفينته اليزابيث الى مضايق ماجلان. وهناك رسى لمدة ثلاثة أسابيع، وكان خلالها يشعل النيران ليلاكى يوضح لدريك أين هو، ولكن مع ذلك، فلم يظهر دريك، مع انهما كانا قد اتفقا، على أنهما اذا افترقا، فانهما سيلتقيان على الساحل فى خط عرض فالبريسو Valparaiso ، ولكن كان ونتر جبانا، أو أنه كان خائنا مثل دوتى، ومن المحزن، أننا أخبرنا " أنه كان على عكس رغبة البحارة، فقد أبحر بعد انتهاء الثلاثة أسابيع الى انجلترا، وهناك أبلغ أن كافة السفن قد فقدت عدا بليكان، وحتى بليكان ربما كانت قد فقدت أيضا. وكان دريك حسن الظن فى ونتر، فلم يتوقع أن يهجره هكذا. وكان دريك نفسه قد اتخذ ملاذا بين الجزر التى تكون الرأس، منتظرا فصل الربيع بل أنه أنتظر جوا أكثر اعتدالا. وإستغل دريك الوقت فى عمل مسح للأراضى، كما راقب عادات المواطنين الباتا جونيين، الذين وجدهم سلالة عنيفة، والذين كانوا يسيرون عراة وسط الجليد والثلج. وطالت الأيام بدريك، وفى النهاية، أصبح البحر ساكنا. عندئذ، أبحر دريك الى فاليا ريسو، آملا أن يلتقى بونتر هناك على حسب اتفاقهما السابق، ولكن ونتر لم يظهر هناك، وبدلا من ذلك ، وجد فى الميناء سفينة

شراعية ضخمة، كانت قد أتت من بيرو. وظن طاقمها أن دريك كان أسبانيا، فرفعوا أعلامهم، ودقوا طبولهم. و أطلقت السفينة بنيرانها من الجنب، وقفز البحارة الانجليز وهم فى روح معنوية عالية على ظهر السفينة الشراعية. و استطاع غلام من بليموث - يتحدث اللغة الأسبانية - أن يطرح أرضا أول رجل قالبه، صائحا بالقول Abago Perro Down you dog down.

ولم يقتل أحد ، ولم يؤذ دريك أى أنسان كلما استطاع ذلك.

وباركوا أنفسهم برسم الصليب على صدورهم. وقفزوا من على ظهر السفينة الى البحر، وسبحوا الى الشاطئ، وتفحصوا الغنيمة، ووجدوا فى السفينة ماتقدر قيمته بـ ٤٠٠ رطل من الذهب، بالأضافة الى الغنائم الأخرى وبعد أن نهب دريك ورجاله السفينة، اتجهوا الى الشاطئ ليلقوا نظرة على المدينة. وفى تلك الأثناء، هرب كل السكان. وفى الكابينة وجدوا كأس القربان وابريقين زجاجين، و أغطية المذبح التى حولت ملكيتها الى القسيس المرافق (لهم) كى يحسن أدوات قداسه. واكتمل نهبهم، بالأستيلاء على المرشد اليونانى الذى عرف الطريق الى ليما - وعلى بضعة براميل كبيرة من النبيذ.

ومن المحتمل أنك ستقول أن هذه قرصنة فظيعة، ولكن كان من الممكن أن يكون ما فعله دريك صحيحا، وخدمة جيدة، لو كانت الحرب قد أعلنت. ومن المعروف أن جوهر الأشياء لا يغير من شكلها. جوهريا كانت هناك حرب معيتة بين فيليب واليزابيث. وحتى فيمابعد، وعندما أبحرت الأرمادا، فلم تكن هناك حرب معلنة بشكل رسمى. وتكمن الحقيقة فى الجزء الهام من المسألة فقد كان ضربة بضربة، وقد برهن الذراع الانجليزى على أنه هو الأقوى.

ولا يزال دريك يأمل فى ايجاد ونتر امامه، فواصل دريك السير بالتالى الى تاراباكاTarapaca، حيث شحنت الفضة من مناجم الأنديز Andes الى بنما. وفى تارباكا ، كان يوجد هناك خطر غير معروف (مجهول الابعاد). فقد كومت قضبان الفضة على الرصيف، وكان سائقوا البغال الذين أحضروا هذه القضبان نائمين بجانبها باطمئنان تحت أشعة الشمس. وترك سائقوا هذه البغال فى نومهم العميق. ونقلت تلك القضبان الفضية الي القوارب الانجليزية وفى نفس اللحظة، أتت قافلة من البغال، أو

من حيوانات اللاما، وهي محملة بشحنة ثانية ذات قيمة كالأولى. فكل هذا شحن في السفينة بليكان. فالسبائك التي أخذت في تاراباكا قدرت بنصف مليون من الدوكات.

ولم تصل أخبار عن ونتر بعد. وبدأ دريك يتحقق من أنه أصبح وحيدا تماما لذا نجده يعتمد على نفسه أولا، ثم على طاقمه فقط. وكان لا يوجد شئ يعمله الا أن يواصل مهمته الخطره. وكانت أريكا Arica (مدينة تقع شمال شيلى)، وهى النقطة التالية التى زارها. فقد حصل منها على ٥٠ كتلة من الفضة. وبعد أريكا، وصل الى ليما، التى كانت المحطة الرئيسية للجميع، حيث تم البحث فيها عن أكبر غنيمة، وفى ليما ، ياللحسرة! تأخروا تمام. ورست هناك اثنتا عشرة سفينة ثقيلة وبطيئة. وبقيت الأشرعة مشرعة، وكان الرجال على الشاطئ (أى أطقم هذه السفن) ولم تحتو هذه السفن على أى شئ الا على بعض صناديق من قطع العملة، وقليل من بالات الحرير والكتان.

ولكن السفينة الثالثة عشرة من هذه السفن، التى اطلق عليها الآلهة اسم " سيدة التصور" أو الفهم، والتى أطلق عليها الرجال اسم كاكا فيوجو Cacafuego – وهو اسم صعب ترجمته – كانت قد أبحرت منذ أيام قليلة الى البرزخ، وعليها كل انتاج مناجم ليما Lima لهذا الموسم. وكان ثقلها من الفضة ، وشحنتها من الذهب والزمرد والياقوت.

ويتعمد، قطع دريك حبال السفن التي تربطها بالمرساة، حتى تندفع الى الشاطئ، فلا يستطيع البحارة الأسبان اللحاق بها، ونشرت السفينة بليكان أشرعتها جميعا، و اقتفت أثر السفينة الثالثة عشر. وكان فى الأستطاعة التعرف على تلك السفينة (كاكا فيوجو) ، وذلك بواسطة شكل أشرعتها الغريبة، كما علم دريك بذلك فى ليما. وقد وعد أول رجل يراها بسلسلة من الذهب كمكافاة له. وفى اليوم الثانى رؤى شراع، ولكنه لم يكن شراع السفينة المقصودة بل كان من الجدير التوقف من أجلها. ووجد عليها ما قيمته ٨٠ رطلا من الذهب، كما وجد عليها أيضا صليبا من الذهب، مرصعا بالزمرد، ويقال أن هذا الزمرد كان كبيرا فى حجم بيض الحمامة، فاستولى دريك وجماعته على حمولتها، وبعد ذلك تركوها وشأنها. وبعدئذ واصلوا السير، وقد علمنا من القصص الأسبانية أن نائب الملك في ليما بمجرد أن أفاق من دهشته أرسل

سفنه فى مطاردة (دريك ورفاقه). وقد لحقت سفن نائب الملك فى ليما بآخر سفينة مسلوبة، وسمعوا قصصا مرعبة عن قوة سفن القراصنة. لذا عادوا للحصول على قوة أكبر ، وفى تلك الأثناء، تقدمت بليكان فى مسارها مسافة ٨٠٠ ميل. وعندما وصلت الى خط عرض كويتو Quito ، رؤيت الأشرعة الغربية لكاكا فيوجو. عندئذ طلب المرشد حقه فى السلسلة الذهبية. وهناك رأوا السفينة محملة بثمار حدائق علاء الدين Aladin . وكانت هذه السفينة تتهادى على بعد أميال قليلة أمامهم. وهناك كانت الحاجة ماسة الى الحرص الشديد عند الأقتراب منها، فلو عرفت السفينة كاكا فيوجو هوية السفينة بليكان، فلربما تندفع نحو اليابسة، وبذلك يفقدها دريك. وكان ذلك بعد الظهر وكانت الشمس لا تزال فوق الأفق، ولكن دريك عقد العزم على أن ينتظر حتى الليل، وحتى يهب النسيم من البر الى البحر، كما كان يحدث دائما فى المناطق الاستوائية.

وأبحرت السفينة بليكان بسرعة تبلغ ضعف سرعة كاكا فيوجو، عندئذ ملأدريك قرب نبيذه الفارغة بالماء، وعلقها فى مؤخرة السفينة كى يوقفها. وظنت السفينة الطريدة كاكا فيوجو، بأن سفينة تجارية – عليها حمولة ثقيلة – تتبعها ، وترغب فى صحبتها، فى رحلة موحشة مثل هذه الرحلة. عندئذ ، تباطأت السفينة كاكا فيوجو فى سرعتها، و انتظرت حتى تلحق بها الأخيرة. و أخيرا غربت الشمس فى المحيط، وتلاشى الضوء الوردى من على ثلوج الأنديز. وعندما اختفت السفينتان عن الأنظار من الشاطئ سحبت القرب، وهب نسيم الليل وبدأ الماء يتموج تحت مقدمة السفينة بليكان، وبسرعة تم اللحاق بالسفينة كاكا فيوجو، وعلى مسافة بطول حبل، ارتفع صوت من السفينة بليكان ينادى بوضع مقدمة السفينة كاكا فيوجو فى مواجهة الريح. ولم يفهم القائد الاسبانى هذا الأمر الغريب، لذلك واصل طريقه. وبعدئذ، اسقطت طلقة قائم الشراع هذه السفينة أيضا، فجرح القائد الأسبانى نفسه، و أصبحت السفينة " سيدة الفهم" وحمولتها الثمينة تحت سيطرة القرصان دريك. ونقل على الفور كل ما فى هذه السفينة (كاكا فيوجو) حتى البحارة الأسبان أنفسهم الى سفينة القرصان (دريك). ووجهت كل السفينتين مقدمتهما الى البحر. وعند الفجر لم يكن هناك أثر لليابسة، وبدأ دريك فى فحص الغنائم، و لم يستطع التوصل الي معرفة القيمة الكاملة للشحنة، فاذا

كان هناك قائمة بهذه الأشياء الثمينة فقد اتلفت ، ومع ذلك فقد كانت الأرقام الدقيقة معروفة فقط لدريك وللملكة اليزابيث. ونشر جدول أو قائمة تعترف بوجود عشرين طنا من السبائك الفضية و١٣ صندوقا من قطع النقود الفضية، ومائة رطل (١٠٠ رطل) من الذهب على ظهر السفينة كاكا فيوجو، علاوة على وجود كتل رخام من الذهب غير محددة الكمية، ومخزون كبير من اللؤلؤ Pearls والزمرد Emeralds والماس Diamonds وأثبتت الحكومة الاسبانية أن خسارتها بلغت مليونا ونصف المليون من الدوكات، هذا بخلاف المتعلقات الشخصية، و لايمكن حصر مجموع ماتم الأستيلاء عليه.

وكان دريك - كما قيل لنا - راضيا تماما. واعتقد أنه لا يعد من الحصافة ولا من الضرورى المكوث فى المناطق المجاورة أكثر من اللازم، فاتجه شمالا و كانت جميع أشرعته مشرعة، وبرفقته غنيمته ، والقبطان والاسبانى المدعو سان جوان دى أنتو Sanjuan de Anton، الذى نقل الى ظهر السفينة بليكان للعناية بجراحة. وبقى كضيف لدى دريك لمدة أسبوع، وأرسل هذا القبطان تقريرا عما لاحظه الى الحكومة الاسبانية. وفى الوقت نفسه، كان هناك واحد من جماعة دريك (بحارة دريك) على الأقل يتحدث اللغة الاسبانية بطلاقة، فأخذ القبطان الاسبانى سان جوان دى أنتون فى جولة فى انحاء السفينة بليكان. وقال سان جوان دى أنتون أن هذه السفينة يبدو عليها علامات الخدمة الشاقة، ولكنها مازالت فى حالة جيدة، وبها أسلحة وفيرة، ولديها مخزون من الحبال، والمعاول، وأدوات نجارة من كل نوع. وهناك كان يوجد ٨٥ من الرجال على ظهر هذه السفينة. كان خمسون منهم من رجال الحرب وكان الباقى من الشباب الصغير السن الذين كانوا يمثلون بحارة السفينة وكان دريك نفسه، يعامل باحترام كبير من قبل هؤلاء الأشخاص جميعا. فدائما كان يقف حارس عند باب كابينته. وكان دريك دائما يتناول غذاءه على أنغام الموسيقى بمفرده، ولم يحط أى غموض بمغامرات بليكان، و أظهر القس الى سان جوان الصليب المرصع بالزمرد، وسأله اذا كان هو يؤمن بجدية بأن هذا هو الله. وسأل سان جوان دريك كيف قرر أن يعود الى أرض الوطن.عندئذ عرض دريك على هذا القائد الأسبانى الكرة الأرضية، وعليها ثلاثة مسارات ممتدة فكان هناك الطريق الذى أتى منه. وهناك أيضا الطريق الذى يمر بالصين ورأس الرجاء

الصالح. وهناك كذلك طريق ثالث لم يوضحه بعد. وتساءل سان جوان بالقول، هل كانت انجلترا وأسبانيا فى حرب ؟ فأجاب دريك، بأن لديه تفويض من الملكة يقضى بأن كل مايضع يده عليه يكون ملكا للملكة، وليس ملكا له. وعندئذ، أضاف دريك بأن نائب الملك فى المكسيك قد سلبه وقريبه غنائمهما، وهو الآن يقوم بتعويض خسارته الجسيمة. وقال دريك واضعا على موطن الداء " أنا أعرف أن نائب الملك سيرسل اليك لتخبره عن خطواتى، فأخبره بأن من الأفضل له الا يقتل مزيدا من الانجليز، وأن يصفح عن هؤلاء الذين وقعوا فى قبضته فاذا هو أعدمهم (أى المغامرين الانجليز) فانا سأعدم ٢٠٠٠ الفين من الأسبانيين، وأرسل له رءوسهم.

وبعد تأخير دام أسبوعا، عاد سان جوان، ورجاله بالسفينة كاكا فيوجو، وهى فارغة.، وقد سمح لهم بالعودة. وفى طريق عودتهم قابلوا (دريك وجماعته) سفينتين، كانتا قد ارسلتا من ليما لمطاردتهم، ودعمتا بسفينة ثالثة من بنما. وهى جميعها مسلحة تسليحا كاملا، وطبقا لرواية هذه السفن، فقد جاءوا خلف بليكان، ولكنهم كانوا يخشون دريك كشيطان مثلما خشاه لوب دى فيجا. واعترفوا بأنهم لم يجرؤا على مهاجمته. ومرة ثانية عادوا ليطلبوا المزيد من المساعدة، وقد نعتهم نائب الملك الأسبانى فى المكسيك بالجبن، واعتقل الضباط ، وارسل آخرون بأوامر حاسمة، تقضى بالقبض على دريك، حتى ولو كان ابليسا .

ولكن فى ذلك الوقت، فان زائرهم (أى دريك) – موضوع الحديث كان قد هرب فلم يعرفوا عنه شيئا، وربما قد انتابهم السرور عندما فشلوا فى ايجاد شئ عنه.

وعلى الفور، أرسلت بعثة مستعجلة عبر الأطلنطى الى فيليب، وأرسل أسطول من قادش كى يراقب مضايق ماجلان، وأرسل اسطول آخر كى يراقب البحر الكاريبى. وكان من المعتقد أن الطريق الثالث الذى سيأخذه دريك ليس طريقا بحريا بالمرة، حيث أنه قصد أن يغادر السفينة بليكان فى دارين Darien ويحمل أسلابه عبر الجبال، ثم يقوم ببناء سفينة فى هندوراس، كى تقله الى أرض الوطن. وكانت فكرته الواقعية، أنه من الممكن أن يحدد الطريق الواقع الى الشمال من المدخل الشرقى، الذى اعتقد كل من فروبشر Frobisher، وديفس Davis بأنهما قد وجداه. ووقف فى اتجاه كاليفورنيا

ملتقطا من وقت لآخر، السلع الصينية التجارية ، المتمثلة فى الحرير والخزف، والذهب والزمرد. وكانت المياه العذبة ضرورية فى هذا الوقت، فقد حصل عليها من جوتولكو Guatulco.

وكانت خطواته سريعة ومبهجة. وفى جوتو لكو هذه ، (مدينة أسبانية) كان كل من المدير والقاضى عاقدين جلسة لمحاكمة فوج من الزنوج. وفى نفس تلك اللحظة ظهر طاقم أحد القوارب الانجليزية فى المحكمة. فقد قام هذا الطاقم الانجليزى بتقييد أيدى وأقدام كل من المدير والقاضى، وبعد ذلك تم نقلها الى السفينة بليكان، حيث بقوا بها كرهائن حتى يتم ملئ قرب المياه (اللازمة للانجليز).

ومرة أخرى، وفى اتجاه الشمال، قابل دريك سفينة حربية شراعية كانت تحمل حاكما جديدا للفلبين، فقام دريك باراحة الحاكم من صناديقه ومن مجواهرته. وعندئذ، قال أحد أفراد المجموعة " أن قائدنا لا يفكر الا من جانب الأضرار الخاصة التى تلقاها من الأسبان، وكذلك الأهانات والاحتقارات التى وجهوها لوطننا وأميرنا . وهو بذلك يشعر بالرضا والرغبة فى الانتقام، وحيث إنه يعتقد بأنه جلاله الملكة ستكون راضية عن خدماته، فانه بدأ يفكر فى أفضل الطريق الى الوطن ". وكانت الضرورة الأولى هى الفحص الشامل للسفينة بليكان. وقبل أيام التغليف بالنحاس، كانت النباتات المائية تنمو بكثافة تحت الماء، و كانت الحيوانات البحرية والقشرية تتجمع فى مجموعات كبيرة، وتعوق السرعة، و كانت الديدان البحرية تنفذ الى الألواح الخشبية وكانت المسافة بين السفينة بليكان وبين بليموث سوند ٢٠ الف ميل فى ذلك الوقت.

ولم يكن دريك بالرجل المتكاسل، فقد استمر فى سيره متتبعا طريقه الشمالى حتى ترك أبعد مستوطنة أسبانية جهة الجنوب، وبعد ذلك دخل خليج كانيوس فى كاليفورنيا، وهناك القت بليكان بمراسيها على الشاطىء وأقام دريك ورشة حدادة، كان بها كير. وبعد ذلك عاود رحلته فى ١٦ من شهر أبريل عام ١٥٧٩ م، بعد أن زودت سفينته بحبال وأشرعة جديدة. وسار بمحازاة الساحل حتى أووريجون Oregon. وأصبح الهواء باردا مع أن الرحلة كانت فى فصل الصيف. وقد شعر الرجال به لبقائهم مدة طويلة فى المناطق الاستوائية، حتى وهنت صحتهم. ولكن لم تبد أية علامات أو دلائل

لطريق. واذا كان هناك طريق، فان دريك لاحظ بأنه من الممكن أن يكون طريقا طويلا، وضمن بأن مضايق ماجلان مراقبة من أجله. لذا قرر اتخاذ طريق رأس الرجاء الصالح في الوصول الى أرض الوطن. وكان قد وجد على السفينة الفلبينية خريطة لجزر الأرخبيل الهندىIndian Archipelago وبمساعدة هذه الخريطة وبمهارته، أمل في ايجاد طريقه. ومرة أخرى، هبط الى سان فرانسيسكو San Fraancisco ونزل هناك، ووجد التربة مليئة بالذهب. وهناك أقام معرفة شخصية مع الملك الهندى الذى كره الاسبان، والذى رغب أن يصبح من ضمن أفراد الرعية الانجليزية. ولكن دريك لم يكن لديه وقتا ليضم أراض جديدة. ولكى يتجنب الطريق من مكسيكو الي الفلبين، اتخذ طريقا مباشرا الى ملقا Moluccas. ومرة ثانية، ظهر عند جزيرة سيليبس Celebes وهنا، وللمرة الثانية، دخلت السفينة بلكيان الى الحوض ونظفت. وقد أمضى طاقمها شهرا للراحة بين الحشرات القاتلة Fireflies وبين خفافيش Vampires الغابة الاستوائية. وبعد ذلك، غادر دريك ومن معه سيليبس، ودخلوا الى أكثر أجزاء الرحلة خطورة، فقد شقوا طريقهم بين الشعب المرجانية، وبين الجزر المنخفضة التى ترى بالكاد فوق سطح الماء. ووضح فى خريطتهم المخرج الوحيد الذى يؤدى الى المحيط الهندى، والذى يتمثل فى مضايق ملقا. ولكن خمن دريك بحق أنه لابد وأن تكون هناك فتحة أكثر قربا، وتلمس طريقه، بحثا عن هذه الفتحة التى تقع فى منطقة على طول ساحل جاوا Java. وعلى الرغم من كل هذا الحرص، الاأنه وجد نفسه علي حافة الدمار. وفى أحد الأمسيات أدركه الظلام، فسمع صوت احتكاك أسفل بليكان. وفى لحظة أخرى، اندفعت السفينة بشدة وبسرعة على سلسلة من الصخور.

وكان نسيم البحر خفيفا، والمياه هادئة. وكان من الممكن الايسمع العالم المزيد عن فرانسس دريك. وبقيت السفينة بليكان دون حراك حتى الفجر. وعند الفجر، كان الوضع لايدعو الى فقدان الأمل تماما، فإن دريك نفسه، أظهر كل الصفات الخاصة بالقائد العظيم، فقد تخلى عن المدفع والحمولة التى لم يكن فى حاجة اليها. وبعد الظهر، تغيرت الريح، وارتفعت السفينة التى خف حملها، من على الصخور وانقذت. ولم يصب هيكل السفينة بأى تلف وذلك بسبب الاصلاحات التى تمت في كاليفورنيا، فكل من كان

على ظهرها قد تصرفوا تصرفا جيدا، باستثناء المستر فلتشر Mr.Fletcher القسيس.

فالمستر فلتشر هذا بدلا من أن يعمل كرجل دين، نجده لايكف عن الكلام عن العقوبة الالهية بسبب اعدام دوتى Doughty.

وتغاضى دريك عن ذلك مؤقتا. وبعد مرور أيام قليلة مروا من مضايق سندا Sunda، حيث التقوا بالمحيط الكبير الواسع، عندئذ عرفوا بأن كل شيء أصبح على مايرام. وهناك كان يوجد متسع من الوقت لمناداة المستر فلتشر لمحاسبته، فلم يكن من عمل القسيس أن يثبط من عزم وهمة الرجال وقت الخطر، لذا شكلت محكمة كى يمثل فلتشر أمامها لمحاكمته. وكان على ظهر سفينته قبودان انجليزى يمثل الملك، وهو فى نفس الوقت يمثل رأس الكنيسة، بل ويمثل أيضا رأس الدولة، وأحضر المستر فلتشر الى أعلى نقطة فى مقدمة السفينة حيث كان يجلس دريك على صندوق، توضع فيه مهمات بحرية، وهو ممسك فى يديه من البانتوفلس Pantoufles (الخف)، وقررت المحكمة طرده من كنيسة الله. وأنه سوف يسلم الى الشيطان كعقاب لجسده، وتركه مقيدا من أحد، أرجله فى حلقة مثبتة ليندم على جنبه.

وعلى وجه العموم، فلم يكن فى الامكان أن يستمر هذا العقاب الهزلى مدة طويلة. ففى اليوم التالى، نال القس التعس غفرانه (أى غفران دريك) وعاد ليمارس عمله وواجبه. وبعد ذلك، واجهت السفينة بليكان المزيد من المغامرات فكانت تسير فى طقس صاف وجميل حول رأس الرجاء الصالح. وفى سيراليون، توقفت للحصول على المياه. وأخيرا، أبحرت وهى منتصرة الى ميناء بليموث، حيث ظن أنها قد فقدت. فكانت أول سفينة شقت طريقها حول الكرة الأرضية. وكان الكابتن ونت قد وصل الى الوطن الأم قبل ذلك بثمانية عشر شهرا، ولكن لم يبلغ شيئا. وكانت أخبار الأحداث فى الساحل الامريكى قد وصلت الي انجلترا بواسطة مدريد. وكان السفير الأسبانى (فى انجلترا) غاضبا. لأنه من المعروف أن الأسطول الأسبانى قد أرسل للبحث (عن دريك) وستنشأ التعقيدات والمشاكل، اذا عاد دريك الى الوطن، معه غنائمه أو اسلابه، فقد أمل السياسيون الجبناء أن يكون دريك قد غرق فى قاع المحيط. ولكن ها هو الآن، قد وصل بالفعل الي انجلترا، ومعه فدية الملك.

ان التعاطف الانجليزى مع مغامرات غير عادية، كان من الدائم لايقاومها. وقد دوى التصفيق الحار فى أنحاء الوطن، فاليزابيث - بكل احساس فيها - كامرأة انجليزية، تعاطفت مع رعاياها، وأرسلت فى طلب دريك الى لندن، وجعلته يقص عليها قصته أكثر من مرة.

ولم تمل اليزابيث من السماع اليه. ونتيجة للاهانة التى وجهت الى أسبانيا، فان فيليب قد أشعل عصيانا جديدا فى ايرلندا، هذا العصيان الذى كلف الملكة الكثير من الأرواح والأموال، وإن طلب فيليب تعويضا من انجلترا من أجل العدل، كان يضحك الالهة.

وهكذا فكرت الملكة. ولكن لسوء الحظ، لم يفكر هكذا بعض أعضاء مجلسها، وبخاصة اللورد بورلى Burghley، الذى كان من بين هؤلاء الاعضاء. وقد صمم منتورا، أنه يعاقب دريك، وأن يتخلى عن أسلابه، والاسوف يعلن للعالم بأن اليزابيث حامية للقراصنة، بل معترفة بها. وكما هو الحال لفان بولى اعتقد أنه لابد من تقديم بعض التسهيلات. فكانت (اليزابيث) تكره أن ترد من كل قلبها (باخلاص) مثل فلستاف* Falstaff، كما لم يكن لديها أدنى غرض من أن تلتقى برجل انجليزى شجاع الى الذئاب، هذا الرجل الذى دوى العالم بالتصفيق له بسبب انجازاته. واضطرت اليزابيث الى السماح للكنز بأن يسجل عن طريق موظف مسئول. وكان منتورا قد حكى هذه الرواية، ولكن رغم ذلك، فانها (اليزابيث) قررت أن تحتفظ لنفسها بنصيب من هذه الغنائم، كما قررت كذلك بالايحرم دريك ورجاله الشجعان من مكافأة أيضا.

وكان ينبغى على دريك أن يحصل لنفسه على عشرة آلاف جنيه على الأقل وكان عملها (اليزابيث) هذا ينبع من مميزاتها البارزة. ومن الانصاف، القول بأنه لم يكن هناك شك على الاطلاق فى مجريات الأمور بينها، وبين فيليب، الذى حاول انتزاع عرشها وقتلها.

ولاتزال السفينة بليكان رأسية فى بليموث وعلى ظهرها السبائك الذهبية والمجوهرات التى لم تمس بعد، وتقرر أن تنقل الشحنة إلى البروتسجل. وأوكلت الملكة هذا

---

* فلستاف يعنى شخصية فى احدى قصص شكسبير (المترجم).

العمل الى أدموند ترميان أن تنقل الشحنة إلى Edmund Tremayne من سيدنهام Sydenham، الذى كان قاضيا فى المنطقة المجاورة وكانت اليزابيث قد اعتمدت عليه. وأخبرته بالايكون فضوليا وسمحت الملكة لدريك أن يعود وينظم الشحنة قبل أن يتم فحصها. ودعنى الآن أقرأ لك خطابا من تريميان نفسه الى السير فرانس ولسنجهام Sir Francis Walsingham، وقد جاء فيه: " لكى أوضح لك، كيف بدأت أنا مع المستر دريك، فأنا لم أحاول الدخول فى تفاصيل لمعرفة المزيد عن قيمة الكنز أكثر مما علمنى اياه. وفى الحقيقة أقنعته بعدم الافصاح أكثر من الضرورى ورأيته مأمورا من لدن الملكة بألا يفشى الحقيقية الى أى شخص حى. وأنا دونت ما أفشاه لى فقط، ووزنت وسجلت وحزمت مارأيته. وأما بخصوص أمر الملكة عن العشرة آلاف جنيه، فقد وافقنا على أن يأخذها من الجزء الذى أنزل الى البرسرا، على أن ينقل من مكانه قبل أن أحضر أنا وأبنى هنرى، لوزن وتسجيل ما تبقى. وهكذا فقد أنجز هذا العمل، ولم يعرف أى مخلوق أى شىء عن ذلك سواى. وكما تدرك أنه لم يؤتمن على هذا السر الاسواى (الاأنا).

وأنا لم أجد شيئا اتهم به المستر دريك، حيث أنه لم يكن لديه شىء يتهم به. ويجب أ ن أقول أيضا، بأن دريك كان ميالا الى تقديم شىء نفيس الى صاحبة الجلالة. فضلا عن ذلك، وفى واقع، الأمر فانه قد سعى للحصول على مكافأة لكل الرجال الذين كانوا يتعاملون معه. واستطيع أن أقسم بأن دريك فضل أن يقلل من نصيبه، على ألايترك هؤلاء الرجال غير راضين. وأما بخصوص بحارته، وأتباعه فقد رأيت بأعينى، وسمعت بأذنى علامات النية الطيبة هذه، حتى اننى لاأستطيع أن أرى، أن أيا منهم سيترك الجماعة فكل طريق سار فيه ظهر، بأنه رجل شجاع بدرجة كبيرة، ولكن حدث أن رأيت بعض التفضيلات، الخاصة باطلاق سراح جماعته. وهذا يؤكد لى بأنه رجل ذا حكم سديد، وأنه يلتزم بأحكام الله وكتابه. ولذا فان ممارساته على مثل هذه الاسس لن تكون الا ناجحة.

ونتيجة لذلك كله فقد استقطع من الاسلاب ما يساوى ما كان يمتلكه كل من دريك وهوكنز، التى سلبت منهما غدرا فى سان جوان دى ألوا، بالاضافة إل بعض الانصبة

الاخرى السخية، نظير تكاليف استعادة ما خسراه. وأعطى جزءا مما تبقى الى مندوزاً فهذا الجزء لم يذهب اليه (أى الى مندوزا أو الى فيليب)، ولكنه وضع فى القلعة حتى تستقر مطالب فيليب، والملكة، لدى كل منهما الآخر. وكان ذلك يعنى بالنسبة الى اليزابيث ثمن شيء واحد، هو ثمن الثورة فى ايرلندا. والتقى المندوون، وتناقشوا، وجلسوا معا، ولكن دون جدوى، ومع ذلك استمروا فى المناقشة حتى مجيء الارمادا. بعد ذلك انتهت المناقشة، وانتهى كل حديث عن التعويض. وفى غضون ذلك اختلفت الآراء حول أعمال دريك، وتنوعت، فكانت الملكة اليزابيث قد استمعت الى مغامراته بطريقة فيها سحر، وكانت قد أرسلت في طلبه الى لندن، مرة ثانية، ومشت معه علانية فى أنحاء الحدائق والبساتين، وأعطته عشرة آلاف جنيه ثاينة. وأرسلت السفينة - بليكان الى دبتفورد Deptford وأعد على ظهرها مأدبة طعام ملكية، وحضرتها اليزابيث، ورقى دريك الى مرتبة فارس، وتذمر مندوزا بسبب الكنز الموجود فى القلعة، وطلب أن يعطى اليه، ورغب وولسنجهام فى منح هذا الكنز الى أمير الأورانج. ورأى ليستر Leicester وجماعته فى المجلس - الذين كانوا قد ساعدوا فى تجهيز دريك - أنه ينبغى أن يقسم هذا الكنز فيما بينهم. واذا صدق مندوزا، فانهم سيعرضون عليه أن يقتسموا الكنز معه اذا انضم اليهم فى اتفاق خاص. ويقول مندوزا انه ليس لديه مانع من أن يعطى ضعف هذا المبلغ فى مقابل معاقبة هذا اللص دريك. وفكرن اليزابيث أنه ينبغى أن يظل هذا الكنز كضمان يحتفظ به فى (لعبة الصراع بينها وبين فيليب). وفى الواقع، ان الكنز ظل بعد الاستقطاعات التى رأيناها قد حدثت.

وكان دريك كريما فى اغداقه فى هداياه، فكان قد أهدى الى الملكة صليبا من الماس، وتاجا مرصعا بالزمرد الساطع، ومنح بروملى Bromley قاضى القضاة Chancellor طبقا من الفضة يساوى ٨٠٠ دولار، كما منح الكثير و الكثير الى الاعضاء الآخرين فى المجلس. وكانت الملكة قد ارتدت تاجها فى عيد رأس السنة New Year's dayوكان قاضى القضاة هذا، راضيا بأن يزخرف البوفيه الخاص به على حساب الملك الكاثوليكى. ولكن مع ذلك، فقد رفض كل من برولى، وسوسكس Sussex الهدايا التى قدمت لهما، وقالا:انهما لا يستطيعان أن يقبلا هدايا نفيسة كهذه، من رجل صنع ثروته

من السلب.

وعاش بورولى ليعرف أكثر عن القيمة التى كان عليها دريك. وما الذى نحن عليه فى تلك الأثناء. فنحن ننظر الى تاريخنا الماضى، لنتكلم عن هذه الاشياء، القرصنة فى القتال، الاستيلاء على أموال جيش ألفا، تجربة هوكنز الجادة مع ملكة اسكتلندا، ومع الملك فيليب، أو العمل المدهش الذى قام به السير فرانسس دريك فى سفينة لا تزيد عن كونها يخت من الدرجة الثانية.

وقد وصف جميع المؤرخون، هؤلاء الرجال بالعزم والجسارة، والمهارة المحترفة، ولكن برولى على سبيل المثال، اعتبر كل مايفعله هؤلاء أعمال قرصنة، وليست بأفضل من الاعمال التى قام بها مرجان. وكيد Margan and Kid وهكذا، فقد صاح بذلك الكاثوليك الذين رغبوا فى تدمير اليزابيث، وكذلك صاح لوب دى فيجا، والملك فيليب، وبلغة أكثر دقة يكرر الفيلسوف المعاصر هذا الرأى غير الملائم. ويبتهج بأنه يعيش فى عصر أصبحت فيه ممارسة مثل هذه الأعمال مستحيلة. ويعتذر بخفة عن تجاوزات هذا العصر الناقص. وهل لى أن أذكر الفيلسوف بأننا نعيش فى عصر فيه أشياء أخرى، أصبحت لحسن الحظ مستحيلة. فلو هو وأصدقائه كانوا معرضين لمثل هذه الأعمال عندما يذهبون فى رحلات صيفية، ويختطفون بواسطة أفراد محاكم التفتيش، ويجلدون، ويحرقون وهم أحياء، أو يرسلون على ظهور سفن كبيرة للعمل عليها. عندئذ، قد يفكر بطريقة أكثر رفقا فى التدابير التى قد تدفع هذه المؤسسة المحترمة، وسادتها الى أن تعامل الفلاسفة باعتبار أعظم.

ومرة أخرى، نتذكر تحذير دكتور جونسون Dr.Johnson الذى قال فيه كن حذرا من الرياء، لأنه فى ذلك القرن الجاد جدا كان الناس فيه أكثر انشغالا بالحقائق عن الاشكال الخارجية للأشياء، ففى هذا القرن كان الملك (الأسبانى) يشجع التمرد فى انجلترا، وايرلندا، ويحرق أعدادا كبيرة من البحارة، والتجار الانجليز التعساء فى اشبيلية، فانه بهذا كله قد أعطى، اليزابيث مائة فرصة كى تعلن عليه الحرب.

وهكذا فإنه فى ذلك الوقت، كان هناك كثيرمن الرعايا الكاثوليك متمردين. لذلك، وفى حالة كتلك، لم يكن فى استطاعة اليزابيث أن تبدأ صراعا كهذا. بل كان عليها أن

تستخدم كل ماتمتلكه من موارد، وكان من أفضل هذه الموارد سلالة من الرجال الذين لم يخشوا أن يعملوا من أجلها – مخاطرين فى سبيل ذلك بحياتهم – فهم يفعلون مايفعله الضباط عند اعلان حرب رسمية. فهؤلاء الرجال هم الذين هزموا عدو الوطن، بموارد استولوا عليها من العدو نفسه، وهم الذين كرسوا أنفسهم (لخدمتها)، واستغنوا فى سبيل ذلك عن أمنهم الشخصى الذى منحته الملكة اياهم. وقد يصل بهم الأمر الى أن يصبحوا أسرى حرب، وبكل تأكيد، فانهم سيواجهون الاعدام شنقا، اذا هم وقعوا فى الاسر، فبدون شك وبحرفية قانون الأمم، فان كلا من دريك وهوكنز كانا قراصنة من نفس نوعية قراصنة أوليسزس Ulysses، وهم كذلك كانا من نفس قراصنة النرويج. ولكن أوربا بحسن ادراكها نفذت من الشكل الى الجوهر، الذى يخفيه هذا الشكل، كما أن غريزة أبنائها (أوربا) أعطتهم مكانا بين الأبطال المحاربين من أجل انجلترا، التى لا أعتقد أن الحكم النهائى للتاريخ سيبعدهم عن هذه المكانة.

الفصل الخامس

اطراف النزاع فى الدولـــة

فى ٢١ من شهر ديسمبر ١٥٨٥، حدث مشهد ملفت للنظر فى مجلس العموم البريطانى The English House of Commons. فبعد محاولات عدة فاشلة أمكن التخلص بنجاح من أمير الأورانج فى (الأراضى المنخفضه) وعلى وجه التحديد، كانت هناك مؤامره جديدة، قد اكتشفت، كان الهدف منها القيام بعصيان كاثوليكى فى انجلترا، هذا العصيان الذى كان مدعوما بغزو خارجى، كان الهدف منه ايضا خلع اليزابيث عن عرشها، ومنح تاجها الى مارى ستيوارت. وقد أشار دوق الفافى زمن مؤامرة ريد و لفى Ridolfi، بأن اغتيال ملكة انجلترا، يمثل خطوة أولية مرغوب فيها. اذا تم هذا الغزو بنجاح. ولما كان موضع وراثة العرش لم يتحدد بعد، فقد ظن بأن الارتباك سيشل حركة المقاومة وأن تأييد حزب انجليزى قوى لادعاءات مارى ستيوارت سوف يضمن لها نصرا سهلا اذا ازيحت اليزابيث. وكان هذا شرطا لا مفر منه.

وفى النهاية، أصبح من الواضح أنه طالما كانت الملكة اليزابيث على قيد الحياة، فإن فيليب لن يوافق عن طيب خاطر على نزول جيش اسبانى على الشواطئ الانجليزيه. وفى ذلك الوقت انتشر بين الكاثوليك الأكثر تحمسا – وخاصة اللاجئون منهم فى سمنرى Seminary عند الريمس – خبرا يقضى بأن تاجا سماويا سيمنح لأى فارس روحانى يستطيع أن يزيح هذه العقبة.

ولم تكن هذه المغامرة نفسها مغامرة صعبة لأن اليزابيث كانت مدركة للخطر المحدث بها، و لذا لم ينتابها الخوف. كما رفضت أن تفقد ثقتها فى الكاثوليك فكان منزلها مملوءا بهم. وقد سمحت لأى فرد أن يحضر اليها من هؤلاء الذين يرغبون فى مقابلتها. وقد أخذ الدكتور بارى Pary – عضو البرلمان والمدعوم بتشجيع من الكردينال أف كومو، وأيضا من الفاتيكان – على عاتقه أن يخاطر بحياته كى يفوز بالجائزة الرائعة، فتقدم بنفسه الى القصر، وزود بالأسلحة المناسبة و تظاهر بأنه لديه معلومات على جانب من الأهمية سيقدمها " للملكة" ، وقد قابلته الملكة عدة مرات. وفى مرة من المرات، كان " الدكتور بارى" معها بمفرده فى حديقة القصر، وكان على وشك أن يقتلها و لكنه قال لقد انتابته الرهبة لأن ملامحها (اليزابيث) كانت شبيهة بملامح

أن يقتلها و لكنه قال لقد انتابته الرهبة لأن ملامحها (اليزابيث) كانت شبيهة بملامح والدها.

واكتشف أمر بارى وشنق، ومع ذلك فقد رفضت اليزابيث أن تأخذ الحذر. وكانت هناك أعداد كبيرة تتوق الى الحصول على شرف ازاحة اليزابيث، و بخاصة عندما كان من السهل الاقتراب منها. وقد ساد الشعور بأن واحدا على الأقل سوف ينجح فى ذلك. وقد كون الجزء المخلص من الأمه بقيادة اللورد بورغلى Lord Burghley جمعية كان الهدف منها حماية حياة (الملكة) لأنها كانت مهمة جدا بالنسبة لهم. ولكن مع ذلك وبوضوح، فان الحياة لم تكن ذات أهمية بالنسبة لها. وقد تعهد أعضاء هذه الجمعية (أو الهيئة) بأن يطاردوا حتى الموت، كل أساليب الأشخاص الذين قد يحاولون، أو يوافقون على أى شئ لايذاء شخصية جلالتها. و لم يسمح أبدا ، أفراد هذه الجمعية أيضا ، أو يرضخوا لأى وريث مزيف، قد يقدم هو أو أحد أعوانه على القيام بمثل هذا العمل البغيض، فكان من الواجب أن تتم ملاحقة مثل هؤلاء الأشخلص حتى الموت، بل و تعريضهم لأقصى أنواع الانتقام. وكان هذا الاتفاق فى صيغته الأولى، يتمثل فى خلق يأس واضح، بحيث يتضمن ظروفا يختفى فيها النظام. ومن الملفت للنظر أن نلاحظ أن المحامين الذين كانوا بصفة عامة لديهم اهتمام بمارى ستيوارت نجدهم فى ذلك الوقت هم الذين يعترضون بشدة. وبعد ذلك كان هناك احساس عام بالغضب فى كل مكان من المملكة. وقد دعى البرلمان ليطرح عليه القانون الذى سيكفل نفس هذا الهدف. وعلى أية حال، فان مارى ستيوارت، لم تستنفد من الجرائم، سواء أكانت جرائمها، أو جرائم مؤيديها. وقد تقرر انه فى حالة غزو المملكة، أو اندلاع أى تمرد مثار بواسطة أى شخص أو من أجل أى شخص، يدعى الأحقية فى التاج بعد موت الملكة فان مثل هذا المدعى يحرم من هذا الحق الى الابد. وفى حالة اغتيال الملكة فان الحكومة فى هذه الحال تؤول الى لجنة من النبلاء، ومعها مجلس خصوصى بحيث يقومان باستقصاء تفاصيل الأغتيال، و اعدام مرتكبيه و شركائهم. وفى تلك الأثناء كان هناك تلميح له مغزاه بأن على كل من الجزويت والكهنة اللاهوتيين أن يغادروا الوطن على وجه السرعه خوف من عذاب الموت.

وكان مجلس العموم البريطاني يجيش انفعالا ء ـما أرسل القانون الى النبلاء كى يعبروا عن مشاعرهم الملتهبة. و اقترح السير كرستوفر هاتون Christopher Hatton بأنه ينبغى عليهم قبل أن ينفرطوا أن ينضموا اليه فى صلاة من أجل سلامة الملكة، فنهض ٤٠٠ أربعمائة عضو، وركعوا على أرض مجلس العموم، ورددوا كلماته من بعده جملة جملة. فماذا عن الجزويت، والكهنة اللاهوتيين. لقد تمت محاولات لتبرير المؤامرات التى تحاك ضد اليزابيث، مما سمى أو عرف بإضطهاد المتحمسين الأبرياء الذين قدموا من الرمس Rheims لكى يعظوا الشعب الأنجليزى بالعقيدة الكاثوليكية. وقد أكثر كتاب ومتحدثون معروفون من الكلام عن اعدام كامبيان Campian، و أصدقائه كعمل أسوأ من احتراقات سميث فيليد، وبتأييد واعجاب عام، اعترف حديثا بأن هؤلاء الشهداء قديسون وان مهمتهم كما يقال، كانت مهمة دينية بحته. أفا لم تكن هى هكذا ؟ كان النص الأساسى فى العقيدة التى أتوا بها كى يعلموها ينص على واجب الطاعة للبابا، الذى كان قد حرم الملكة من الكنسية، والذى كان قد أحل لرعاياها عدم الولاء لها، بل سمح لهم أن يتظاهروا بالولاء لها حتى وصول جيش الخلاص الكاثوليكى. وكان البابا قد أرسل وقدا رسميا الى أيرلندا ليحث أو ليحرض على القيام بثورة دموية.

ولكن ماذا كان عن هؤلاء الكهنة اللاهوتيين، وماذا كان هدفهم ، فسوف يظهر ذلك جليا من تقرير عن حالة انجلترا، وكان هذا التقرير قد كتب – ليستخدمه الباب و فيليب – بمعرفة الأب بارسونز Father Parsons الذى كان هو نفسه على رأس البعثة التى يرجع تاريخها الى عام ١٥٨٥ م. وتقريبا ، كان هذا التقرير متزامنا مع المشهد الذى حدث فى البرلمان والذى قد وصفته أنا من قبل. فمن الواضح أن اللاجئين الإنجليز بدءاً من الكاردينال بول Pole، ومابعده، كانوا أكثر الوعاظ نشاطا، و حماسا للصليبة الكاثوليكية ضد انجلترا. ومع ذلك فأنهم فشلوا، و انتقموا لأنفسهم على مر التاريخ. ولقد شوه كلا من بول وساندرس الآن Sanders Allen Parsons ، كل ما اعتقدنا فى معرفته عن هنرى الثامن، و اليزابيث وما أنا على وشك قراءته اليكم لا يختلف بالضرورة عما سمعناه من قبل من هؤلاء الاشخاص، ولكنه جديد، و متكامل فى

طريقته، حيث أن المقصود منه هؤلاء الارشاد العلمى.

وقد تم الحصول على هذه المعلومات من السجلات الاسبانية لذلك فهى ليست معرضه للشك، و كان بارسونز ، كما تعرفونه زميلا فى الباليول Balliol قبل أن يتحول عن ديانته. وكان الان زميلا فى الأوريل Oriel، وساندرس Sanders زميلا فى الكلية الجديدة New College. وكان التعليم فى كنيسة اكسفورد فى انجلترا شيئا ممتازا، فقد تكونت الشخصيات الجميلة فى الجامعات الكاثوليكية فى الخارج، ومع أن عناصر الديناميت – فى حد ذاتها – لا تسبب ايذاء ، لكن عندما يتقابل قطباها تحدث تاثيرا لا يمكن لفرد أن يتخيله، ولذلك نجد أن اكسفورد وروما كانتا دائما تولدان مركبا ملتهبا الى حد ما، عندما يصطدمان.

وصف بارسونز Parsons فى بيانه الذى يمثل ملحوظة مختصرة، عن الوضع الراهن لانجلترا، التى منها يمكن الاستدلال على الطمأنينة والملاسة للمغامرة المقدسة. وكانت انجلترا، كما يقال تضم ٥٢ مقاطعة منها ٤٠ أربعون يعتنق سكانها العقيدة الكاثوليكية.

وكان المهرقطون قلة، ومكروهين من كل الطبقات. وأما الا ثنتا عشرة مقاطعة الباقية، فكانت تقريبا قد انتشرت فيها العدوى، ولكن مع ذلك، كان الكاثوليك يمثلون الأغلبية من بين كل هؤلاء. وقد قسمت انجلترا الى ثلاثة أقسام كان الثلثان منها على الأقل من الكاثوليك المخلصين، رغم أن كثيرا منهم قد أخفى عقيدته، خوفا من الملكة. وكان الكاثوليك الأنجليز نوعين. أما النوع الأول فقد جهر، بايمانه علانية دون مبالاة بالعواقب أو النتائج، وأما النوع الثانى فكانت عقيدته غير معلنة، ولكن مع ذلك فلم يكن لهم الرغبة فى المخاطرة بحياتهم أو بمصيرهم. وهكذا فقد استسلموا فى الظاهر الى قوانين الهرقطة، ولكنهم مع ذلك، كانوا مثل الكهنة الكاثوليك فى حالة من الشغف للتحرر من العبودية.

وواصل مارسونز حديثه، فقال: فالملكة وفريقها كانوا أكثر خوفا من هؤلاء الكاثوليك الذين أخفوا عقيدتهم من هؤلاء الذين يعبرون عنها صراحة. وكان هؤلاء الاخرون لطفاء، ومجردين من السلاح وغير مؤذيين. وأما عن الاخرين (الكاثوليك الذين

أخفوا عقيدتهم) فمع أنهم كانوا فى الظاهر مطيعين، فأنهم لم يمسوا ولم يتخذوا أى حذر ضد ثورتهم عندما يحل يوم الانتقام المنتظر..

وأضاف بارسونز فى قوله " وكانت المقاطعات Counties، وبخاصة الكاثوليكية منها مولعة بالحرب بدرجة كبيرة، وقد اشتملت هذه المقاطعات على الموانئ، وعلى أماكن الرسو الملائمة للجيش المغازى، وفى الشمال عند الحدود الأسكتلندية، كان سكانه يتدربون فى معارك مستمرة، وفى الجانب الاخر، وكان النبلاء الأسكتلنديون – وهم من الكاثوليك – يقدمون مساعدتهم، وبالمثل ستفعل كل ويلز.

وكان السكان فى المناطق الوسطى والجنوبية – حيث الفساد أكثر رسوخا – مترفين وجبناء، ولا يعرفون ماذا تعنى الحرب. وكانت المدن أكثر فسادا، من الأقاليم الريفية، بحيث لم تكن قوة انجلترا فى المدن الصغرى والكبرى، كما كان الحال فى القارة (الأوربية). وكان سكان المدينة أيضا تجارا وحرفيين، لم يكونوا أبدا نبلاء أو أشخاصا ذوى مكانة مرموقة.

وأردف بارسونز فى قوله فالنبلاء الذين يملكون القوة الحقيقية، يقيمون مع حاشيتهم فى قلاع تنتشر على مساحات من الأرض. وكان الأتباع الأثرياء، أقوياء و أمناء، وكانوا جميعا يلتزمون بالعقيدة القديمة، ومن الممكن الأعتماد عليهم عند أجراء أية محاولة بهدف استعادتها (أى العقيدة). وأيضا تاثر الفرسان والأستقراطيون بصفة عامة، وسيكونون فى المقدمة تماما. وفى ذلك الوقت، كان الكثير من أبنائهم يتعلمون فى معاهدنا اللاهوتيه. وكان البعض منهم منفيا، ولكن الجميع سواء أكانوا فى الوطن أو فى الخارج، على جانب من النشاط الى جانبنا.

وكان جزء من النبلاء العظام والماركيز، والأيرلز، والكونتات، والبارونات معنا. وكان جزء آخر منهم ضدنا. ولكن كانت المجموعة الأخيرة حديثة الوجود، وهى التى رفعتها الملكة، إما من أجل الهرطقة وأما لأن هذه المجموعة كانت محبوبة بصفة شخصية من قبل هذه الملكة، ولكن مع ذلك فقد كانت ممقوتة بصفة عامة.

وكان ايريل أف ارندل The Earle of Arundle يمثل رأس النبلاء القداما، فهو ابن، ووريث المرحوم (المقدس) دوق نورفولك Late Duke of Nor Folk الذى كان

قد سجنته (الملكة)، لأنه حاول الهرب من المملكة. وكان هذا الايرل كاثوليكيا تماما، علاوة على أخوته وأقربائه. فكانوا جميعا يملكون أتباعا أقوياء. وكانوا مستعدين للانتقام عندما يتعرض سيدهم (اللورد) للضرر. وكان ايرل أف نورثمبر لاند The earle of Northumber Land و اخوته كاثوليكيين. وكانت أسرتهم قد تعرضت للمظالم، فأرادوا أن ينتقموا لها، حيث أن والدهم قد اغتيل فى القلعة فى هذه السنة. وقد وضعوا أنفسهم تحت تصرفى فى هذه السنة. وكان ايرل أف وورسستر The earle of warcester ووريثه، يكرهان الهرطقة، ويخلصان لنا مع كافة أتباعهم وكان الايرلز أف كمبرلاند The earles of cumber Land وسوثمبتون Southampton وفيسكونت مونتاجيو Viscount Montague يملكون أتباعا كثيرين.

وعلاوة على هؤلاء، فنحن نملك الكثير من البارونات من أمثال داكر Dacre وموريلى Morley وفوكس vaux، ووندسور Windsor ووارتون Wharton ولو فليس lovelace واستورتون Stourton، بالأضافة الى آخرين. وكان كل من الايرل أف وست مورلاند The earle of west morland ومعه اللورد باجت Paget والسيرفرانسس انجلفيلد Sir Francis Englefield ، الذين يقطنون فى الخارج، كانوا متحمسين لتطوير مشروعنا بطريقة لا يمكن تصديقها. ويمثل هذا التأييد، فانه من المستحيل أن نفشل. وبالتأكيد سيهب هؤلاء اللوردات والأثرياء عندما يروا المساعدة الكافية، تصل لهم، وذلك للأسباب التالية:

١- أن بعض المسئولين من بينهم قد أعطونى وعدهم.

٢- وأنه عند سماع الكثير من الكاثوليك، بأن البابابيوس Popepuis عزم على حرمان الملكة من الكنيسة، بل عمل على عزلها - منذ ستة عشر عاما مضت فأنهم فى هذه الحالة سيهبوا ويثوروا وقد يكون السبب الوحيد فى فشلهم هو أنه ترسل لهم المساعدة. وفى الواقع، فان قرار البابا لم ينشر، فى هذا الوقت. أما الان، وعندما تكلم البابا، وأصبحت المساعدة أكيدة، فإنه لم يكن هناك شك فى الكيفية التى سيسلكونها.

٣- أن الكاثوليك كانوا فى ذلك الوقت كثيرى العدد، وكانوا يتلقون يوميا تعليمات

خاصة بعقيدتهم من كهنتنا، ولا يوجد الآن كاثوليكي ارثوذكسي في كل المملكة يعتقد أنه مازال ملتزما من أعماق قلبه بطاعة الملكة. وقد الفنا الكتب ونشرناها بمعرفتنا. وقد بينا أن الكاثوليك عليهم أن يحاربوا ضد الملكة والهرطقة، اذا أمرهم البابا وهذا ليس فقط من الناحية الشرعية، بل كواجب يلتزمون به. وقد قرأوا هذه الكتب بنهم. وعندما يحين الوقت، فأنهم بكل تأكيد سيحملون السلاح.

٤- في هذه السنوات الأخيرة اظهر الكاثوليك شعورهم الحقيقي، وذلك باستشهاد الكهنة، والرجال العلمانيين في سبيل الدين، أو المبدأ في محاولات قام العديد منهم بها ضد الملكة وذاتها. وقد حاول كاثوليك عديدون أن يقتلوها (الملكة) مخاطرين بحياتهم، ومع ذلك مايزالون يحاولون.

٥- كنا نملك ثلاثمائة من الكهنة الذين انتشروا بين منازل النبلاء، ومنازل الأستقراطيين المخلصين، وكنا في كل يوم نزيد عددهم، وسيوجه هؤلاء الكهنة ضمائر، وأعمال الكاثوليك عند الأزمات الكبرى.

٦- أنهم كانوا منهكين وقلقين، حيث كرهوا المهرطقين بشكل أسوأ من كرهم للأتراك واذا خشى أحد منهم قدوم جيش أسباني لخطورته على حرياتهم القومية، فهناك طريقة سهلة لتهدئة شكوكهم. لذا دعنا نعلن بصراحة من أن المغامرة ستنفذ تحت أسم البابا. وسوف لا يكون هناك المزيد من التردد. ولهذا أعددنا بأنفسنا كتبا لاعلامهم بحيث يصدر في اللحظة الملائمة، فلو أراد قداسته Holiness أن يرى هذا الكتاب، فنحن سنترجمه الى اللغة اللاتينية من أجل أن يستفيد منه. وينبغي أن يعاد اصدار عقوبة الحرمان من الكنيسة، والعزل ببنود خاصة قبل أن يعهد لأحد بهذه المغامرة.

ومن الواجب أن ينشر هذا الكتاب في جميع الأقطار الكاثوليكية المجاورة، ويجب على جميع الملوك الكاثوليك والأمراء أن يحثوا على منع أي وصف لأي اتصال مع الملكة المزعومة، ومع رعاياها المهرطقين، ومنع الكاثوليك أنفسهم من عقد أي معاهدات مع الملكة أو أرسال سفارات اليها أو السماح بأي منهما، ومنع تقديم أي مساعدة لها من

أى نوع. وبالأضافة الى كل هؤلاء الدين سيكونون معنا من أجل العقيدة، فسيكون لدينا أصدقاء آخرين محايدين، أو مهرطقين من نوع معتدل، أو من نوع ملحد، وهم الذين تعج بهم انجلترا الان، فهؤلاء سنضمون الينا لمصلحة ملكة اسكتلندا. وكان من بينهم ماركيز أف و نشستر Marquis of Winchester والأيرلز أف شرزبرى The Earles of shrewesbury ودربى Derby واكسفورد oxford ورتلاند Rutland نبلاء آخرين كثيرين. وستقدم ملكة اسكتلندا نفسها المساعدة، بلا حدود. فهى تعرف من هم أصدقاؤنا السريون، وهى لها القدرة فى ذلك، ونعتقد أنه سيكون لها القدرة على الأتصال بهم. وهى سترى أنهم سيكونون مستعدين فى الوقت المناسب، وهى غالبا ما قد كتبت الى تقول أنها تأمل فى أن تتمكن من الهرب عندما يحين الوقت. وقد حثتنى فى خطابها الأخير أن أكون متحمسا مع قداسته فى دفع المشروع، وأن أطلب منه الا يهتم بسلامتها، وهى تعتقد بأنها تستطيع الأهتمام بنفسها. واذا لم تستطع فأنها تقول " هى ستفقد حياتها عن طيب خاطر، وفى سبيل واجب مقدس.

فالأعداء الذين سنتعامل معهم يكونون من المهرطقين الأكثر تصميما، الذين نسميهم البيورتان Puritans ، وكذلك بعض رعايا الملكة من أمثال الأشخاص الموثوقون فيهم بالنسبة لها، وكذلك الأيرلز أف ليسستر The earles of leicester والهنتجدون Huntingdon وأخرون قليلون ومع ذلك سيكون لهم ميزة الحصول على الأموال من الخزانة، وهم سيحصلون على الاسلحة العامة، وعلى الذخائر، والجيش، والأسطول، ولكن مع ذلك، فلم ير أحد منهم معسكرا. وأقحم القادة أنفسهم فى اللهو، ومتع البلاط، ولكنهم سيفرون جميعا عند أول صدمة من صدمات الحرب. ولم يكن لديهم رجل يستطيع أن يكون قائدا فى الميدان، ففى كل المملكة توجد قلعتان هامتان، من الممكن أن تصمدا للحصار مدة ثلاثة أيام. وكان الناس فى حالة من الوهن بسبب فترة السلام الطويلة، وهم لايقومون على حمل السلاح، فيما عدا العدد القليل منهم وهم الذين خدموا مع المهرطقين فى الفلاندز، وكان البعض من هؤلاء قد هلك، أومات، وفر البعض الاخر منهم من الجندية الى أمير بارما Parma . وهذا دليل واضح على الأتجاه الحقيقى للثورة، وهناك يوجد وفرة فى الطعام والماشية فى الوطن (بريطانيا) وغالبية

هذه الأشياء ستكون فى خدمتنا ولن نحرم منها. ففى كل مكان كان هناك أمن وموانئ متسعة، وآمنة وجميعها غير محمية تقريبا. ونتيجة لذلك، فأن أى قوة غازية يمكنها النزول بسهولة، وسوف لا يكون هناك نقص فى المرشدين المحليين. ويكفى للقيام بهذه المهمة - وفى حالة كتلك - خمسة عشر ألف جندى مدربين ومدعمين، بواسطة الانجليز الكاثوليك. ورغم أنه بطبيعة الحال، فأنه كلما كانت القوة أكبر وخاصة اذا كانت تشتمل على فرسان، كلما تم العمل بطريقة أسرع، وبأقل التكاليف. ومن الناحية العملية، فإنه لن يكون هناك شئ سوى القضاء على أمن الرعاع غير المنظمين، وغير المولعين بالحرب. وقد تعرضت انجلترا للغزو ست عشرة مرة. وقد صد الجيش الوطنى القوة المهاجمة مرتين فقط، ولكنهم هزموا فى كل مناسبة أخرى. عندئذ، لا حاجة لنا أن نخاف من الفشل لأن قضيتنا مقدسة وعادلة، وسوف ترد النفقات مرة ثانية الى قداسته، والى الملك الكاثوليكى من ممتلكات المهرطقين، ورجال الدين البروتستانت. وبعد ذلك، سيكون هناك وفرة فى تلك الموارد، كى يعوض جميع الذين مدوا الينا أيديهم. ولكن مع ذلك فمن الواجب أن ينجز العمل فى الحال، لأن التأخير سيكون خطيرا لدرجة غير محددة. ولو أجلنا ذلك كما فعلنا حتى الآن، فإن الكاثوليك سيتعبون، وينقصون فى العدد والقوة. وفى الوقت نفسه، فإن النبلاء و الكهنة الذين فى المنفى والقادرين على تأدية مثل هذه الخدمة سيسحقهم الفقر. ومن الممكن أن تعدم ملكة اسكتلندا أو تموت موته طبيعية، أو ربما يحدث بعض الشئ الى الملك الكاثوليكى أو الى قداسته (البابا). وربما تموت أيضا ملكة انجلترا نفسها، ومن الممكن أن يعاد من جديد تشكيل حكومة هرطقية، تحت حكم وريث هرطقى، هو الملك الاسكتلندى الشاب أو أى شخص آخر. عندئذ، فان حالتنا ستكون يائسة. بينما إذا إستطعنا أن نمنع هذا وأن ننقذ ملكة إسكتلندا، فإنه فى هذه الحالة، سيكون هناك أمل طيب فى تحويل ابنها (الى الكاثوليكية)، وأخضاع كافة الجزيرة الصغيرة الى طاعة العقيدة. والآن، حان الوقت، ولا تستطيع الحكومة الفرنسية التدخل، ولكن سيساعدنا دوق الجيز Duke of Guise من أجل العقيدة، ومن أجل قريبته. وفى هذا الوقت يتسم الاتراك بالهدوء و لم تكن الكنيسة أكثر قوة ووحدة، كما كانت فى هذه الفترة. فكان جزء من أيطاليا تحت حكم الملك

الكاثوليكى، وكانت البقية الباقية من ايطاليا فى تحالف غير رسمى مع قداسته (البابا). وفى هذه الفترة كذلك، تم سحق التمرد الذى حدث فى الأراضى المنخفضة. وكانت المقاطعات الساحلية على وشك الأستسلام، فلو تخلت هذه المقاطعات عن الصراع فان موانيها ستكون فى خدمتنا من أجل الغزو. واذا لم يكن كذلك، فان الطريق الى النصر يمكن فى هزيمة انجلترا.

ولا أريد أن اثير، كم كانت اهتمامات قداسته فى القيام بهذا العمل الرائع. فالبابا كرجل عاقل جداً، كما عهد فيه، يعرف أن كافة المخاطر التى تسبب اضطرابات فى العالم المسيحى تأتى من وراء اليزابيث و اعوانها. ويعرف البابا أيضا أن الفساد الهرطقى، وكل التعاسات الأخرى، يمكن أن تنتهى فقط عندما تعاقب هذه المرأة (الملكة اليزابيث) فالتبجيل لقداسته والحب الوطنى المتألم، هو الذى أجبرنى على الكلام. فأننى أقدم نفسى ونصيحتى لعدالته المقدسة، وان أكثر المدافعين الكاثوليك المتحمسين لن يؤمنوا على الرغم من هذه الوثيقة بأن الجزويت الانجليز والكهنة اللاهوتيين، كانوا مبشرين سذجا للعقيدة، كما وصفهم الاعداء الحديثون لحكومة اليزابيث. فالأب بارسونز – كانت هذه الوثيقة – كان هو نفسه القائد، والموجه للغزو الجزويتى، ولا يمكن أن يفترض بأنه اساء للهدف الذى من أجله أرسلوا. وكانت وجهة الأهتمام الخاصة تكمن فى التقرير الذى قدمه عن حالة الأطراف وعن الشعور العام للشعب الانجليزى. فهل كان هناك اتجاه عام للترحيب بجيش غازى من جانب الأغلبية الكبيرة فى الأمة ؟ هذا السؤال من المفترض أنه قد أجيب عنه بنصر، بعد ثلاث سنوات، عندما تأكد من أن الاختلاف فى العقيدة قد نسى. وأن الكاثوليك والبروتستانت حاربوا جنبا الى جنب من أجل حريات انجلترا. ولكن وفى المقام الأول، كانت الظروف قد تغيرت، لأن ملكة اسكتلندا لم تعد على قيد الحياة وأن نجاح الأرمادا Armada تعنى ملكا أجنبيا. ولكن التجربة لم تتم. ووقعت المعركة فى البحر بواسطة اسطول كان أربع أخماسه من المغامرين البروتستانت والبيورتان Puritans المتحمسين، والذى أقر بارسونز نفسه بأخلاصهم للملكة. ومن المحتمل أن يكون اللورد هوارد Lord Howard كاثوليكيا انجليزيا، فهو لم يكن أبدا كاثوليكيا رومانيا، ولكنه كان هو وأخوه من أسرة هوارد،

وهما من الموالين فقط للملكة. وكل ما طالب به بارسونز لهما هو انضمام أرندل Arundle وبقية عشيرته.

ولم يزل من غير المؤكد كيف يمكن أن يكون سلوك المجندين، لو تمكن بارما من النزول الى البر. ومن المحتمل أن الجيش الأسبانى كان قد حقق نجاحا أوليا، فمن الممكن، وفى حالة مايكون هناك البعض من الذين كان يمكن أن يسلكوا مثل ما سلك السيروليام ستانلى Sir William Stanly . ومن الجدير بالملاحظة أن بارسونز قد تعرض لذكر ليسستر Leicester وهنتجدون Huntingdon على أنهما من النبلاء، والأقوياء الوحيدين، الذين من الممكن للملكة أن تعتمد عليهما. وقد أختارت الملكة ليسستر ليقود قواتها البرية، مع أنه كان يعتبر من أكثر الرجال الذين تنقصهم الكفاءة فى بلادها.

وقد كان دوق الفا Alva، وسيده فيليب لايثقان فى الكهنة السياسيين. ويقولان أن الكهنة السياسيين لم يفهموا حقائق الأشياء. فالتعصب الدينى اللاهوتى جعلهم سريعوا التصديق فيما هم يرغبون فيه. ولكن قد تاكد تقدير بارسونز من كافة جوانبه بوساطة خطابات مندوزا Mendoza – السفير الأسبانى فى لندن – فمندوزا نفسه كان جنديا، وكان واجبه الأول أن يلم بالحقيقة الفعلية، الخاصة بوجود الملكة (مارى سيوارت) على قيد الحياة، لتتولى العرض فى وقت المشهد في مجلس العموم، الذى بدأت به هذه المحاضرة وقد يكون من المؤكد أن الغالبية العظمى للدولة تكره المصلحين، وتتطلع هذه الغالبية الى تولى ملك كاثوليكى العرش، وما ينتج عن ذلك من ثورة دينية.

كل ذلك يفسر مركز اليزابيث الصعب وتضارب تصرفها السياسى وكان كل من بروغلى Burghley ، وولسنجهام Walsingham وملدمى Mildmay وكنولس Knolle ، وباكون Elder Bacon، من البروتستانت المخلصين، و أنهم جميعا كانوا يتمنون أن يجعلوها بنفسها، أى يجعلوا اليزابيث على رأس التحالف الأوربى البروتستانتى بطريقة علنية. واعتقدوا صراحة بأن الحق والعدل فى جانبهم، وأن جانبهم هو قضية الله كما سموها، وأن الرب سيرعى هذه القضية. ولكن مع ذلك لم يكن لدى اليزابيث مثل هذا الاقتناع الكامل، فقد كرهت فرض الرأى، ومن قبل البرتستانت و الكاثوليكيين على

حد سواء. وسخرت من المسترسيسل، ومن أخوانه فى المسيحية، واعتقدت مثل أرازمس Erasmus والمستر سيسل Mr. Cecil بأن نصوص العقيدة- التى من أجلها تحمس الناس ليقتل بعضهم البعض - كانت من الموضوعات التى لا يعرفون عنها الا القليل، وأن كل رجل يفكر كما يحلو له فى مثل هذه المسائل، دون أن يسبب ضررا للكومنولث. ولكى يصبحوا فى المقدمة كان عليهم أن يتورطوا، مع القوى الكاثوليكية. وتعنى الحرب هنا حرب الضرائب التى من الممكن أن يرفضها أو يقاومها أكثر من نصف رعايا الملكة. وكانت العقيدة، كما فهمتها الملكة تطورا للقانون، قانون السلوك الاخلاقى. فأنت لا تستطيع أن يكون لك قانونان فى بلد واحد، وأنت لاتستطيع أن يكون لك عقيدتان، ومع ذلك فالمظهر الخارجى لا يهم كثيرا نسبيا، والشعب الذى حكمته (الملكة) قد انقسم تجاه هذه الصور. فهم (أى الناس) كانوا أساس أغبياء، فلو تركت (أى الملكة) لكل منهم أن يكون له كنائس صغيرة، وأخرى كبيرة، فأن التلال ستصبح جبالا، كما أن الطوائف ستنتقل من النقاش الى الحرب لذلك فأنه بمساعدة البرلمان لها، تمكنت من أنشاء طقس دينى، ومن خلاله، يستطيع هؤلاء الذين يريدون أن يجدوا القداس أن يستمعوا اليه. بينما يستطيع هؤلاء الذين يريدون القضاء والقدر، والتبرئة الالهية بالعقيدة، أن يجدوها فى فقرات القعيدة. ويستطيع كلاهما الالتقاء تحت سقف واحد، واستخدام طقوس واحدة. ومن الممكن أن يحدث هذا اذا كانت الفئتان على قدر من العقل والحكمة. واذا هما لم يكونا كذلك، ففى هذه الحالة يمكن للكاثوليك أن يكون لهم شعائرهم الدينية فى منازلهم، ولن يستطيع أحد أن يتدخل فيها.

واستمر هذا النظام مدة الأحدى عشرة سنة الأولى من حكم الملكة اليزابيث واستطاعت (الملكة) أن تقول بكل فخر : أنه لا يوجد كاثوليكى قد اضطهد بسبب عقيدته خلال هذه المدة، بل كل ما كان هناك هو فرض غرامة مالية صغيرة، تفرض على الشخص الذى لا يحضر الى الكنيسة، حتى أن هذه الغرامة، أصبح من النادر فرضها وباعتراف الجزويت أنفسهم، فان سياسة الملكة كانت ناجحة تماما، وبدأ الرجال العقلاء يرون أن اختلافات العقيدة لم تكن أشياء يتصارع من أجلها. وفى تلك الأثناء كانت العقيدة يصيبها الوهن، وكان الجيل الأكبر الذى عاشا أثناء ثورة ادوارد

Edward، ومارى Mary ، راضيا أن يعيش فى سلام، لأنه كان جبلا جديدا، ينمو بأفكار جديدة، لذا فان الكنيسة الرومانية كانت تثير نفسها، وحرمت اليزابيث كنيسيا. وبعد ذلك، بدأت سلسلة من المكائد والتآمر، ومؤامرات الاغتيالات، وثورات الجزويت. وكان من الواجب أن يتبع ذلك عقوبات، فقد زجت اليزابيث نفسها رغما عنها الى ما أسماه الكاثوليك بالأضطهاد الدينى، ولم تكن المسألة دينية، لأن الكهنة اللاهوتيين، كانوا مبشرين للخيانة، ومع أن العقيدة وجدت لتكون واضحة، فالرجل الانجليزى الذى ارادأن يظل مخلصا دون أن يفقد عقيدته، تعلم أن يرى أن أى ملك يلعنه البابا لم يعد له الحق فى أن يطالبه بولائه. واذا هو عصى البابا، ففى هذه الحالة سيمنع من أن يكون عضوا فى كنيسة المسيح. ونتيجة لذلك، فقد نما الحزب البابوى فى تماسك ولكن البروتستانت عارضوا نموه، عندما اتضح لهم هدفه، واتجهوا فى البداية الى اللوثارية وتبنوا بعد ذلك عقيدتى كالفن Calven وجنفا geneva اللتين كانت أكثر عمقا وصرامة. ومرة ثانية، أحيت ذكرى وحشية مارى Mary .

ورأى البروتستانت أنفسهم مهددين بالعودة الى الاعدام حرقا وباستخدام الخوازيق، فتخلصوا من رتبهم، وصمموا على الموت بدلا من الخضوع مرة ثانية الى المعارضين للمسيح. ومن الممكن أن يكونوا أقل عددا، وأن أى أستفتاء فى انجلترا في هذه اللحظة كان من الممكن أن يرسل ببورغلى، وولسنجهام الى المشنقة. ولكن الرب يستطيع أن ينقذ القليل، وكذلك الكثر. وكان الى جانب يهوذا Judah قبيلتان من اثنتا عشرة قبيلة، ومع ذلك فقد كانت كلمات رجال يهوذا أشد عنفا من كلمات رجال اسرائيل Israel.

وقد ارتكب بارسونز خطأ فاحشا، لأنه لم يستطع أن يقدر ما لم يستطع فهمه. وسلم بأن سكان المدن كانوا فى الاساس هراطقة – فى لندن وبريستول Bristol وبليموث Plymouth ، وكذلك البقية من هذه المدن – ولكنه مع ذلك احتقرهم كتجار ، وكحرفيين ، وكأناس وضيعين. فهم الذين لم تكن لديهم الرغبة والشجاعة فى الحرب. وليس هناك شئ ملفت للنظر – أكثر فى تاريخ القرن السادس عشر – من تأثير الكلفانية فى المساواة بين الطبقات، وفى بث القوة والنبالة فى شخصية الرجال

العاديين. ففى اسكتلندا، وفى الأراضى المنخفضة وفى فرنسا، كانت توجد نفس الظاهرة. ففى استكلندا وجدت كنيستها الوطنية من صنع الوعاظ. وقد تجرأ الناس والفلاحون والعمال على الوقوف فى الميدان ضد الفرسان، والبارونات الأقويا، الذين كانوا قد سلكوا طريق أبائهم لعدة قرون. وقد تحدى حرفيوا الأراضى المنخفضة لمدة عشرين عاما كل القوى الأسبانية. مع أن الهجنوت لم يكونوا يمثلون خمس الأمة الفرنسية، ومع ذلك، فإن الهزيمة لم تثبط من هممهم، فقد أجبروا الملك والنبلاء المرة تلو الأخرى، بأن يتهادنوا معهم، وحدث نفس الشئ فى انجلترا. وقد تلاشى ولاءهم الى قادتهم الأقطاعيين وتحول الى التزام رفيع المستوى الى ملك الملوك، حيث اعتقدوا بأنهم (مختاريه). ولم يكن الأختيار بالنسبة لهم خيالا لاهوتيا، ولكنه قد أنخرط فى جيش الله. ومن المحتمل أن يكونوا هم قطيعا صغيرا، ولكنهم كانوا شعبا خطرا، عند التعامل معه، فالغالبية العظمى منه كانت تقطن المدن الساحلية، فكان البحر هو العامل الأساسى بالنسبة للمصلحين. فليس للبابوات سلطة قضائية على الرياح ولا على الأمواج. وكانت روشيل Rochelle قلعة للهجنوت، فقد كان للتجار والبحارة الانجليز أخطاءهم، التى كانت تتجدد بأستمرار، وتشعل مرارة غضبهم. فأينما يوجدون فى الموانئ الأسبانية، فأن أيدى المحقق ستصل اليهم (أى الى أطقم السفن الانجليزية) ما لم يتنكروا لعقيدتهم، فأنهم عندئذ، سيرسلون ليموتوا حرقا، أو ليعملوا فى السفن الشراعية الكبيرة. واتهم الكلفانيون بالتعصب، وأنا اعتقد انه حتى فى الأيام التى تتسم بالأنسانية والروحانية، لا ينبغى علينا أن تكون متسامحين اذا قام ملك داهومى بحرق يزور بلاده، ولا يعبد الممبوجمبو Mumbo Jumbo لذلك لم يكن دوق الفارجيما مع المهرطقين، ومع ذلك فانه حاول أن يكبح جماح محكمة التفتيش الخاصة بحرق البحارة الانجليز حتى أن فيليب احتج بنفسه على ذلك، ولم يكن هناك غرض من ذلك. وقالت محاكم التفتيش Holy office أنها ستفكر فى هذا ولكنها مع ذلك قررت أن تواصل عملها. ولست مندهشا أبدا اذا كان البحارة البريطانيون متعصبين. وسأكون مندهشا كثيرا، اذا لم يكونوا كذلك. فالملكة لم تستطع حمايتهم، ولذلك، كان عليهم أن يحموا أنفسهم بقدر ما يستطيعون، وأن يحبروا السفن الأسبانية – عندما يستطيعون

الامساك بها – أن تدفع ثمنا لمظالم حكامها.

وبهذا الأتجاه من الجانبين، لم تكن أمام سياسة اليزابيث الافرصة ضئيلة فهى لا تزال تأمل فى أن الاحساس الطيب فى الجنس البشرى سيحافظ بنظام على المتحمسين المذهبيين (أى أصحاب المذاهب).

ورغبت اليزابيث فى أن يكون رعاياها مقتنعين بالعيش معا فى وحدة روحية – ان لم يكونوا فى وحدة نظرية – أى يعيشون فى رابطة سلام، وليس فى رابطة كراهية، أى يعيشون فى ظل حياة مستقيمة لا فى ظل وعظ عقيدة أرثوذكية، قائمة على الحرق والشنق.

وكانت اليزابيث مقتنعة بالأنتظار و المثابرة، ورفضت أن تعلن الحرب فالحرب ستمزق العالم أربا. كانت اليزابيث على دراية بخطرها، وعرفت أنها معرضة لمخاطر الأغتيال المتواصل. وعرفت اليزابيث أيضا أنه اذا سحق البروتستانت فى اسكتلندا، وفرنسا، والأراضى المنخفضة، فان الدور سيأتى عليها، واذا قامت بحماية المتمردين علانية، فان ذلك سيكون مبررا لعصيان مسلح ضدها. ولكن لم تستطع القيام به علانية يمكن أن تقوم به سرا. ومالا تستطيع أن تفعله بنفسها فانها ستدع رعياها يقومون به. فقد حارب آلاف المتطوعين الانجليز فى الفلاندرز من أجل الولايات، وفى فرنسا من أجل الهجنوت. وعندما ما أوصدت الخزانة الانجليزية أبوابها أمام توسلات وليام أف أورانج William of orange أمده مواطنو لندن متحدين بأموالهم، ولم يصب النجاح أصدقاء اليزابيث فى اسكتلندا، ومع ذلك، فقد شجعتهم بالوعود التي لم تنفذ، لأن مثل هذه الوعود بسبب الحرب. لذلك نجدهم يورطون أنفسهم لصالحها، وتساقطوا الواحد تلو الآخر فى مهالك مميتة، وكان منهم ميورى Murray ومورتون Morton وجورى Gowrie فضلا عن أن الباحثين منهم أخذوا، أماكنهم، وواصلوا الكفاح.

وبذلك أنقذت حركة الاصلاح الأسكتلندى. ولم يسمح لاسكتلندا أن تفتح ذراعيها لجيش غازى ليهاجم انجلترا عبر الحدود. ولكن اعتبر هذا بمثابة تعويض كاف لهم، واهتم الأصدقاء فى اسكتلندا بقضيتهم، علاوة علي اهتمامهم بالملكة الانجليزية وقد حصلوا على مكافآتهم. فاذا هم انقذوها (أى أنقذوا الملكة) فهم فى هذه الحالة ينقذون

وطنهم. فالملكة اليزابيث لم تنم على سرير من الورود. فلكى تمنع اندلاع حرب اعلانية ، كانت تعرض حياتها للأغتيال ففى أى لحظة يمكن لأى طلقة مسدس أو طعنة من خنجر أن تضيف اليزابيث الى قائمة الضحايا. وكانت اليزابيث على دراية بذلك، ومع ذلك فأنها واصلت سياستها، وواجهت بذاتها شريكها فى المخاطرة، وقررت شيئاً واحدا يتمثل فى أية فى حالة عدم استطاعتها الدفاع عن أصدقائها، وعن رعاياها كملكة لانجلترا، فأنه فى هذه الحالة، يتعين عليها أن تتركهم احرارا فى الدفاع عن أنفسهم. وقد سمحت بشنق الخونه عندما يلقى القبض عليهم وهم متلبسون. ووافقت للتجار بأن يهاجموا فجأة باساطيلهم – التى يعدونها على نفقتهم الخاصة – سفن العدو ويستولوا عليها، كى يدافعوا عن شواطئ انجلترا، لكى يعطوا الأسبان درسا فى الخوف من انتقامهم (أى من انتقام الانجليز).

ولكن الى متى تستمر كل هذه الأمور؟ والى متى يستمر المواطنون المخلصون فى الاحساس طوال هذه المدة بأنهم يعيشون على لغم قابل للإنفجار؟ ففى كل مكان من وطنهم، وفى كل مكان من القارة (الأوربية) اندفع حشد غفير من المتآمرين فى روما ، ومدريد، وبروكسل، وباريس ، يستهزءون بالكومنولث البريطانى. ومن المحتمل أن الملكة لم تكن مبالية بهذا الخطر الذى يحيق بها، ومن المرجح أنها ربطت حياتها بسلام المملكة ككل. فمن الممكن أن تخرج السيوف من اغمادها فى كل وطن من هذه الأوطان). ومن الممكن أن يضغط على زناد البنادق، ومن الممكن أيضا أن يكون هناك طعنة خنجر بحيث تصبح انجلترا مثل فرنسا، مسرحا للبربرية والفوضى السياسية والحرب الأهلية. وفى تلك الأثناء، فانه لم يحدد وريث بعد (الملكة) لأن الملكة رفضت أن تسمع عن اعلان اسم وريث لها.

لقد كانت يدى مارى ستيوارت وراء كل مؤامرة، منذ عبرت الحدود وقد قدم مجلس العموم البريطانى مرتين عريضة يطالب فيها باعدامها (أى أعدام مارى ستيوارت). فلن تمس اليزابيث حياتها، ولا يسمح بأمالها فى أن ينتزع العرش منها. وكان ميثاق رابطة الجمعية بمثابة علاج اليأس. وكان من الممكن لقرار البرلمان البريطانى أن يمر بغير سهولة في العاصفة التي قد تهب فى الحال. وقد وصل الكرب

الى مداه عندما وصلت الأخبار المميتة من الأراضى المنخفضة، بأن الاغتيالات قد أدت الى نتائج فى النهاية. وبعد محاولات فاشلة عديدة، أمكن التخلص من أمير الاورانج. وقد وجد منشور في قصر وستمنستر West Minister يطالب سيدات القصر بأن يقدمن يهوذا لتخليص العالم من الكفرة الانجليز.

وعلى أية حال، فان جماعة من رعايا اليزابيث كانت لا تميل الى أن تجلس فى صبر، وهى ترزح تحت كابوس أبدى. وفى تلك الأثناء، قدم من أسبانيا جيش الخلاص، الذى من أجله كان الجزويت مشتاقين اليه كثيرا. وبالنسبة الى الانسان فان البابا كان يبحث تنفيذه أمر العزل (الخاص بالملكة اليزابيث). وكان الزب بارسونز قد أهمل فى تقديره مغامرى لندن، وبليموث من البروتستانت. فبالأضافة الى عقيدتهم والى وطنيتهم، كانت لهم أخطاؤهم الخاصة بالأنتقام. ومن المرجح أن فيليب كان يتحدث عن السلام، ومن المحتمل أن يكون الضجر فى الأوقات العصبية مرغوبا فيه. ولم يكن هناك سلام ممكن بين الانجليز الذين ربطوا حياتهم بالمحيط، وبين محاكم التفتيش الأسبانية، التى احرقت الكثير منهم (أى من الانجليز) فبالنسبة لهم (أى الانجليز) فان أسبانيا كانت العدو الطبيعى لهم.

وكان الأشخاص الجسورون الذين أبحروا مع دريك حول الكرة الأرضية، والذين تربصوا لسفن الذهب الأسبانية، قد روعوا العالم بأعمالهم البطولية. فكانت السعادة فى حياتهم تكمن فى محاربتهم للأسبانفى أى مكان يمكن أن يلتقوا معهم فيه. وكان لكل واحد منهم رغبته فى حرب علانية نزيهه. وبالنسبة لهم أيضا (أى للانجليز) فان السفن الشرعية الكبيرة لم تكن مصدر رعب لهم فقد بدا للأنجليز بأن قوة الاسطول الأسبانى كانت تمثل بالنسبة لهم شيئا ضخما محشوا بالخرق. وكانت الغالبية العظمى منهم (الانجليز) من البرتستانت. وكان نظامهم اللاهوتى عمليا أكثر منه مخاطرة. وعلى وجه العموم، اذا اختار الايطاليون والاسبان أن يعتقدوا فى القداس فان هذا شأنهم. وكان صراعهم (أى الانجليز) منصبا على أدعاء المتغطرس للكاثوليك، الذين يفرضون عقيدتهم على آخرين بحد السيف والمدفع. وكانت الروح التى تحركهم (أى الانجليز) تتمثل فى النزعة الى الحرية. كما أنهم شعروا (أى الانجليز بأنه من الممكن أن يكونوا

سادة لهؤلاء الطغاة الروحانيين، ولكن بحسب ماتقتضيه الأمور، كل من المحتمل أن تندلع ثورة فى الوطن الام فمن المحتمل أن تحترق مساكنهم وما حولها . وفى هذه الحالة يجتاح وطنهم، من قبل جيش أمير بارما Prince of Parma's Army وعند ذلك، تعقد محاكم التفتيش على أبواب منازلهم، ويعيد الملك الكاثوليكى اليهم حرق سميث فيليد (مكان الحرق) Smith fildfagots.

ولم يكن الاصلاح فى أساسه مقدمة لهرطقات جديدة، ولكنه كان يمثل تمرد سواء الناس فى أوروبا ضد الخلاعة، وجشع رجال الدين. وقد تظاهر البابوات والكاردينالات، بأنهم ممثلون لله فى الأرض. وعندما يدعون للمحاسبة بسبب مسلوئ سلطاتهم، فانهم فى هذه الحالة يتصرفون تماماً كملوك مبشرين، واستقراطيين فاسدين. فقد يتآمرون (البابوات) وقد يحرمون (الناس) كنيسيا، ويثيرون أمة ضد أمة، وملوكا ضد رعايهم. وكانوا قد شجعوا الاغتيال، وعملوا لانفسهم سمعة سيئة، بسبب ارتكابهم للمذابح المروعة.

وقد علموا نصف المملكة النصرانية الأحمق، أن يكره النصف الآخر.

وارتعدت قلوب البحارة الانجليز التعساء - الذين أحرق رفقاؤهم فى اشبيلية، وأصبح يوم حرقهم يوم عيد دينى أسبانى - والذين صمموا بقوة على أن ينهوا مشاهدة مثل هذه. وكان الهدف من وراء ذلك بالنسبة لهم (البابوات) هو انهاك الناس فى ضجيج حرب بربرية تختلط فيها أصوات آلات الحرب مع أصوات الرياح. وأنا وجدت فى الأرشيف Record office خطابا غير موقع لبعض البحارة القدماء الشجعان. وقد كتب هذا الخطاب الى الملكة اليزابيث، بيد جسورة وقويه يحول: كانت شركات السفن التى تخدم فيليب فى الحرب صيفا، تتوجه بالآلاف شتاء، لتصطاد سمكا الكود Cod، ومن شواطئ نيوفوندلاند New Found Land . و أضاف الخطاب يقول، وقال الكاتب اعطنى خمس سفن فسأخرج بها وسأغرق بها (السفن الاسبانية جميعها) و سأتلف بها السفن الشراعية الموجودة فى ميناء قادش Cadiz، لأنها كانت فى حاجة الى رجال للأبحار بها. لذا قررت بازوجتى، بل قررت على وجه السرعة. فالزمن يمضى بسرعة ولايعود. والأنسان عرضه للموت فى أى وقت.

ولكن لم تقرر الملكة ذلك، ولم ترسل الا... سفن هذه. لهذا واصل البحارة القشتاليون التعساء اصطياد سمكهم من ... الكود فى أمن وسلام. ولكن، اضطرت الملكة اليزابيث بالرغم عنها الى التصرف تحت ... ط ماتقضيه الظروف. ومن المعروف أن موت أمير الأورانج ترك الأقاليم دون حكومة (الأراضى المنخفض). لذا ضيق أمير بارما Parma الخناق على هذه الأقاليم. وأصبحت هذه الأقاليم – بدون حاكم – فى ضياع، وطلبت من اليزابيث أن تندمج فى الأمبراطورية الانجليزية. وقررت هذه الأقاليم أنه فى حالة رفض اليزابيث، فانه من الواجب عليها (أى على هذه الأقاليم) أن تخضع لأسبانيا أو أن تصبح أقاليم تابعة لفرنسا. وسواء أكانت الأراضى المنخفضة تابعة للاسبان أم للفرنسيين، فإنها ستكون خطرا يتهدد انجلترا.

ومرة أخرى، عادت الأراضى المنخفضة الى البابا، وستكون عودتها التالية الى انجلترا. وبخاصة عندما تقبل (اليزابيث) بالأقتراح الذى يعنى الحرب اليائسة السريعة مع كل من أسبانيا وفرنسا، فان الأخيرة (أى فرنسا) سوف لا تسلم ابدا، مرة ثانية لانجلترا، بأن يكون لها موطئ قدم فى القارة (الأوربية). عندئذ، لم تعرف اليزابيث ماذا ستفعل فهى أما أن تكون أولا تكون. فهى لم توافق وهى فى نفس الوقت لم ترفض. فهذا لا يعنى النفى ولا الا يجاب (أى أنها أصبحت فى حالة من التردد).

وفيليب الذى كان مغرما بالأساليب غير المباشرة، كما كانت هى نفسها، حاول الاسهام فى زيادة ترددها. وفى ذلك الوقت، انخفض المحصول فى جليشيا Galicia وكان الناس يموتون جوعا، بينما زاد محصول انجلترا، عن حاجتها من القمح كثيرا. وفي ظل اتفاق خاص فان ملاحى السفن (القراصنة أو الأسبان) سوف لا يتعرضون بالأذى الى اسطول تجار القمح، الذى قد يذهب بشحنات من الحبوب الى كورونا Coruna ، وبلباو Bilbao ، وسانتندر Santander. ولكن عندما سمع ملك أسبانيا بأن اليزابيث كانت تتعامل مع الأقاليم؛ أصدر أمرا مفاجئا بالاستيلاء على السفن ومصادرة ماعليها من شحنات، وسجن الرجال العاملين عليها (البحارة). وقد نفذ هذا الأمر.

وفى تلك الأثناء، كان الحظ متاحا فقط لهروب سفينة انجليزية، وذلك بواسطة

مهارة قائدها. وكانت هذه السفينة هى " بريم روز" Prim-Rose وهى من لندن، التي التي كانت مرابطة فى ميناء بلباو. وكان على ظهرها القبودان وخمسة عشر بحارا آخرين. وعندما تلقى رئيس البلدية الأمر (الخاص بالإستيلاء عليها) صعد الى ظهر السفينة ليتفحصها. وبعد ذلك، واصل رئيس البلدية (الأسبانى) المسير الى الشاطئ لينقذ القوة الكبيرة من نوبة المرض، الذى كانت قد تعرضت له هذه القوة. وفى تلك الأثناء، وبعد مغادرة رئيس البلدية الى ظهر السفينة الانجليزية، سمع قبودانها بالمصير الذى كان ينتظره. فقد عاد رئيس البلدية، ومعه مركبان مملوءان بالجنود، وعندما كان يخطى السلم لمس القائد (أى قائد السفينة الانجليزية) من كتفه وأخبره بأنه أصبح سجينا.

ولكن فى تلك الأثناء تمكن البحارة الانجليز من خطف رمح وسيف ومسدس وفأس حربية، وقتلوا ما بين سبعة أو ثمانية من البحارة الأسبان، والقوا بالبقية منهم من فوق ظهر المركب الى البحر وقذفوهم بالحجارة. وبعد ذلك اندفع البحارة الانجليز وهم فى حالة ذعر، الى مراكبهم أو الى قواربهم.

وكان رئيس البلدية (الأسبانى) الذي سقط فى البحر، قد أمسك بحبل وسحب بعد انتهاء المعركة. بعد ذلك قطعت أحبال مرسى السفينة" بريم روز" أو رفعت الأشرعة ، وفى دقائق قليلة، اتخذت تلك السفينة " بريم روز " طريقها الى انجلترا، ومعها رئيس بلدية مدينة بلباو، ولم تفلت سفينة أخرى. واذا كان فيليب قد أراد أن يرعب اليزابيث، فانه لم يكن فى مقدوره أن يفعل أسوأ مما فعل، والسبب فى ذلك يرجع الى أنه قد اغضب هذا الجزء المعين من السكان الانجليز الذين كانوا أقل خوفا منه. فبالأضافة الى تحطيمه للثقة واعتقال بعض مئات من التجار والبحارة الانجليز الذين كانوا قد ذهبوا فقط لأغاثة الاسبان كالمعتاد، فإن اليزابيث لم تتصرف من فورها بنفسها، ولم ترسل سفنا من أسطولها للمطالبة بتعويض. عندئذ أطلقت أيدى المغامرين. وقد قرر مواطنو لندن، وبليموث أن يلقنوا الأسبان درسا، سيترك له اثرا. فقد انتابتهم أسوأ المخاوف على مصير السجناء الانجليز، فاذا لم يستطيعوا انقاذهم، فيمكنهم أن ينتقموا لهم، ولم يرغب دريك فى شئ أفضل من أن يعود مرة ثانية الى العمل. وقد

تطوع بخدماته، وكون اسطولا في بليموث، ضم ٢٥ سفينة. وكان لكل سفينة من هذه السفن واجب خاص.

ولم تغادر الشواطئ الانجليزية، أسلحة أفضل من هذه أو سفن مجهزة أفضل من تلك، في أي وقت من الأوقات. ومن المعروف أن تكاليف هذه القوات كانت باهظة. وكانت قوة دريك من البحارة والجنود تتراوح فيمابين الفين وثلاثة آلاف. وعلاوة على ذلك، فان اسم دريك كان يساوى جيشا بحالة. وكان من الممكن أن تسترد تكاليف هذا الجيش من هذه البعثة بطريقة أو بأخرى. وكان من الممكن أيضا، جعل الأسبانيين يساهمون فى هذه النفقات، ولكن كيف ومتى ؟ فان ذلك قد ترك لتقدير دريك. ولم يكن فى هذه القوة التي ترأسها دريك نائب له أرسله أصدقاء أسبانيا كى يتولى القيادة مع دريك، وذلك بهدف تقييده. وقد تولى دريك القيادة المطلقة بموافقة عامة. وكانت التعليمات الصادرة اليه أن يستعلم فقط فى الموانئ الاسبانية عن مدلول (أسباب) اعتقال البريطانيين من قبل الاسبان. وفيماعدا ذلك، كان عليه أن يذهب أينما يرغب، ويعمل كيفما يحلو له، وعلى مسئوليته الخاصة

وقالت الملكة صراحة، أنها مستعدة أن تتنكر له اذا ثبت أن ذلك ملائم ولم يكن لدى دريك أية معارضة، لكل ماقالته الملكة. لذلك استطاع أن يلقن الأسبان درسا كى يكونوا أكثر حرصا فى معاملة الانجليز، وما يتمخض عن ذلك سيكون موضوع المحاضرة التالية.

وكان الأب بارسونز، قد قال أن التجار البروتستانت فى لندن، قد أصبحوا مختنثين، ولا يجرءوا على خوض الحرب. ومن خرائب مدنهم المحترقة كان على الأسبان أن يعلموا أن الأب بارسونز قد أساء فهم مواطنيه. واذا كان دريك يهمه الأعمال الطويلة، فان عليه أن يترك سطور فرجيل التى تقشت فوق الأسلحة الأسبانية فى سنت دومنجو.

((الفصل السادس))

البعثة العظيمة الى جزر الهند الغربية

كانت الملكة اليزابيث وزوج اختها فى أسبانيا، من أنصار المبادئ المعارضة للحرب، ولكن كان ذلك فى شئ من التحفظ، ففى داخل أنفسهم لم يكن لديهم الرغبة فى النزاع، ولكن كان كل واحد منهما تدفعه الأقدار والظروف – ففيليب كانت تدفعه مبادئ عقيدته الكاثوليكية، واليزابيث كان يدفعها المتحمسون للحرية، ويدفعها أيضا نصيحة رجال الدولة الذين لم يروا أمنا الا فى الجسارة، ومع ذلك كان لكل منهما الرغبة فى السلام، وكان كل منهما يرفض أن يرى السلام مستحيلا، ولكن مع ذلك اكره كل منهما على الاستسلام لرغبات رعاياه. فكان على فيليب أن يهدد انجلترا بالغزو، وكان على اليزابيث أن توضح لفيليب أن انجلترا تمتلك ذراعا طويلة. وهذا الذراع سيجعل العقل الأسبانية تخاف خوفاً شديداً. وكانت تلك حالة شاذة، وقد أثار فيليب حنق الأرثوذكسية، وتجرأ على أغضاب روما، وذلك بالأبقاء على سفير فى بلاط اليزابيث بعد حرمانها كنيسيا.

وقد جاهد (فيليب) باخلاص صادق لايشوبه الشك لعقد صلح، وقد تبين ذلك من خطاباته السرية، وبتنازل الملك من أجل السعى للصلح، على الرغم من دريك، ورحلة (السفينة بليكان) Pelican مع أن (فيليب) قد ساعد البابا فى اشعال نار الفتنة فى ايرلندا. وشجع (فيليب) أيضا رعايا اليزابيث من الكاثوليك، بأن يقوموا ره تلو الأخرى. وقد رضى أيضا عن المحاولات الخاصة بالتخلص منها (أى من اليزابيث) مثلما تخلص من قبل من أمير الأورانج. وقد ثارت اليزابيث، ولكن دون حماس كبير، حيث أنها سمحت لجنودها بالتطوع فى خدمة الأراضى المنخفضة الثائرة، وسمحت للقراصنة الانجليز بأن ينهبوا المستعمرات الأسبانية، وأن يستولوا على سفن الذهب، وأن ينتقموا للأخطاء التى أرتكبها الأسبان.

ولعل كل منهما رغب من وراء ذلك أن يوضح للآخر، ماذا ستكون تكلفة الحرب العلانية أو المفتوحة بالنسبة لكل منهما. لهذا تراجع كل منهما عندما بدا أن الحرب آتية ولا مفر منها.

وأخذت الأحداث مجرياتها. وقد تطرفت هولندا وزيلاند Holland and Zealand ، الى حد أنها طلبت الأندماج مع انجلترا. ولكن بضربة مضادة، وكتحذير استولى فيليب على السفن الانجليزية التي تحمل القمح وسجن أصحابها وبحارتها.

ولم يكن اسطولها (اليزابيث) يمثل أي شئ يذكر. لذلك اعتقد أمن الشواطئ الانجليزية على عاتق المغامرين. ولم تستطع (اليزابيث) أن تتكفل كبح جماح الغضب الذى به استقبلت الأخبار. ولكى تقبل اليزابيث عرض الولايات، فإن قام ذلك يعنى الحرب التى لا تريدها. وهى سوف لا تتصرف بنفسها بالمرة، ولكن بأسلوبها المألوف، لأنه من المحتمل أن تدع رعاياها يقومون بذلك بأنفسهم، ودافعت عن نفسها بأنها لا تستطيع أن تكبح جماحهم. وفى ذاك الوقت، دافع فيليب عن محاكم التفتيش واستباح لهذه المحاكم العذر.

لهذا وجد دريك نفسه فى سبتمبر عام ١٥٨٥ م على رأس اسطول مكون من ٢٥ سفينه، من سفن القراصنة، ٢٥٠٠ رجل، كانوا قد تطوعوا للعمل معه، وتحت قيادته. ومع ذلك لم يكن هناك مهمة واضحة وكانت هذه البعثة ملاءمة لقيامها بهذا العمل الخاص. فلم يكلف الضباط ولا البحارة لخدمة التاج، لذلك نجدهم لم يحصلوا على أجور. ومن وجهة نظر القانون فانهم كانوا قراصنة. وقد واصلوا من تلقاء أنفسهم اعطاء درس هام لملك أسبانيا الذى دفع نفقاتهم على حسابه. وقد اشعلت انجلترا البرتستانتية الطيبة النار. وقد الهب اسم دريك الحماس فى كل قلب بروتستانتى، كما دفع اسم دريك أيضا مئات من الأشراف الجسورين الى الانضمام اليه. وقد انضم كذلك الى دريك حفيد بروغلى Burghley وابن الأدميرال ادوارد ونتر Edward the Admiral Son's Winter

وفرنسس كنولس Francis knolles، ابن عم الملكة، مارتن فروبشر Martin Frobisher، كرستوفر كارليل Christopher Carlile. وقد رغب فيليب سدنى Philip sidney، أن يقوم ببعثة من أجل تحقيق المجد، ولكن كانت هناك حاجة اليه فى مكان آخر. وقد أمكن كسب موافقة الملكة فى فترة صاخبة من فترات مزاجها المتغير. وسوف تنقضى هذه الفترة العصيبة، وكان بروغلى قد أرسل الى دريك رسالة سرية كى

يرحل قبل أن يتغير مزاجها (أى مزاج الملكة) المتغير. وكان هناك التزام بالصمت. وفى صباح اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر، ارتفعت راية من المركب الرئيسى لدريك معطية اشارة الرحيل، ومع ذلك فلم يكن دريك واثقا من استمرار صاحبة الجلالة السماح له، ولمن معه بمواصلة العمل.

فاذا تجاوز دريك أوشانت Ushant، فلم يكن من الممكن استدعاؤه ثانية وانجرفوا مع التيار عبر الخليج بواسطة رياح خفيفة وهادئة. وتقابل دريك ومن معه مع مجموعة صغيرة من الفرنسيين المتجهين من الشواطئ الى وطنهم، وقد سمح دريك للفرنسيين بالمرور دون أى أذى. وفى اليوم التالى، التقوا مع سفينة أسبانية كبيرة كانت مشحونه بسمك مملح طازج، فاعتبروها مكافأة شرعية، وكان هذا السمك من نوع جديد، وفريد، ووزع فيمابين سفن الأسطول. ويتمهل تركوا فنستر Finisterre ، وواصلوا المسير الى جزر البايونا bayona ، الواقعة عند مدخل ميناء فيجو Vigo . وهناك ألقوا بمراسيهم، وكانت رؤيتهم أمرا عظيما. وأصابت الدهشة الحاكم الأسبانى. دون بدرو بمادرو و Donpedro Bemadro ، الذى حاول معرفة هؤلاء الأشخاص معرفة حقيقية. وأجاب دريك على أسئلة هذا الحاكم بسؤال مقاده، اذا كانت انجلترا وأسبانيا فى حرب، واذا لم يكن كذلك، فلماذا اعتقل التجار الانجليز (من جانب الأسبان). وقال بدرو أنه لم يعرف أن هناك حربا، وأما بالنسبة للتجار الانجليز فقد تلقى أمرا يقضى باطلاق سراحهم. وأما دريك فقد رد على بدرو بأن أنزل جزءا من قواته على الجزر، ولم يستطع بدرو التصرف حيال هؤلاء الزوار، فوجد أنه من الأفضل أن يسترضيهم بشحنات عربات من النبيذ والفاكهة. وكان الطقس – الذى كان حتى الآن صافيا – قد أظهر أشارات أو دلائل على التغير. فقد هبت الريح، وهاج ما البحر، وأصبح المرسى مكشوف، واذا أرسل دريك كريستوفر كارليل – ومعه دى سفنه، وعدد قليل من المراكب الشراعية الصغيرة – الى الميناء، كى يتفحص مأوى أفضل، وقد نتج عن ظهور هذه المجموعة ذعر فى المدينة، عندئذ، لجأ السكان المذعورون الى قواربهم، وهم يحملون معهم ممتلكاتهم ونفائس كنيستهم. وكان كارليل الذى كان معارضا للكلفانية والوثنية – مطلق اليدين فى الاستيلاء على جزء من هذه

الثروات.

واستولى (كارليل) على صليب كبير مصنوع من الفضة الخالصة كان قد أودع فى احدى القوارب، وكان هذا الصليب خاصا بالكنيسة الكبيرة فى فيجو Vigo واستولى كذلك على تمثال لمريم العذراء، التي يقال أن البحارة الانجليز جردوها من ملابسها. وعندما أصبحت عارية عاملوها معاملة مهينة.

وكان تقرير كارليل، مرضيا وعاد كل الأسطول فى اليوم التالى الى الميناء ورسى أمام المدينة. وفي ذلك الوقت انتشرت الأخبار فى الوطن، ووصل حاكم جاليشيا Galicia وبرفقته جميع القوة التى استطاع جمعها على وجه السرعة، ومن المحتمل أن يكون قد قدم فى وقته، كى ينقذ فيجو نفسها. وأما بالنسبة لدريك، فلربما يكون له أهداف أخرى، فلم يهتم بأن يعوقه هدف أصغر. وعلى أية حال، فقد رأى الحاكم (الأسبانى) أن الانجليز كانوا بالقوة التى لا يستطيع معها التدخل، فكان من الأفضل له أن يبحث عن وسيلة يقنعهم (أى الانجليز) بها كى يذهبوا بعيدا بأفضل الشروط. والتقى كل من القائدين دريك وبدرو فى القوارب، وذلك بغرض التفاوض. وكان دريك فى حاجة الى المياه والى المؤن الطازجة. وسمح لدريك بأن يدعم نفسه دون ازعاج أو قلق. فقد حصل على كل ما يحتاج اليه. وقد بين دريك لملك أسبانيا أنه لم يكن من المتعذر انزال الضرر بجلالته فى وطنه (أى وطن فيليب).

وبعد ذلك أبحر دريك بعيدا. دون أن يتحرش به أحد. وكانت مدريد فى ذعر فى هذا الوقت. وتجرأ الانجليز على اهانة الأمير الأول فى أوربا، وعلى ترابه المقدس. وقد بدا ذلك وكأنه حلم لشبه الجزيرة الأيبيرية نفسها واستمر مجلس الدولة مدة ثلاثة أيام يبحث معنى ذلك. وأصبح اسم دريك مألوفا للآذان الأسبانية. ومما لا يمكن تصوره أن دريك قد أتى فقط للأستعلام عن السفن التى تم الأستيلاء عليها، وعن البحارة الذين تم اعتقالهم (من جانب الأسبان). ولكن ماذا عن الملكة الانجليزية؟ أفلم تعرف أن وجودها يرجع فقط الى صبر فيليب؟ أليست هى على دراية بقوة ملك أسبانيا ؟ أفلم ترتعد هى وشعبها ؟ فانجلترا الصغيرة كما يقول البعض من الممكن أن تبتلع مرة واحدة بواسطة ملك يحكم نصف العالم. وكان الأدميرال العجوز سانتا كروز Santa Cruz ،

أقل ثقة بالنسبة لعملية الالتهام هذه، ولاحظ سانتا كروز هذا أن انجلترا لها أسنان كثيرة، فبدلا من التفاخر بالعظمة الأسبانية، فانه من الأفضل لهم أن يستعدوا بأنفسهم ضد ماقد تفعله حيالهم الملكة. وحتى ذلك الوقت، فان القراصنة Corsairs ، قد ظهروا فقط بأعداد ثنائية وثلاثية، فبأسطول كهذا يقف من ورائه (أى من وراء دريك) فانه فى هذه الحالة كان فى امكانه أن يذهب أينما يحلو له. وربما يذهب الى البحار الجنوبية حرة ثانية. ويمكن له فى هذه الحالة أن يستولى على جزر الماديرا اذا رغب فى ذلك أو جزر الكنارى. واعتقد سانتا كروز نفسه أنه فى الأمكان أن يفعل شيئا لصالح جزر الهند الغربية وبنما، ونصح بارسال كل سفينة متاحة الى هناك وعلى وجه السرعة أى كل سفينة موجودة تحت أيديهم (أى الأسبان).

وكان أسطول الذهب هو الهدف الحقيقى لدريك، وكان لديه (أى لدريك) معلومات بأن الأسطول سيكون فى طريقه الى أسبانيا، مارا بطريق رأس جزر الفيرد Capedeverd Island وقد علم دريك بالوقت المتوقع فيه. وأبحر دريك من فيجو Vigo الى جزر الكناريا Canaries ، وهناك تفحص مدينة وميناء بالما Palma، بهدف المتعة، ولكنه (أى دريك) وجد الرسو خطيرا، فالمدينة نفسها ليست جديرة بالمخاطرة، لهذا واصل المسير الى رأس الفيرد Verd . وفى ذلك الوقت، لم يحدد دريك وقته على وجه الدقة، فكان أسطول الذهب قد وصل وغادر، وكان دريك قد وصل بعد مغادرة اسطول الذهب بـ ١٢ ساعة، والسبب وكما قال " بنتنهد" يعلمه الله تماما، وبذلك ضاعت فرصة استيلائه على الغنيمة المالية. ولكن الغرض السياسى للبعثة كان لايزال من الممكن انجازه، ولا يمكن الابحار بعيدا عن جزر رأس الفيرد، ومن الممكن أن توجد البداية فى سنتياجو santiago التى كانت مدينة مزدهرة وعامرة بالسكان وفى كتاب دريك بصـ خاصة، ملاحظة هامة، هو أن بعض بحارة بليموث قد اغتيلوا هناك، ودائما مـن كريستوفر كارليل قريبا منه وموثوقا به. فقد نزل الى الشاطئ وبرفقته ١٠٠٠ من الرجال ليهاجم المكان على الجانب غير المحمى. فعندئذ هرب القائد الزسبانى، والأسقف سعظم السكان - كما حدث فى فيجو - الى الجبال، ومعهم نفسائهم وأموالهم. فدخل كارليل دوم مقاومة تذكر، ونقل صليب القديس جورج St. George's

Cross، من القلعة ووضعه على الأسطول كعلامة. ودخل دريك ورست البقية من قواته، واستولى على الممتلكات. وكان ذلك فى السابع عشر من شهر نوفمبر من نفس العام، وهو اليوم الموافق لعيد جلوس جلالة الملكة The anniversary of the Queen accession، فزينت السفن وبطاريات المدفعية بالأعلام الأنجليزية، واحتفل فى هذه المناسبة باطلاق نيران المدافع وفتشت المنازل والمحلات وسلبت، ووجد فيها النبيذ بكميات كبيرة، كماوجدت فيها سلع ثمينة خاصة بالتجار الهنود. علاوة على وجود أشياء أخرى ثمينة ومع ذلك، فلم يحصلوا على ذهب ولا على فضة، فجميعها قد نقلت. وانتظر دريك مدة ١٤ يوما، كان يأمل أثناءها بأن يتفاوض الأسبان معه من أجل افتداء المدينة. ولما لم يلمحوا أو ولما لم يبدوا أية أشارة على ذلك، تقدم دريك مسافة ١٢ ميلا فى الدخل، نحو قرية حيث قيل أن الحاكم والأسقف قد لجأ الى هذه القرية. ولكن وجدت القرية مهجورة. فقد ذهب الأسبان الى الجبال، حيث كان من غير المفيد أن يتبعوهم (أى يتبع دريك الأسبان). ورفض الأسبان بكبرياء التفاوض مع رئيس القراصنة (دريك). وكانت مدينة سانتيا جو مبنية بطريقة جميلة. وكان من المحتمل أن يبقى دريك عليها. ولكن صبى السفينة الذى كان قد ضل وجد مقتولا ومشوها بطريقة وحشية. عندئذ، صدر الأمر بالحرق (الزمر من دريك) فتحولت المنازل والمحالات العامة والكنائس الى رماد، وبعد أن تم له ذلك واصل رحلته – كما توقع سانتا كروز– الى جزر الهند الغربية. وكان الأسبانيون على درجة كبيرة من الروعة فى كل شئ صنعوه أو لمسوه. فقد بنى الأسبانيون مدنهم فى ممتلكاتهم الجديدة على أعظم الأنماط. روعة للعالم القديم. فكان لكل من سنت دومنجو St. Domingo ، وكارثا جينا قلاعها العظيمة القوية، وكتدرائياتها، وقصورها وميادنها وشوارعها، كالموجودة فى قادش وأشبيلية Seville، وأقيمت كآثار خالدة تدل على قوة وعظمة الملوك القشتاليين. وقد قصد دريك أن يزور هذه الأماكن.

وفيما وراءهم، كان يوجد البرزخ، حيث حقق شهرته الأولى وحظه، وفيما وراء بنما، كان يوجد مستودع الثروة الهندية. وحتى الآن، كان كل شئ يسير سيرا حسنا معه. فقد أخذ دريك ماهو فى حاجة اليه من فيجو، ودمر سنتياجو، ولم يفقد رجل واحد

ولسوء الحظ فانه كان لديه فى ذلك الوقت، عدو أسوأ من السفن الأسبانية الشراعية الضخمة، أو من الحاميات الأسبانية. ففى هذا الوقت كان دريك فى قيظ من المناطق الأستوائية، فقد اندلعت الحمى الصفراء،وانتشرتبين أفراد كل من الأسطول وتمكنت منهم وقد شفى القليل من هؤلاء، الذين أصيبوا بالعدوى بعض الشئ، ولكن لأن نفوسهم كانت محطمة، وكانت الحمى سريعة فى تأثيرها، فقد مات منهم فى أيام قليلة أكثر من ٢٠٠ شخص. ولكن هبت الرياح الشمالية الشرقية بدرجة خفيفة، فاندفع الأسطول أمامها، وفى خلال ثمانية عشر شهرا، اتخذوا طريقهم الى الدومنيكانDominican – جزيرة المجارى المائية الصغيرة (الجداول) والأنهار ، والفاكهة – ولم يكن الليمون المالح و الحمضى والبرتقال قد وجد بعد، ولكن كانت توجد أوراق وجذور لنباتات تنموا نموا طبيعيا، وهى معروفة للكاريبيين كعلاج للحمى، ولما علم الكاريبيون بأن الانجليز كانوا أعداء للأسبان، أحضروا لهم هذا العلاج النفيس، وعلموهم كيفية استخدامه وفى تلك الأثناء، غسلت السفن وهويت، وأعيد ملئ البراميل الخشبية بالمياه. وبدا أن العدوى قد انتهت فجأة مثلما ظهرت فجأة، ومرة ثانية سار كل شئ على مايرام.

واحتفل بعيد رأس السنة فى سنت كيتس St.Kitts التى لم تكن مسكونة. وعقد مجلس حرب لبحث الخطوة التالية. وتقع سانت دومنجو على مقربة منهم، فهى من أجمل جميع مدن المستعمرات الأسبانية، فكانت العاصمة لحكومة جزر الهند الغربية، كما أنها كانت المركز الكبير لتجارة جزر الهند الغربية أيضا، وفى الكتدرائية، وأمام مذبحها المرتفع وضع تمثال كولبس وشقيقه ديجو Diego .

أما فى مجال الثروة الطبيعية، فليست هناك جزيرة فى العالم تنافس اسبنولا Espinola، التي تقع فيها المدينة. وهناك تجمع سكان كثيرون، حيث كانوا بعيدين عن الإدارة، وحمتهم كما اعتقدوا هيبة الوطن الأم ، وتقريبا أبيد السكان الوطنيون، ولم يمنوا بأنفسهم بأنه فى استطاعة أى عدو الاقتراب منهم من المحيط، لهذا أهملوا الدفاع واكتفوا بأمن يسير.

وكان علي دريك أن يعطيهم تجربة جديدة، ودرسا للمستقبل، وادرك المغامرون الذين . كانوا فى طريقهم من سنت كيتس سفينة صغيرة، وكانت متجهة الى نفس

الميناء، الذين كانوا متجهين اليه (دريك ومن معه). وعلموا (أى المغامرون) من طاقم هذه السفينة أن ميناء سنت دومنجو كان يتكون مثل كثير من الموانئ الأخرى، فى جزر الهند الغربية، من السنة رملية طويلة، التى تعمل كحاجز طبيعى للأمواج. وكان المدخل لهذا الميناء عبارة عن خليج ضيق يقع فى نهاية اللسان الرملى. وهناك نصبت من فوقه المدافع لحمايته. وكان الرسو فى الجانب الخارجى من الرصيف الرملى مستحيلا، بسبب شدة الأمواج، التي تلاطم الشاطئ. وكانت هناك نقطة واحدة محمية فقط، حيث يمكن للقوارب أن تصل الى الشاطئ، ولكنها كانت تبعد عشرة أميال من المدينة.

ولم تكن العشرة أميال الامسيرة صباح. ودخل دريك بنفسه فى مركب شراعى صغير. وقام يمسح مكان الرسو واقتنع بنفسه من أمنه. وكانت خطة هجوم سنتياجو من الممكن أن تتكرر بالضبط، وفي عشية رأس السنه الجديدة، رسى كرستوفر كارليل مرة ثانية بنصف قوة الأسطول. وبقى دريك مع البقية، واستعد ليشق طريقه بالقوة الى مدخل الميناء، اذا نجح كارليل. وقد رصدت المدنية مجيئهم، فأعطت اشارة الأنذار، فأرسل النساء والأطفال، وأموال الخزانة والنفائس الموقوفة، وجميع الأنواع من الملكيات المنقولة الى داخل البلاد للأحتياط. يبدو أنه لم يكن يوجد هناك قوات نظامية، ولكن فى مدينة مكتظة السكان كهذه، لم يكن من الصعب جمع قوة كبيرة للدفاع عنها. وكانت قوة الفرسان تتكون من النبلاء الأسبان. ولم يكن الناس بصفة عامة معتادين على استخدام الأسلحة ولكنهم كانوا أسبانيين وشجعان، بحيث صمموا على ألا يتركوا منازلهم دون أن يدافعوا عنها. وظل كارليل ساكنا دون حراك طوال الليل. وفى الساعة ٨ صباحا، واصل المسير فى أول يوم من أيام السنة الجديدة، وتقدم بتمهل، وعند الظهر وجد نفسه (كارليل) أمام السور. والى هذا الحد لم يقابل أى مقاومة، ولكن قامت قوة كبيرة من الفرسان الذين تكونوا من النبلاء و أتباعهم بهجوم عليه، من الأدغال ومن المدينة نفسها، عندئذ قام بتنظيم قواته فى شكل مربع لملاقاتهم، وتقدم النبلاء الأسبان بشجاعة، ولكن استقبلوا بالرماح والنيران، وبعد محاولات قليلة تراجعوا، تقهقروا. ووجد كارليل أمامه بوابتين، وكان الطريق اليهما يمر من خلال غابة. وعند كل بوابة وضع مدفع، وملئت هذه الغابة بالجنود المسلحين ببنادق، عندئذ قسم كارليل رجاله وهاجم

بهما معا، وكان هو قد قاد جزءا بنفسه (كارليل). ولكن فتح المدفع نيرانه عليه وقتل رجل انجليزى بجواره. فقام هو (كارليل) بهجوم بحيث لم يعد للأسبان فرصة لأعادة تعمير المدفع. وفى هجمة واحدة اكتسح (كارليل) البوابة، وشق طريقه عبر الشوارع الى الميدان الكبير.

وأما القسم الثانى، فقد نجح هو كذلك، واستولى على سنت دومنجو عدا قلعتها، التى لم يتمكن من الأستيلاء عليها. وكان عدد جنوده (كارليل) صغيرا بحيث لم يستطيع احتلال مدينة كبيرة. وشيد (كارليل) على وجه السرعه حواجز، وحصن نفسه فى الميدان لمدة الليل. وعند قدوم الليل جاء دريك على رأس الأسطول، ونصب المدافع عندما استسلمت القلعة وأرسل رسولا - ولدا زنجيا - الى الحاكم ليخبره بالشروط التى أعدها (دريك)كى يجئ لينقذ المدينة من النهب. وكان الضباط الأسبان يتألمون من الخزى. وضرب واحد منهم (أى من الضباط الأسبان) الصبى فى جسمه بالرمح. وعاد هذا الصبى الى الخطوط الانجليز وهو يدمى، ومات عند أقدام دريك. وكان السير فرانسيس دريك هذا رجلا خطيرا عند الغضب. فأعمال كهذه كان من الواجب أن توقف فورا. وفى الجزء الذى كان يحتله من المدينة. وجد فيه ديرا كان به عدد من الرهبان. فالجماعات الدينية التى عرفها جيدا، كانت من المحرضيين الأساين للسياسة التي كانت تغضب العالم أو التى أغضبت العالم بالفعل. وأرسل (دريك) اثنين من هؤلاء الرهبان مع قائد الشرطة العسكرية الى البقعة التي طعن فيها الصبى (الزنجى) وعلى الفور شنقهما، وبعد ذلك أرسل شخصا آخر ليخبر الحاكم بأنه سيشنق أكثر من اثنين كل يوم، فى نفس هذا المكان حتى يعاقب الضابط (الأسبانى). وقد تعلم الأسبان أن ينادوا دريك بالمكار أو بالشيطان. وخشى (الأسبان) أنه من المحتمل أن يكون الشيطان (دريك) رجلا فى كلمته، واستسلم مرتكبوا الخطأ.

وهذا لم يكن كافيا، وأصر دريك على أنه ينبغى عليهم أن يطبقوا العدل عليه بانفسهم، وقد وجد الحاكم (الأسبانى) أنه من الحصافة أن يستجيب أو أن يذعن، بسرعة أعدم الضباط.

وكانت النقطة الثانية تتمثل فى عملية افتداء المدينة، ولما كان الأسبان لا يزالون مترددين، كان ٢٠٠ من رجال (دريك) يهددون باشعال الحرائق كل صباح، بينما كانت البقية تقوم بتفتيش القصور والمستودعات والمخازن. وكان مقر الحكومة أكبر بناية فى العالم الجديد، حيث كان هناك درج عريض من الرخام يصل الي مقر الحكومة. كما توجد أبواب كبيرة تطل على رواق فسيح، يقود الى صالة كبيرة. ومن أعلا هذا الرواق كانت تتدلى على رواق فسيح، يقود الى صالة كبيرة. ومن أعلا هذا الرواق كانت تتدلى الأسلحة الأسبانية، كما وجدت كرة أرضية تمثل العالم، ومن فوقها يقفز حصان، وفى فمه لفافة من ورق البردى بشعار ينم عن الغطرسة والكبرياء يقول – العالم ليس كافيا – وقد سوى هذا القصر، ومعه شعار النبالة هذا بالأرض بواسطة المعول والبندقية. واستمر التدمير كل يوم ولمدة شهر، وفى تلك الأثناء ازدادت مطالب دريك باستمرار، وكانت توسلات الحاكم الأسبانى مستحيلة وذهبت سدى..

ولم يسمع من قبل عن مثل هذه العربدة والقسوة فى الأمم المتحضرة، وكان هذا وصمة للقضية البروتستانتية، فجدير بدريك أن يشنق على عتبه داره وهكذا، فلم يتوقف صوت الليبرالية البروتستانتية الساخطة على الصراع.

ولكن يجب ألاننسى أنه لمدة خمس عشرة سنة، قام الأسبان بحرق البحارة الانجليز أينما استطاعوا الامساك بهم، وتآمر الأسبان أيضا على قتل الملكة، بل على ارغام انجلترا نفسها أن تكون تابعة للبابا.

وقد وردت الجماعة المخلصة فى الأمة الانجليزية على هذا الزعم أو الحجة البربرية، وذلك بأيدى أمير بحرهم. فاذا اختار فيليب تشجيع القتلة، واذا اختارت محاكم التفتيش أن تحرق البحارة الانجلين، كمهرطقين، فان هؤلاء المهرطقين فى هذه الحالة سيكون لهم الحق فى جعل أسبانيا تفهم أن لعبة كهذه تكون لعبة خطيرة. هكذا، وكما قال سانتا كروز بأن لديهم (أى الانجلين) أسنانا ويستطيعون استخدامها.

واكتشف فى النهاية، أن رجاء الحاكم للمستحيل كان أكثر حقيقة مما كان يعتقد فيه من قبل. وفى الواقع نقل الذهب والفضة، وكل الأشياء الأخرى التى كانت قيمة، فاما أحرقها الانجليز أو استولوا عليها . ولكن تدمير مدينة مبنية على أساس قوى

ومتين، كان أمرا صعبا وشاقا، ولكن مع ذلك فقد دمر نصفها تقريبا، وأبقى على الكتدرائية، وربما على مكان اقامة كولمبس. وبعد ذلك، كان أمام دريك عمل آخر. فبعد المكوث شهرا فى عمل غير مزعج وافق دريك على قبول ٢٥ خمس وعشرين الف من الدوكات كفدية فى مقابل ماتركه دون تدمير بعد ابحاره. كان ذلك فى شهر فبراير. وفى هذا الشهر كان الصيف الحار على الأبواب، عندئذ سيصبح المناخ خطيرا. وكان لايزال يوجد هناك الكثير من العمل، ويمضى الوقت بسرعة، وكان من الواجب ترك بنما فرصة أخرى. وكان هدف دريك أن يوجه الضربات التي ستهز ثقة أوربا فى قوة أسبانيا. وكانت كارثا جينا Carthagena التالية، ليست دومنجو، وهى من بين الحصون الأسبانية فى جزر الهند الغربية. وكان الموقف قويا. ففى عام ١٧٤٠، كان فى مقدور كارثا جينا سحق فيرنون vernon واسطول انجليز كبير، ومع ذلك ، كان بحارة دريك فى صحة وروح معنوية عالية. وعزم دريك أن يفكر فيمايستطيععمله. ولم يعد يأمل فى هجوم مفاجئ. ومع ذلك انتشر الذعر فى البحر الكاريبى. وفى هذا الوقت كانوا على آتم الأستعداد للذهاب الى أى مكان، والقيام بأى عمل فاتجهوا الى كارثا جينا. وفى هذا الوقت كان الرعب يسبق اسم دريك. فكل المدنيين – سواء أكانوا رجالا مسنين أم نساء، أم أطفالا – قد أبعدوا قبل وصوله (دريك) ومع ذلك، فقد استعدت البقية لدفاع قاس. وقد تكون ميناء كارثا جينا من ألسنة رملية، مثلما كان الحال فى سنت دومنجو، وميناء رويال. وكان هذا اللسان الرملى طويلا وضيقا، وكان لا يبلغ عرضه فى أماكن كثيرة ٥٠ ياردة، وكانت الادغال الشوكية تغطيه، وعلى طول هذا اللسان، وكما سبق من قبل، كان من الضرورى القيام من أجل الوصول الي المدينة. وقد حفر خندق عبر البوغاز، وشيد مانع قوى وسلح بالمدافع الثقيلة، وفيما وراءه كان يوجد العديد من مئات الجنود المسلحين بالنبادق، بينما ملئ الدغل (الأحراش) بالهنود المسلحين بالسهام المسمومة. ودقت الخوازيق المدبية – المسمومة أيضا – فى الأرض على طول طرق الاقتراب، وكان الشخص الذى يخطوه عليها كان مصيره الموت. وكانت هناك سفينتان شراعيتان كبيرتان مزودتان بمجاديف، ومملوئتان بالرجال، تقومان بأعمال الدورية على حافة الميناء. وكان أمل السكان أن يبقوا دريك المرعب فى مكانه، حتى لا يصل اليهم.

ومثل ماحدث من قبل، كان على كارليل أن يخوض المعركة برا. واتخذ مكانا على الشاطىءعلى مسافة ثلاثة أميال جنوب اللسان الرملى. وكان المد والجزر خفيفا فى هذه البحار، و لكن كارليل انتظر حتى تلاشى هذا المد والجزر وتقدم على طول الشاطئ من الخارج عند انخفاض منسوب المياه، التى كانت طلقاتها النارية تمر من فوقه. وظهرت سريتان من الخيالة، ولكنهما لم يستطيعا أن يفعلا أى شئ بالنسبة له (أى كارليل) فى الأرض غير الممهدة. وزحف الانجليز الى السور، دون أن يفقدوا رجلا واحدا. وكان الانجليز قد هاجموا وتسلقوا المتاريس، وأجبروا المشاه الأسبان على التقهقر بأسنة الرماح، وقتل كارليل قائدهم بيده، وهربت البقية بعد معركة قصيرة، وأصبح دريك سيدا لكارثا جنيا. وهنا بقى دريك مدة ستة أسابيع. وأنسحب الأسبانيون الى خارج المدينة. ومرة ثانية، كان هناك تفاوض على فدية مالية، وتبودلت المجاملات فيمابين الضباط. و استضاف دريك الحاكم و حاشيته ورد الحاكم الضيافة، واستقبل دريك وضباطه الانجليز، وطلب دريك ١٠٠,٠٠٠ من الدوكات. وقدم الأسبان ٣٠,٠٠٠ من الدوكات فقط، واعتذروا لأنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أكثر من ذلك. وكان من المحتمل أن يستمر الصراع، مدة أطول من ذلك، ولكنه اختصر بسبب ظهور الحمى الصفراء مرة ثانية فى الأسطول. وفى هذا الوقت، كانت قاتلة بدرجة كبيرة وقبل عرض الأسبان تركت كارثا جينا لأصحابها. وقد حان وقت الرحيل، لأن الحرارة كانت قوية التأثير، وبدأ الرجال فى التساقط بسرعة مروعة، وكانت بنما قريبة وتحت حمايتهم، والقى دريك بعينيه الشغوفتين على مايمكن أن يستولى عليه بسهولة. ولكن عند استعراضه لقواته وجد أن هناك ٧٠٠ جندى ملائمين للعمل، وهم الذين يمكن الأبقاء عليهم للخدمة. عندئذ قرر مجلس الحرب أن المسير عبر البوغاز بقوة صغيرة كهذه، يكون من الخطر أن يغامر به، وقد أنجز ما يكفيه للعظمة أو للشهرة، ومايكفى للأثير السياسى فى أوربا. وقد تحدى (دريك) ملك أسبانيا فى ممتلكاته. وقد تم الأستيلاء بالقوة على ثلاثة مدن أسبانية جميلة، بحيث أصبحت رهينة للفدية. وفى جوانب أخرى، كان النجاح أقل مما هو متوقع.

وفى ذلك الوقت ، لم يستولوا على الكاكافيوجو Cacafuego ، ولا على انتاج المناجم السنوى (التابع لأسبانيا). ونقلت المعادن النفيسة والعملة. ولم يكن من السهل اعادة الغنائم بصورتها هذه الى ما كانت عليه من القيمة، وكانت الحملة قد اعدت بواسطة أفراد خصوصيين، حيث أنهم تحملوا تكاليفها. وكانت هذه الحملة قد حققت ربحا قدره ٦٠,٠٠٠ ألف جنيه، منها أربعون الف نفقات، أما العشرون الف جنيه الأسترلينى المتبقية فقد قسمت بين شركات السفن. وكان الضباط والجنود الذين ساهموا فى هذه البعثة لم يتقاضوا أجورا سواء أكانوا من الرتب الكبيرة أم الصغيرة، على أمل ما يحصلون عليه من غنائم. وقدم الضباط و أصحاب السفن دليلا عظيما على الروح الممتازة التى بها باشروا عملهم، لهذا قرروا التخلى عن مطالبهم فى الفدية المدفوعة عن مدينة كارثا جنيا، بل طالبوا بمنحهم نفس مايمنح الي البحارة العاديين، ومرة ثانية، كانت رغبتهم الملحة تتمثل فى حصولهم على مكافأة نظير محاولاتهم المؤلمة.

وكان الجميع مقتنعا تمام، ومدركا لكل ذلك، وقد أدوا واجبهم نحو ملكتهم، ونحو وطنهم. وعاد اسطول المغامرين الى الوطن فى مطلع شهر ابريل وقد انجز الرجال ما استطاعوا انجازه. ولم يستطيعوا أن يخوضوا حربا ضد وباء المناطق الأستوائية. وبعد مضى عدة أيام انتشرت الحمى الصفراء، فيمابينهم، وقامت بعملها المميت، ولكنها أخمدت ببطء، وتأخروا بسبب الرياح المعاكسة الهادئة. ونقصت مياه الشرب، وكان عليهم أن يرسلوا مرة ثانية عند رأس انطونيو Cape Antonio ، وهى النقطة الغربية من كوبا، وهناك سيقومون بحفر الابار التى سيزودون أنفسهم منها بالمياه. ومن الملاحظ أن دريك نفسه عمل بالمسحة والدلو، مثل ما فعل أى شخص فى الجماعة. ودائما، وفى المقام الأول، كان يتحمل العمل الشاق ليحوز علي الشرف. وكان هو الأكثر حكمة فى استنباط المشاريع. وكان هو الأكثر هدوءا فى وقت الخطر. فهو الأول فى أعطاء المثل للنشاط، فكان عليه أن يقوم بمواجهة الصعوبات، وفوق كل ذلك كان أكثر ثباتا فى المحافظة على التعليمات والنظام.

وقد خفت حدة الحمى الصفراء، عندما وصلوا الى خطوط العرض الأكثر برودة. وشقوا طريقهم الى قناة البهاما، و اتجهوا شمالا كى يتجنبوا المراكز التجارية. وكان

البروتستانت الفرنسيون قد حاولوا تأسيس مستعمرة فى فلوريدا وقد بنى الأسبانيون حصنا على الساحل كى يراقبوا منه مستوطناتهم. (أى المستوطنات الأسبانية) أو كى يراقبوا منه مستعمراتهم، وكانوا يقطعون رقاب الهنجوت كلما حانت الفرصة. وأثناء مرور دريك قام بزيارة لهذا الحصن ودمره. ومرة ثانية، كان فى أقصى الشمال، فى الوقت المحدد لكى ينقذ ماتبقى من المستعمرة الانجليزية، التي كانت قد أسست هناك على عجل بمعرفة أحد الأبتاع الأذكياء للملكة اليزابيث.

وكان السير وولتر رالى Sir walter Raleigh ، من المشهورين فى عصر اليزابيث الذى كان من المثيرين للأهتمام بدرجة كبيرة، بسبب مواهبه المتعددة والممتازة، وبسبب حظوظه المتفاوته، ونهايته القاسية، والذى سيحفظ التاريخ الانجليزى ذكراه. وتعد انجازاته العظيمة أكثر مما هم (الانجليز) أنجزوا. فكانت يده فى كل شيء، ولكن رغم العمل الناجح الكامل كان هو أقل من الآخرين، الذين يكونون فى مستوى أدنى منه، والذين قدم لهم الحظ فرصا أقل. فكان هو مشغولا بمائة مشروع فى وقت واحد، وفى كل واحد منها كان هناك بعض الاهتمامات بالنفس، والطموح الشخصى أو بهدف خاص يحقق. وكانت حياته سجلا للمشاريع التى بدأت بحماس. وفى النهاية، انتابها الفشل والقصور لعدم المحافظة عليها. وكان من بين مغامراته الأخرى، أنه أرسل جماعة من المهاجرين الى فرجينيا. وقد تصور أنه انقاد بواسطة الاخرين فى الأعتقاد بأنه كان يوجد هناك بلاط هندى متألق مثل بلاط منتوزوما Montezuma ، الذى يمثل أمه مستنيرة كانت تصرخ حتى يسمح لها أن تدخل الدائرة الساحرة لرعايا جلوريانا Glorina's subjects . وثبت أن امراءه وأميراته لا حقيقة لهم (أى أنهم أشياء خياليين فى الهواء) أو أنهم مجرد هنود همج، ولا يوجد شئ من بقايا والى هناك فى فرجينيا، سوى اسم المدينة التي حملت اسمه من بعده، فالذين لم يموتوا جوعا من سكان مستوطنته، الواقعة على نهر الرونوك Roanoke River ، أخذوا عند عودة دريك على متن اسطوله، ونقلوا الى وطنهم انجلترا فى ٢٨ من شهرر يوليو ١٥٨٦ م، حيث وصلوا جميعا بسلام، فالمجد لله، كما قال أسلافنا الاتقياء، الذين قصدوا الاخلاص غير التقليدى.

وكما قلت، فقد دفعت الحملة تكلفتها بالكاد. فالضباط لم يتسلموا روايتهم بأى شكل أو بأى صورة، ولكن منح كل واحد من البحارة جنيهات قليلة. ومع ذلك لا يوجد واحد منهم غير مسرور جدا بالشرف الذى عاد به الى وطنه. وهذا أفضل من عودته الى الوطن وهو محمل بالعملات الأسبانية الذهبية.

وفى غضون ذلك، روعت أوربا الكاثوليكية، وأدارات أعينها وبدأت ترى أن مغامرة إنجلترا، كان المقصود منها الغزو، آنذاك وليس من المحتمل أن تكون شيئا سهلا، كما وصفها الكهنة اللاهوتيون. والى هذا الحد، فقد قال الكهنة اللاهوتيون أن طالما كانت انجلترا بروتستانتية كلية، فانها كانت بروتستانتية فقط بحكومتها، بحيث أن الغالبية العظمى من السكان كانوا من الكاثوليك المخلصين الذين كانوا يتوقون الى العودة الى حظيرة الكاثوليكية، فعند ظهور مقدمة جيش الخلاص الأسبانى، فان كل الصرح الذى بنته اليزابيث سينها الى الأرض. فاعتقد أن ذلك حقيقة، وانه اذا تقدم العالم الى قمة التقدم المعاصر، واذا اصطدم بالحق المقدس، فمن المفروض أن يكون الحكم للأغلبية العددية، حتى بدون جيش أسبانى، فكان من الممكن للكهنة أن يسلكوا طريقهم. وقد سيطرت بلديات المدن البروتستانتية علي برلمانات اليزابيث.. وكان أى برلمان يختار بالتصويت العام، وبالدوائر الانتخابية. وكان من الممكن أن يرسل سيسل cecil، وولسنجهام Walsingham ، الى الحياة الخاصة، (أى الى التقاعد) أو الى المشنقة، عند ذلك يعاد القداس Mass الى الكنائس وتتحول الملكة اذا تركت على العرش الى تابع ذليل من أتباع فيليب والبابا. هذا ربما لم يكن ليدوم، ولكن على قدر حكمى الشخصى، فان ذلك ربما كان النتيجة المباشرة، وبدلا من أن يكون هناك حركة اصلاح، فقد يأتى النور فى شكل برق. ولكننى قد سألت أصدقائى الريديكاليين سؤلا مفاده ماذا يمكن عمله، أو ماذا يجب عمله اذا كان كل ثلثى مائة من الناخبين المستنيرين، سيعطون أصواتهم الى جانب واحد، لم يكن هناك دليل على ذلك، سوى أنهم كانوا خائفين أن يحاربوا، وأما عن الثلث الباقى فسوف لا يصوت فقط، ولكنه سيحارب أيضا، اذا كانت نتيجة التصويت فى غير صالحه ؟ فأيهما له الحق فى أن يحكم؟ أستطيع أن أخبرهم أن الذى سوف يحكم هو الأقلية الشجاعة القوية. ويقول افلاطون

أنه لو كان هناك رجل أقوى من جميع بقية الجنس البشرى، فأنه سيحكم كل بقية الجنس البشرى، ويجب أن يكون هكذا، لأنه لا رد فى ذلك. ويجب على الأغلبية أن تتهيأ لتثبت حقها الألهى (المقدس) بأيدها فى الحال أو فى حقها الألهى سيذهب سدى مثل الحقوق الألهية التى ضاعت من قبل. وأنا لا أعتقد أن العالم قد شيد بطريقة سيئة، بحيث أن هناك حقوقا لا يمكن أن تنفذ ويظهر لى أن صاحب الحق الفعلى فى الحكم فى أية أمة يتوقف على هؤلاء الذين يكونون أكثر شجاعة وقوة، سواء أكان عددهم كبيرا أم صغيرا. ومنذ ثلاثة قرون قرر أشجع وأفضل جزء من هذه الأمة الانجليزية – مع أن هذا الجزء يكون ثلث الأمة بأن البابا والأسبان لا ينبغى أن يكونوا أسياداً لهم.. ففي مثل هذه الأوقات المثيرة يتسع أفق الخيال. وفى القرن ١٦ م ظهرت قوة أسبانيا، كقوة لا تقهر، اذا أرادت أن تفرضها ، هذا ما تخيلته أوربا.

وكان من المحتمل أن يثور الهولنديون المهرطقون فى مقاطعة نائية وكان من المحتمل أيضا أن القراصنة الانجليز لهم مطلق الحرية فى التعامل مع التجار الأسبان. لذا جعل أمير بارما parma ، الهولنديين يشعرون بسادتهم أخيرا. وكان القراصنة كثيرين كالزنابير ببسمهم فى لدغاتهم، ولكنهم كانوا عاجزين على التأثير فى مجريات الأمور، بأستثناء رجال كهؤلاء الذين يتمتعون بحسن البصيرة مثل سانت كروز Santacruz. وقد اسقطت من الحسبان القوة الانجليزية فى البحر، بل اسقطت من حسابات موارد حكومة اليزابيث. وفجأة ارسل اسطول من نفس اساطيل هؤلاء القراصنة، الذى لم يكن مدعوما من قبل ملكتهم. وكان الدافع من وراء ارسال هذا الأسطول عدد قليل من الأشخاص. وكان هذا الأسطول قد الحق الضرر بأرض أسبانيا المقدسة. فقد أبحر هذا الأسطول الى فيجو Vigo ، وهناك نهب أفرادة الكنائس ، واستولوا على أى شئ هم كانوا فى حاجة اليه. وقد ذهب هذا الأسطول دون أن يتحرش به أحد، فقد هاجم أفراده وأقتحموه وحرقوا، أو أنهم فرضوا فديه على أفخم مدن المستعمرات الأسبانية، وعاد أسطول القراصنة هذا الى الوطن دون أن يحارب أحد، وكان على المتآمرين الكاثوليك أن يعترفوا بأن لهم عدوا – يواجهونه – أسوأ من البيورتان المجادلين، أو اسوأ من المفضلين المدللين من قبل البلاط. ووقف

البحارة الإنجليز من البروتستانت بينهم (أى بين الكاثوليك) وبين فريستهم، وكان عليهم أن يتقابلوا أو يتفقوا على مبدأ، هو عدم الانحناء للبابوات أو للأمراء، وذلك قبل أن تفكر مارى ستيوارت فى ارتداء تاج اليزابيث، وقبل أن يتوج آلن Allen كاردينالا لكنتربرى. ولم تتوقع اليزابيث نفسها – ولم يكن لها الرغبة – نجاحا بارزا كهذا.

وفى ذلك الوقت ، كان ينظر الى الحرب على أنها شئ محتوم. واحتج أدميرالات البحر الأسبان على أن الشرف القومى، يتطلب الانتقام بسبب الأذى أو الصراع المهين. واعتقد البابا أخيرا – الذى حرض فيليب مدة طويلة على الحرب – بأن الوقت قد حان الى أن يرغم فيليب على التحرك، ولكن فيليب نفسه فطن ليدرك أن المكائد، والؤمرات لم تعد تخدم ميوله. فكان من الواجب على فيليب أن يستخدم قوته بطريقة جدية، أو أنه من المحتمل أن يتخلى عنه شعبه، لأنه لا يستحق تاج ايزابيلا، وسمح البابا بأحجام بأن تعرض الحقيقة له (أى فيليب). وهو (فيليب) لم يحب أبدا فكرة غزو انجلترا. فلو تغلب عليها، فسوف لا يسمح له بالأحتفاظ بها، وان مارى ستيوارت ستصبح ملكة، ومارى ستيوارت هذه فرنسية جزئيا، وقد تكون فرنسية تماما. وسيلقى عبء العمل كلية على عاتقه، وكان أجره أرضاء الكنيسة وارضاء ضميره – ولا شئ غير ذلك، هذا على قدر ادراكه. وسيسترد الباب امتيازاته، والضريبة التي تقدر ببنس واحد، التى كان يدفعها رب الأسرة فى انجلترا، الى الكرسى البابوى، وسيتسترد الباب بذلك سوق غفراته (بيع الصكوك).

ولو كان الشئ أن يعمل، فمن الواضح أن البابا ينبغى عليه أن يدفع جزءا من تكلفة هذا الشئ، وهذا أمر لم يرغب البابا فيه اذا استطاع ذلك.

وكان يخدع نفسه، بأن عمل دريك سيجبر أسبانيا أن تدخل الحرب ضد انجلترا، سواء هو (أى البابا) ساعد أم لم يساعد. ولكنّ فى هذه المسألة حاول فيليب ألا يخدع قداسته، وأخبر فيليب أوليفاريز Olivarez – سفيره فى روما – أن يخبر البابا بأنه لا يوجد شئ قد قام به الانجليز نحوه، ولا يستطيع اغفاله، واذا لم يقدم البابا مساهمة فعالة، فأنه (أى فيليب) سيعقد صلحا. عندئذ، ثار البابا وغضب، وشك فى صدق فيليب للكنيسة تماما، حتى أنه عند الغداء قذف بالصحون والأطباق من فوق

رؤوس الخدم. وقال لو أنه أعطى فيليب نقودا، فإن الأخير سيضعها فى جيبه، ويضحك عليه. ولكن لن يعطى له أية نقود حتى يرى الجيش الأسبانى بالفعل على الشواطئ الانجليزية، ولم يتخل البابا عن هذا القرار.

وكان من المؤكد بالنسبة لفيليب الذى يبعث على الألم انه اذا هزم انجلترا، فان الانجليز الكاثوليك سيصرون على أنه من الواجب، جعل مارى ستيوارت* ملكة. مع العلم بأن فيليب كان لا يحب مارى ستيوارت لأنه لا يستسيغ شخصيتها، ولم يثق فى تعهداتها، وفى الواقع، اعتقد بأنها لا تزال امرأة فرنسية، علاوة على أنها امرأة شريرة، رغم وجود الجزويت والكهنة اللاهوتيين. ولكن كان من الواجب عمل شئ من أجل شرف كاستيل Castile ، (قشتالة) الذى انتهك. عندئذ، قرر أنه سيجمع أكبر أسطول عرفه البحر، وأنه سيقود هذا الأسطول بنفسه الى القتال الانجليزى، وأنه سيسيطر على الموقف بقوة كاسحة. وبعد ذلك يختار بعض السبل التى تكون أكثر ملاءمة لنفسه، من أن تكون ملاءمة لقداسته فى روما.

وعلى وجه العموم، كان فيليب يميل الى ترك اليزابيث تستمر ملكة، وأن ينس، ويصفح، اذا هى تخلت عن أشخاص من أمثال ولسنجهام، ودريك، وأن يعد هو (فيليب) بأن يكون جيدا فى المستقبل. واذا بقيت على عنادها، فإن أسطوله سيحمى طريق جيش أمير بارما. عندئذ، سيملى شروطه فى لندن.

---

* ورثت مارى ستيوارت العرش بعد ميلادها، فى ٨ من شهر ديسمبر عام ١٥٤٢م، ونشأت فى فرنسا، وعادت إلى إسكتلندا، عام ١٥٦١م، ولكن لم يرحب الكثير بعودتها هذه، وبخاصة لأنها كانت كاثوليكية رومانية. وفى عام ١٥٦٥، تزوجت من اللورد دارنلى، الذى كان مكروها بدرجة كبيرة، والذى أغتيل بعد الزواج منها بسنتين، وبعد ذلك، سجنها النبلاء الأسكتلنديون. ولكنها هربت إلى إنجلترا حيث كانت توجد هناك الملكة اليزابيث التى خشيت على نفسها من مارى، لأنها كانت التالية لها فى تولى العرش الإنجليزى، وكانت مارى هذه، ستحاول أن تستولى على السلطة من اليزابيث، لذا سجنتها اليزابيث ١٨ سنة. وفى نهايتها تم إعدامها فى شهر فبراير عام ١٥٨٧م.

1) The new oxford illustrated dictionary, Bay books. Oxford Uni. press. Vol. II. 1980. P. 662.

" الفصل السابع "

الهجوم على قادش

أتذكر عندما كنت صبيا وقدمت لى ترجمة سيئة لهوراس*، فانني ينبغى على أن أذكر بأن هوراس هذا كان رجلا من الأذكياء، ولم يكتب هراء. ومن الواجب على طلبة التاريخ أن يضعوا فى آذانهم نفس هذا الحرص. فهم يرون أشياء معينة قام بها ملوك ورجال دولة، تلك الأشياء التى يعتقدون أنه فى استطاعتهم تفسيرها، بتقمصهم لشخصيات أفراد مخادعين أو بلهاء. وذات مرة أعطوا تفسيرا للجانب السىء للطبيعة الانسانية، وأفترضوا أن هذا الجانب هو بالضرورة، الجانب الطيب أو الصحيح، وجعلوا من هورا سهم أحمق، فبدون شك فان الحمق قد يكون فى مكان آخر. ومن الجدير بالذكر أن رجالا وسيدات مرموقين لديهم عادة الباعث المعقول لسلوكهم، الذى يمكن أن يكتشف اذا بحثنا عنه بأعيننا المفتوحة.

ولم يوجد شخص قد قاس الكثير من المترجمين السيئين أكثر من اليزابيث فظروف مولد الملكة اليزابيث، وتقاليد والدها، ومصالح انجلترا، وعواطف الجماعة، التى أيدت مطالبها فى الوراثة، كل هذه الأشياء أرغمتها عند اعتلائها العرش أن تجدد الأنفصال عن البابوية. فقد أعيد تأسيس كنيسة انجلترا على أساس انجلو - كاثوليكى Anglo-Catholic ، التى من المحتمل أن تفسرها الفئات المتنافسة كل منها بطريقته الخاصة. وأن السماح بأكثر من شكل من أشكال العبادة العامة يؤدى الى صراعات وحروب أهلية، نتيجة الى أشتعال أمزجة وأفكار الناس. ولكن ربما أن يترك الضمير حرا تحت توافق ظاهرى، وأن هؤلاء الذين لم تناسبهم مراسيم الصلاة هذه قد يستخدمون طقوسهم الدينية فى منازلهم الخاصة، واعتقدت اليزابيث ومستشاروها العقلاء، أنه اذا استطاع رعاياها أن يبتعدوا عن الصراع، ومن أن يقتل كل منهما الآخر، وألا يكونوا ساخطين بسبب المظهر الخارجى للأختلاف. فانه فى هذه الحالة يعلمون أن أستقامة الحياة كانت أكثر أهمية من الأرثوذكسية، عندئذ، كان عليهم أن يقيموا القيمة الحقيقية للعقائد اللاهوتيه المتنافسة. واذا سمح الوقت للتجربة أن تكون

لها محاولة عادلة، فلربما قد نجحت في ذلك. ولكن لسوء حظ الملكة و انجلترا، كانت نار النزاع لا تزال حامية تحت الرماد. وقد علم بأن كل واحد من البروتستانت والكاثوليك، كان ينظر الى الاخر على أنه من اعداء الله، وكانوا لا يزالون مترددين فى أن يصافح كل منهما الاخر نتيجة لتوصية من قانون برلماني. ورأت الأكثرية المعتدلة من سواد الناس الكاثوليك أن يوجد اختلاف كبير بين الطقس الديني الانجليزى بين القداس الكاثوليكى، بحيث يرغمهم ذلك على ترك الكنائس التي تعبد فيها آباؤهم عدة قرون من الزمن. وقد التمسوا من مجلس ترنت The Council of Trent السماح لهم بإستخدام كتاب الصلاة الانجليزى، فاذا وافق المجلس فان الخلاف الدينى سوف يتلاشى فى النهاية الى اختلاف بسيط فى الرأى.

ولكن صمم المجلس والبابا بأنه سوف لا يكون هناك تسوية مع الهرطقة عند ذلك رفض الالتماس، مع أنه كان مدعوما من جانب سفير فيليب فى لندن، وارغم عمل البابا هذا الملكة على أن تترك الادارة فى أيدى البروتستانت التي اعتمدت على اخلاصهم. وانتشر الصراع مع حركة الاصلاح الدينى وتعمق فأضطرت الملكة ايذاء ذلك الى أن تساعد بطريق غير مباشر جماعة البروتستانت فى فرنسا واسكتلندا. ومع ذلك، فلا تزال تلتزم بمبدأها ورفضت أن تضع نفسها على رأس تحالف البروتستانت. ولم تأخذ خطوة دون أن تترك خطا مفتوحا للتقهقر الى السياسة المضادة. وكان لديها كاثوليك فى مجلسها الإستشارى من الذين كانوا يتلقون اعانات مالية من أسبانيا. وملأت (اليزابيث) قصرها بالكاثوليك، وفى كثير من الأوقات. كانت الحيرة تصيب بروغلى فى أوقات حرجة عند الإستماع اليهم. وكان لجهودها المتواصلة، أثر فى تخفيف حدة خصومة الموالين للعقيدة القديمة وذلك بأن جعلتهم محل ثقتها، وأوضحت لهم أن كل جماعة من رعاياها عزيزة عليها كالجماعة الأخرى.

ولمدة عشرة سنوات، واصلت الصراع (اليزابيث). ولمدة عشر سنوات أخرى كانت لها القدرة بكل فخر على أن تقول أنه خلال كل ذلك الوقت لم يضطهد كاثوليكى فى عقيدته سواء أكان ذلك فى ماله أم فى شخصه. وكان الفريق الأسمى من رجال الدين الكاثوليك فى يأس، فقد أحسوا بأن ضمائر جمهورهم مخدرة، وأن عقيدتهم

أصبحت فاترة، وحرضوا على الثورة فى الشمال، واستمالوا بيوس الخامس Pius V كى يرغمهم حتى يكون لديهم شعور نحو واجباتهم، وذلك بأعلان حرمان اليزابيث كنيسيا. وأرسلوا بعثاتهم التبشيرية الى داخل المقاطعات الانجليزية، كى يعيدوا الأفراد الذين ضلوا عن العقيدة، ويعلموهم بأن الخطية تكمن فى الخضوع الى ملكة عزلها البابا. واعقب ذلك مؤامرة ريدولفى Ridolfi، التى شجعت بتعمد من جانب كل من البابا وأسبانيا، والتى أجبرت الحكومة أن تضيق الخناق. وتلى ذلك مؤامرة أخرى. وكانت أية وسيلة لتخليص العالم من عدو الله تعتبر شرعية. وقد أسىء الى شخصية الملكة عن طريق الافتراءات الكاذبة، وعن طريق مئات الخناجر الحادة التى صوبت لقتل شخصها. ولم ينصح ملك أسبانيا بالحرمان كنيسيا، لأنه عرف أنه سوف يتوقع منه تنفيذ ذلك، بينما كان لديه أشياء أخرى يعملها. ولما طلب منه أن يتصرف قال هو والفا أنه اذا رغب الكاثوليك الانجليز فى مساعدة الاسبان فيجب فى هذه الحالة أن يعملوا شيئا لانفسهم، ومن المنصف للكهنة أنهم كانوا شجعان. والى أى حد، فقد نجح الكهنة فى كل ما قاموا به، بحيث أنهم جعلوا الوطن فى ثورة. وقد أخبركم الأب بارسونز برأيه فى البحث الذى قرأته عليكم فى محاضرة سابقة. ورفضت اليزابيث ان تهتم بنفسها، فلم يظهر عليها أى ارتياب أو عدم ثقة، فهى لم تطرد السادة والسيدات الكاثوليك من قصرها. وهى لم تسمح بأية قوانين جزائية تنفذ ضد الكاثوليك، واكتشفت مؤامرات متكررة لاغتيالها وافتضحت، ولكنها لم تأخذ حذرها. فلم يكن لها (اليزابيث) حرس خاص، وكان أقصى ماستفعله أن تسمح للجزويت والكهنة اللاهوتيين، الذين كانوا يبذرون بذور الثورة باعتراف بارسونز بأن ينفوا من المملكة، واذا أصروا على البقاء بعد ذلك فانهم سيعاملون كخونة. وعندما يعتبر الشنق استشهادا فان المرشحين للشنق لن يكونوا فى حاجة الى اكليل من الغار، وأن النار سوف تلتهم فقط الأكثر اخلاصا للعقيدة. وكانت اليزابيث تعتبر قيد الضحايا وحرقهم وتقطيعهم الي أربعة أجزاء من جانب تاى Ty عملا اجراميا تشعر بالتقزز نحوه. وكانت قد كرهت القسوة التى اضطرت لممارستها، ولوثت اسمها بالافتراءات البذيئة، وعرفت أنه من الممكن أن تغتال فى أى يوم. ومع ذلك فقد كانت نفسها غير مكترسة بأباء وشمم. ولكن ولابد، فسوف

يتبع موتها حرب أهلية عنيفة. وفى يوم من الأيام أخبرت مجلسها الاستشارى بعد جلسة عاصفة أنها فى يوم ما ستعود وتسلى نفسها برؤية ملكة الاسكتلنديين وهى (أى اليزابيث) تجعل رؤوسهم تتطاير، وكان فيليب قد أصابه الملل من ذلك أيضا. فكان لديه ما يكفيه من مستعمرات دون أن يتشاجر أبدا مع أخت زوجته. فقد أدرك أن لها رعاياها وأنه اذا قام بضربته فسيردون له الصاع صاعين أو سيردون بضربة أخرى.وقد عمت الأموال الانجليزية والمتطوعين الانجليز حرارة الحرب فى الأراضى المنخفضة. فقد أستولت مراكب القراصنة الانجليز على سفن ذهب فيليب، ودمرت تجارته، وأحرقت مدنه الموجودة فى جزر الهند الغربية – كل ذلك كان فيه مصلحة البابا الذى عبر عن ذلك كثيرا بكلمات رقيقة، والذى قذف صحون الغذاء عندما طلب منه أن يساعد بالأموال فى اخضاع الانجليز. وفى الوقت الذى كان فيه دوق ألفا على قيد الحياة، تولى أمير بارما القيادة فى الأراضى المنخفضة مكان ألفا، الذى نصح بالسلام، اذا كان فى الامكان أن يوضع هذا السلام على أسس معقولة. واذا وافقت اليزابيث على قبول سحب مساعدتها للأراضى المنخفضة، واذا سلمت للكاثوليك الانجليز بالتسامح الضمنى الذى بواسطته يمكن أن تبدأ حكمها، ويعتقد سكان الأراضى المنخفضة، وكذلك فيليب أيضا أنه من الافضل أن يعفو عن دريك وسنت دومنجو، وأن يتخلى عن مارى ستيوارت، والكهنة اللاهوتيين، ولايتدخل بعد ذلك فى السياسة الداخلية الانجليزية.

وتعبت اليزابيث، من حالة اللاحرب واللا سلم وتعبت من شنق الخونة، ومن المشكلة التى لانهاية لها، الخاصة بأختها فى اسكتلندا، ورأت اليزابيث أنه لايوجد سبب لرفضها العروض التى ستجعلها تعيش فى سلام بقية حياتها (مارى ستيوارت). ويقال أن فيليب سيعيد القداس Mass، الى الكنائس فى هولندا ولعل اليزابيث تتعهد بحرية الفكر للبروتستانت الهولنديين، كما كان لاليزابيث الرغبة فى أن تسمح للكاثوليك الانجليز (بحرية الفكر أيضا). وأدركت اليزابيث أنه لا يوجد سبب فى اصرارها على حرية العبادة العامة التى منعتها هى نفسها فى الوطن (أى وطنها). ولم تدرك السبب فى أن الهولنديين ينبغى أن يكونوا مدققين فى سماعهم للقداس. وقالت أنه من الأحرى بالنسبة

لها أن تسمع ألف قداس من أن تورط ضميرها فى جرائم من أجل القداس. وهى لاتلزم مملكتها بأن تكون فى قلق مستمر من أجل أخوة السيد سيسل فى المسيح.

وكان هذا احساسا شخصيا لاليزابيث، فلم يكن فى الاستطاعة التصريح بذلك صراحة، وربما فى ذلك الوقت، تسلم الأقاليم اليائسة الى فيليب، وأن تحصل على ضمانات أفضل لحريتها السياسية، وكانت هى (اليزابيث) على استعداد أن تطلبها لها (أى الاقاليم). ومن المحتمل بعد ذلك أن هذه الأقاليم تنضم الى الأسبان، وفى هذه الحالة تصبح هذه الأقاليم من ألد الأعداء لانجلترا. ومع ذلك فقد كان لاليزابيث رأيها السديد فى ادارة شئون دولتها. وأكد أصدقاؤها الكاثوليك لها، انه اذا ماتم السلام أو اذا ماتحقق السلام، فانها ستكون فى مأمن من العالم كله. وظهرت أمامها فجأة حادثة، ففي هذه اللحظة تكشفت وجود هوة فتحت تحت قدميها بطريقة لاشك فيها.

وفى الواقع، كان كل من فيليب واليزابيث يرغب فى السلام، وسوف تنهى معاهدة سلام بين الملك الكاثوليكى وبين أميرة محرومة كنيسيا ثورة كاثوليكية فى انجلترا. واذا وجد كل من النبلاء والارستقراطيين الأنجليز أن أنتقادات الكنيسة قد أهملت باستخفاف من جانب الأمراء الأكثر أرثوذكسية فى أوربا، فإن بارسونز وأصدقائه لن يجدوا أصداء لأرائهم عن التزامات الثورة. واذا توقفت هذه المفاوضات المضنية، فلابد أن توجه هناك ضربة فى الحال، وعندئذ، لايجب أن تضيع لحظة.

وكان حلم الفروسية الكاثوليكية فى اليقظة والنوم، هو السجين، المفتون فى تتبرى Tutbury، فالفارس الشجاع هو الذى سيذبح التنين، وينقذ مارى ستيوارت ويضعها على عرش السالبة Usuper's Throne والتى (مارى) سوف تتفوق على أورلاندو Orlando وسان جورج St.George، وسوف يتغنى بها الى الأبد كأعظم نبيلة بطلة أمتشقت السيف أو الحربة. وكثيرا من الشباب الانجليز الشجعان قد إمتلأت قلوبهم بأمل أن المشروع قد احتفظ لهم. وكان منهم أنتونى بابنجتون Antony Babington من دير بيشير Der Byshire، وهو رجل نبيل وثرى. وقد افعل كاهن لاهوتى – مثل بقية الكهنة الآخرين – يدعى بالارد Ballard، بضرورة القيام بعمل، فاتفق بشغف مع هذا البابنتجون Babington، لمنع السلام واعتقد انه قد وجد الرجل

المناسب للقيام بمثل هذه المهمة. فسوف لايكون هناك حديث أكثر عن السلام، اذا ماتت اليزابيث، وأصبحت مارى ستيوارت حرة، وبسهولة أعدت مؤامرة، تكونت من ستة أشخاص كان خمسة منهم على اتصال بقصر اليزابيث. وكان عليهم أن يطلقوا النيران عليها (أى على اليزابيث) أو يطعنوها ويهربوا أثناء الهرج، وكان على بابنجتون أن يندفع الى سجن مارى ستيوارت ثم يحملها الى مكان آخر آمن، بينما كان على بالارد Ballard، أن يتعهد باثارة النبلاء والكاثوليك، وأن يعلن على الملأ بأن مارى ستيوارت أصبحت ملكة وعندما تزاح اليزابيث، كان من المفروض عليهم الايترددوا. وسوف يحضر بارما Parma، الجيش الأسبانى من دنكرك Dunkirk، عندئذ سيصاب البروتستانت بالشلل. وكل ذلك سيبدأ وينتهى فى أسابيع قليلة أو حتى فى أيام. وبعدئذ ستعاد اقامة العقيدة الكاثوليكية وستسحق الهرطقة المكروهة الى الابد وقد استشيرت ماري ستيوارت فوافقت بحماس ومنذ عهد قريب، كانت هذه السيدة (اليزابيث) – الجديرة بالاهتمام – مسرفة فى تأكيدتها، لرغبتها فى التصالح مع أختها العزيزة. وقد اعتقدت اليزابيث تقريبا فى اخلاصها. وبعد الملل من هذه المتاعب التى لانهاية لها مع مارى ستيوارت، ومع أدعاءاتها ومع تدبيرها للمكائد، فقد عزمت (اليزابيث) بأن المملكة الاسكتلندية ينبغى أن تشملها المعاهدة مع فيليب مع اعتراف ضمنى بحقها فى وراثة العرش الانجليزى بعد موت اليزابيث. وكيفما كان الحال، فانه من الضرورى أن يحقق ذلك بأى طريقة، اذا كانت هى صادقة فى تأكيداتها. وقد استمرت المراقبة السرية على مراسلاتها، وعلى خطابات بابنجتون، وقد وقعت ردودها فى أيدى وولسنجهام. وأصبح فى يدها (أى اليزابيث) الدليل الذى يثبت خيانتها (أى خيانة مارى ستيوارت). وقد وصل اليها هذا الدليل نتيجة اهمال أحد الشركاء فى هذه المؤامرة.

وقد اكتشفت بسهولة أمر الستة رجال الذين كلفوا بقتل اليزابيث والذين كانوا قد اكتسبوا ثقتها. وقد القى القبض عليهم، ومعهم بابنجتون وبالارد عندما اعتقدوا بأنفسهم أنهم على وشك الانتصار، وتراجع بابنتجون واعترف وشنق الجميع. وأصبح طلب مارى ستيوارت للرحمة لايجدى وكان مجلس العموم البريطانى قد اكتشف من قبل، وعلى مرتين أحدث مؤامراتها (مارى ستيوارت)، وطالب بالاعدام لها. وبسبب هذه

الخيانة الاخيرة حوكمت فى فوزرنجى Fotheringy، أمام لجنة من النبلاء والمستشارين الخصوصيين وانكرت رسائلها. ولكن فيما بعد، ثبت أن اشتراكها فى الجريمة كان لاشك فيه. واستدعى البرلمان للانعقاد، وأصر للمرة الثالثة على أن التمثيلية الطويلة ينبغى أن تنتهى فى ذلك الوقت أو على أقل تقدير أن يوضع لها حد، وأن يسمح لانجلترا الوفية بأن تعيش فى سلام. ووقعت اليزابيث على أمر الاعدام. وكانت كل من فرنسا وأسبانيا وأى قوة أخرى فى العالم تحب منذ زمن طويل أن تضع نهاية لمنافس مستميت وغير قابل للعلاج. وقد تنازعت اليزابيث مشاعر مختلفة كهذه كثيرة بين الشفقة الطبيعية والخوف من الرأى العالمى، ممادفعها الى الانتظار، قبل أن تصدر الأمر بالاعدام. فاذا لم يكن هناك شىء تخاطر به فى حياتها لتركت السيدة تنتج مؤامرات أخرى جديدة، لعلها تنجح فى النهاية. واذا كان الأمر يتعلق بأمن أمة، فلابد اذن أن تضع نهاية لها (أى مارى ستيوارت) وشعرت أنه من الصعب أن يلقى الواجب على عاتقها نفسها. فأين كان هؤلاء الابطال المتحمسون الذين وقعوا على ميثاق الجمعية Association Bond، هؤلاء الذين قد تحدثوا بصوت مرتفع ؟ ألم يوجد واحد منهم، لكى يتذكر قسمهم ويأخذوا القانون فى أيديهم ؟ أى أنهم يتصرفون بحرية.

فكان مجلسها (اليزابيث) وبروغلى Burghley، والبقية يعرفون ميلها واحساسها، ولماكانت المسألة مسألة حياة أو موت بالنسبة لحرية انجلترا تحملوا المسئولية بأنفسهم، وأرسلوا أمر الاعدام الى فورزنجى Fortheringay على مسئوليتهم تاركين سيدتهم أن تتنكر اذا رغبت مع أنها قصدت تنفيذ هذا الأمر. وبذلك، تنتهى حياة مارى ستيوارت البربرية على المشنقة، وأنهم عرفوا فى الحال ماذا كانوا يفعلون، وعرفوا اذا كان للخيانة – معنى فان مارى ستيوارت قد جلبت مصيرها بنفسها. وربما أنهم لم يدركوا الآثار الكاملة التى تترتب على ذلك، فانه بأختفاء مارى ستيوارت فسوف يختفى معها آخر خطر لثورة كاثوليكية فى انجلترا أو ربما لم يدركوا ذلك، وهذا ماجعلهم يقررون القيام بعمل.

ولم أستطع الأسهاب فى ذلك هنا. فطالما يوجد أميرة كاثوليكية من دم انجليزى لترث العرش، فان ولاء الكاثوليك الى اليزابيث قديهتز بسهولة. واذا لم يصيبها مكروه

فى هذا الوقت (مارى ستيوارت) فان كل واحد منهم سوف ينظر الى ملكتهم فى المستقبل.

ويعنى سقوط اليزابيث من على العرش فقدان الاستقلال القومى. والآن قد ذهبت ملكة الاسكتلنديين، فانهم (الكاثوليك) قد أصابهم الشلل نتيجة لمشورات متعارضة، وثبت أن حب الوطن أقوى من حب عقيدتهم.

ومايهمنا على وجه الخصوص، فى الوقت الحاضر أثر ذلك على ملك أسبانيا، وفى ممانعته فى التعهد بالمشروع الانجليزى الذى أطلق عليه بصفة عامة (الامبراطورة) الذى انبعثت من خوفه من أنه عندما ينجزه فانه سيفقد (أى فيليب) ثمار أعماله، ولم يستطع أبدا أن يطمئن نفسه، بأنه اذا وضع مارى على العرش فانها لن تصبح فرنسية فى النهاية. وقد علم فى ذلك الوقت بأنها أورثته مطالبتها فى الوراثة الانجليزية. ولقد لقب مرة بملك انجلترا. وكان لديه دعواه الخاصة، لانه ينحدر من سلالة ادوارد الثالث Edward III. وأكد له الجزويت والمتحمسون الكاثوليك فى كل مكان من أوربا انه اذا استطاع أن يكسب هذه القضية، فربما يجعل من انجلترا مقاطعة من أسبانيا. ومع ذلك، فلاتزال توجد صعوبات، وربما كان يأمل فى أن سواد الناس من الكاثوليك الانجليز، سوف يقبلوه، ولكنه مع ذلك لم يؤكد هذا. ولم يكن متأكدا وواثقا من أنه سيحصل على مساندة البابا. وقال الكوند دى فريا The Condede Feria،(عن فيليب) عبارة باحتقار – لم يستطع الكاتب أن يترجمها – انما كانت هذه العبارة تعنى التردد عندما كان ينبغى عليه أن يعمل. والآن يستطيع أن يأخذ موقفا أقوى نحو اليزابيث كمطالب بعرشها. واذا كان على معاهدة السلام أن تخطو الى الامام، فانه يستطيع أن يفرض شروطه، ويصر على عودة العقيدة الكاثوليكية الى انجلترا. وقد نقلت ملكية أقوى خمس مدن من أقاليم الاراضى المنخفضة الى اليزابيث كثمن لمساعدتها. واستطاع (فيليب) أن يصر على استعادتها، ولكن ليس للاقاليم لكن لنفسه، فاذا أرغمت (اليزابيث) على الموافقة على مثل هذا العمل الغادر، فإنه (فيليب) وبارما Parma يشعران بأن القوة قد تركت اليزابيث، كما تركت شمشون، عندما قصت الفانية خصيلات شعره. ويزكيانها عندئذ – اذا كان هذا يلائمهما – على عرش يصبح اداة

للتشهير ويشار اليه باحتقار.

وبفكرة كهذه، فانه كان من الضرورة الملحة لفيليب أن يسرع ليعزز استعداداته، التى كان قد بدأها من قبل. وكلما استطاع أن يقوى نفسه، كلما أصبح أقدر على ارهاب اليزابيث حتى تضطر الى الخضوع. وبدأت كل ترسانة فى أسبانيا العمل فى بناء السفن الشراعية الكبيرة، وجمع المؤن. وسوف يتولى قيادتها سانتا كروز Santa Cruz. وكان فيليب أكثر عزما على اصطحاب الحملة بصفة شخصية، وأن يملى من القتال الانجليزى شروط معاهدة الصلح لأوربا. ولم يعد يحاول السرية. وفى الحقيقة لم تعد هذه السرية ممكنة. وكانت كافة البلاد المسيحية اللاتينية يخفق قلبها بالامل. وكان بحارو السفن يعملون ليل نهار، فى كل من لشبونة وقادش وبرشلونة، ونابلى Naples. وقد غطى البحر بالسفن المشحونة بالاسلحة والمؤن، وتدفقت الى مصب نهر تاجوس Tagus وفى الوقت نفسه، تدفق المتطوعون الكاثوليك من كافة الأمم الى شبه الجزيرة (أسبانيا) كى يشاركوا فى الحركة الضخمة التى تقرر مصير العالم، وأقام الاساقفة والكهنة والرهبان صلاة فى كل الطوائف الدينية اللاتينية كى يحمى الله قضية هذه الشعوب.

وفى غضون ذلك استمرت المفاوضات من أجل السلام، ومن الغريب أن اليزابيث أصرت على الاستماع، علاوة على أنها لم تر ماكان واضحا لكل العالم فأعدام ملكة الاسكتلنديين كان جاسما على صدرها، بحيث أرجعها الى المزاج العنيد. الذى قد جعل وولسنجهام ييأس من سلامتها. ولمدة شهرين من وقوع المشهد فى فوررنجى Fortheringay، رفضت (اليزابيث) أن ترى بروغلى كما أنها رفضت أن تتشاور مع أى أحد باستثناء السير جيمس كروفتس Sir Games Crofts، والسيدات الائى لهن مزاج أسبانى. وفى ذلك الوقت عرفت (اليزابيث) بأن أسبانيا قد اعتقدت بأنها (اليزابيث) ستخون المدن فى الاراضى المنخفضة. ومع ذلك، فانها كانت عمياء عن سؤ السمعة التى ستجلب عليها. وتركت جنودها هناك دون أن تدفع لهم أجور مما يهددها بالتمرد. وقد ذكرت أسماء مفوضين، كان منهم السير جيمس كروفتس الذى كان على رأس هؤلاء المفوضين الذين سيذهبون الى أوستند Ostend ليتفاوضوا مع بارما واذا لم تصمم

على خيانته، فانها على الأقل تتلاعب بالأغراءات، وتقنع نفسها بأنها اذا أختارت أن تعهد بالمدن الى فيليب، فان معنى ذلك أنها تعيدها الى صاحبها الشرعي.

وتستطيع أن تفهم من خطابات كل من بروغلى وولسنجهام أنه من المعتقد أن اليزابيث فى ذلك الوقت قد دمرت نفسها فى النهاية. ولحسن الحظ، فان أحوالها النفسية كانت متقلبة مثل الطقس. وأجبرت علي أن ترى الحال التى تردت لها شئونها فى الأراضىَ المنخفضة، وذلك، بظهور عدد من البائسين الجياع الذين هربوا من الحامية الموجودة هناك، وتجمعوا وهم يصرخون عند بوابات قصرها من أجل أن تدفع لهم مرتباتهم. ومادام لم يكن لها قوات فى الميدان الا الرعاع الجياع المتمردين، فقد لاتصل الى اتفاقيات بالمرة. وأنه لمن المستحسن أن تظهر لفيليب أنه من الممكن أن تكون خطيرة حتى من ناحية واحدة. فهى لم تخسر شيئا بسبب الحروب الجريئة التى قام بها دريك والقراصنة. وبرغبة غير كاملة (نصف شجاعة) سمحت هى لدريك أن يستعد للأسبان مرة ثانية، وكان عليه أن يأخذ السفينة بيونا فنتورا Buana Ventura، وهى من سفن اليزابيث، وأن يضع عليها علمه، ويسير بها الى الساحل الأسبانى كى يرى ماذا يجرى هناك. ولم يكن عليه أن يفعل أكثر من ذلك، وأرسلت (اليزابيث) معه نائب أدميرال البحر بالسفينة ليون ليمنعه اذا قام بعمل متهور.

وعرف دريك كيف يتعامل مع أدميرالات البحر الذين يسببون له الحيرة. فسيبحر مغامريه الى جبال القمر. فى حالة صدور الأمر لهم، ومن الموثوق فيه، فأن هذا هو المكان الصحيح الذى يذهبون اليه. وفى مرة من المرات انطلق بعد توقف، وواصل المسير فى المياه الزرقاء، واتخذ طريقه وتحمل مخاطره. وكان ميناء قادش يعج بالناس وبسفن نقل المؤن والبضائع، وبالسفن المشحونة بالبارود – أبحرت مائة منها – وكان الكثير من آلاف الأطنان مكدسا فى المخازن للأرمادا. وفى نفس الوقت كان هناك ثلاثون سفينة للمغامرين، وقد أبحرت هذه السفن السريعة علي سطح مياه المحيط، يقودها أقوى البحارة الذين يموتون شنقا. وقد يحدث شىء فى قادش اذ لم يتحدث هو كثيرا عنه، فقد أعطى اليه التصريح بالابحار، ولكنه عرفه بالخبرة، وحذره Burghley، مرة أخرى بقوله أنه من المحتمل أن تلغى هذه الرحلة، اذا انتظر مدة طويلة. وكانت هذه

فرصته فاستغلها. وكان الوقت مناسبا له. وقبل أن تكون سفنه تحت خط الأفق أسرع رسول من بليموث، ومعه أوامر تحضه على عدم دخوله ميناء يتبع أسبانيا، أو ملك أسبانيا، ويضر بالرعايا الأسبانيين تحت أى ظرف من الظروف. فماهو الشىء الآخر الذى كان سيرحل من أجله ؟ وقد خمن كيف ستكون الأمور أهى جادة أو هزلية. فهو لم يستطيع أن يحدد اذا كان الأمر هزلا، فلو كان الأمر جادا مثل هذه التعليمات سترسل وراءه، ولكن مع ذلك لك يكن لديه وقت للضياع.

وأبحر دريك، فى صباح يوم ١٢ من شهر أبريل، وتقابل مصادفة مع أوشانت مع عاصفة شمالية غربية، وانطلق بسرعة، ونشر كل حبال الأشرعة التى تحملها سارياته. وفى غضون خمسة أيام، كان قد وصل الى رأس فنسنت St.Vincent. وفى اليوم الثامن عشر من نفس هذا الشهر، كان أمام منازل قادش تماما، واستطاع أن يرى بنفسه غابات من ساريات المراكب وبشحنات اكتظ بها الميناء. وهنا، كانت الفرصة مواتية لنوع من الخدمة اذا وجد هناك شجاعة، للقيام بالمغامرة. وأشار الى ضباطه ليأتوا على ظهر السفينة بونا فنتورا Buana Ventura. وكان يوجد أمام أعينهم أشياء ان لم تكن الارمادا نفسها، فربما تكون المواد التى تعد الارمادا للابحار، فهل لديهم الجرأة بأن يصحبوه الى الميناء ويدمروا هذه الأشياء ؟ علما بأنه كان يوجد بطاريات مدفعية عند مدخل الميناء، ومن المعروف أن بحارة دريك كانوا قد واجهوا البطاريات الاسبانية فى سنت دومنجو، وفى كارثا جينا ولم يجدوها قوية. فهل يدخلوا ؟

بالطبع سيفعلون ذلك. فأينما يقود دريك قراصنة بليموث، فانهم لم يخافوا من أتباعه وأعلن نائب الادميرال عن الخطر الذى يتهدد سفن صاحبة الجلالة، ولكن ليس من عمل الاسطول الانجليزى الاهتمام بالخطر. ودخلوا مباشرة مع ريح معتدلة ومد مرتفع – ومروا بسرعة على بطاريات المدفعية، وتحت وابل من القذائف التى لم تقلقهم، والتى لم يهتموا بالرد عليها. وتبع نائب الادميرال التعس – وهو على مضض – فى السفينة ليون Lion. وأصابت قذيفة واحدة السفينة ليون، وابتعد (نائب الأدميرال) شيئا فشيئا بعيدا عن مرمى المدافع، ورسى وانجرف الى البحر مرة ثانية مع انحسار المد. مع أن دريك وجميع الباقين واصلوا الاندفاع واغرقوا سفينة الحراسة – السفينة

الحربية الكبيرة – وأرسل أسطولا أسبانيا سريعا من السفن الشراعية الكبيرة التى خاطرت أيضا بالاقتراب منهم (أى من دريك وجماعته) ولكنهم لم يروا مرة ثانية أبدا.

ولم توجد أيضا أية مقاومة أخرى على الاطلاق، فبحارة سفن المؤن هربوا فى قواربهم الى البر، وكان حاكم مدينة قادش هو نفس دوق مدينا سيدونا Medina Sidona، الذى سيفوز بخلود وخيم العاقبة فى السنة التالية، وهرب كرجل شامخ ليجمع قوات يمنع بها دريك من النزول الى البر، مع أنه لم يكن لدى دريك أية نية للنزول الى البر، وبتمهل فإن دريك المتزن استولى على سفن الشحن الاسبانية، وفتش كل سفينة، ونقل كل شىء يمكن استخدامه وحجز العدد القليل من الرجال الذين وجدهم على السفن كسجناء، وبعدئذ فى ذلك الوقت، وبعد أن أنجز عمله تماما، وبتأنى أشعل النار فى السفن وقطع الحبال، وتركها تندفع فى المد المرتفع تحت أسوار المدينة وكانت هذه السفن ككتل من النيران، اختلطت بعضها ببعض. ففى الثانى عشر من شهر أبريل أبحر من بليموث، وفى التاسع عشر من هذا الشهر دخل ميناء قادش، وفى اليوم الأول من مايو مر مرة ثانية دون أن يفقد قاربا أو رجلا، وقال على سبيل المزاح أنه قد شعوط لحية فيليب. وبأسلوب منطقى جعل ملك أسبانيا يصاب بقدر من الضرر الذى لايستطيع تعويضه مليون من الدوكات أوسنة من العمل الشاق. وأذهلت السرعة الجسورة للمغامرة أسبانيا، كما أنها أذهلت أوربا أكثر من الهجوم على مدن الهند الغربية، فقد كان للانجليز أسنان طويلة، كما أجبر سانتا كروز Santa Cruz مجلس فيليب، حيث قال بأن هذه الأسنان قد تحتاج الى خلع، قبل سماع القداس مرة ثانية فى وست منستر West Minister، وكان الاسبانيون من عنصر شهم، ومن الممكن أن تكون المغامرة النشطة التى سيقومون بها (أى دريك وجماعته) على نفقتهم الخاصة محط اعجاب من جانب سكان الريف فى كير فانتس Cervantes، وهكذا، فقد مدح دريك من جانبهم (الأسبان) على بسالته، وأنهم قالوا اذا لم يكن هو لوثران Lutheran فسوف لايكون له هناك مثيل فى العالم.

وقد دعيت سيدة أسبانية من القصر بواسطة الملك كى تنضم الى حفلة عند بحيرة بالقرب من مدريد. وأجابت هذه السيدة بأنها لاتجرأ أن تأمن على نفسها من

جلالته على المياه خشية أن يمسك بها السير فرانسس دريك. ولاغبار فى أن يمدح دريك، لانه كان من الممكن أن يكون أول من يقتسم الشرف، مع رفاقه الذين كانوا يمثلون ذراعيه ويده. فلم يكسب الجنرالات والقادة العظام معاركهم بمفردهم مثل أبطال الرومانسية. وتكون الأوامر مجدية عندما يكون هناك رجال يقومون بتنفيذها ولم يخطىء أى قبودان أو ضابط خدم تحت قيادة دريك، فلم توجد مدرسة للبحارة فى هذا الوقت مثل حرب القرصنة، هذه الحرب التى دامت عشرين سنة بين أتباع البابا وبين المغامرين من بروتستانت الوطن الغربى.

ومن الواجب أن يذكر هؤلاء الذين أعدوا السفن التى بواسطتها أبحروا وحاربوا معاركهم. ونحن على ثقة من أنه لم تكن هناك خيانة بين المتعهدين ببناء السفن، كما لم يكن هناك أهمال فى العمل فى أحواض بناء السفن، حيث كان قراصنة بليموث قد أعدوا للبحر. وكانت قلوبهم متعلقة به، وكانوا جنودا لقضية مشتركة.

وكانت ثلاثة أسابيع كافية لهزيمة (قادش) فلم تصل الى هناك أوامر للاستدعاء. وكانت لدى دريك خطط أخرى موضوعة أمامه، وكان الرجال فى روح معنوية عالية، ومستعدين لأى شىء. وكان من المتوقع حضور أسطول من السفن الحربية الاسبانية من البحر المتوسط.

واقترح دريك أن يمكث مدة أسبوع أو أسبوعين فى مجاورة المضايق على أمل أن ينتهى منها (السفن الحربية الاسبانية). وكان فى حاجة الى مياه عذبة، وكان عليه أن يجدها فى أى مكان، وكان عليه أيضا أن يقرر ماذا سيفعل مع مساجينه قبل تركه لمسالك قادش Cadiz Roads. فمن المعروف أن كثير من الانجليز وقعوا فى أيدى محكمة التفتيش، ويعملون وهم مكبلون كعبيد على السفن. وكان دريك قد أرسل مركبا شراعيا صغيرا بقصد المقايضة، وكان عليه أن ينتظر بضعة أيام للرد عليه. وأخيرا، وبعد استشارة لشبونة، أجابت السلطات الاسبانية بأنه ليس لديها مساجين انجليز. ولو كان هذا صحيحا فمن الممكن أن يكون هؤلاء قد ماتوا بسبب المعاملة الوحشية، وبعد التشاور مع ضباطه أرسل السير فرانسس دريك كلمة، تقول أنه فى المستقبل من الممكن أن يباع هؤلاء المساجين (من الاسبان) الى المراكشيين، ويفتدى بأثمانهم

الاسرى الانجليز في أجزاء أخرى من العالم.

وكان الماء هو الهدف الثانى. فكانت توجد ينابيع فى فارو Faro التى تتمركز عندها قوة أسبانية لحراستها، فبالقوة أو بدونها كان لابد من الحصول على الماء ، وأرسلت القوارب الى الشاطىء. وهاجم بحارة القوارب الحصون وملأوا البراميل الخشبية. ومرة ثانية، رفع نائب الأدميرال صوته بالقول لقد أمرت الملكة بعدم النزول على أى تراب أسبانى. وفى قادش انتبه دريك الى هذا الأمر. ولم يكن هناك حاجة الى النزول على البر. وهنا، فى فارو كان يوجد تحد سافر لأمر جلالتها، وأصبح نائب الأدميرال يرفع صوته بمطالبه، لدرجة أن دريك وجد من الضرورى أن يسجنه في قمرته (كابينته) الخاصة، وبعد ذلك يرسله الى الوطن فى سفينته كى يقدم شكواه. ولم يكن الاسطول قد ظهر بعد من المضايق. وأما عن نفسه (دريك) فكان قد تخلص من متاعب نائبه فى القيادة، وتقدم ببطء على الساحل وكان مصمما أن يلقى نظرة على لشبونة، وأن يرى بنفسه كيف تسير الأمور هناك، ومنذ البدء، وأثناء ذهابه، التقى مصادفة مع التجار المحملين بالامدادات الخاصة باستخدام الارمادا. وقد دمر كل هذه الاشياء أثناء تقدمه. وفى النهاية وجد نفسه تحت تلال سنترا الارجوانية Under the purple hills of centra ونظر الى تاجوس، وهناك، كانت تتجمع معا قوة الاسطول الاسبانى الحربى. فمن قبل كانت قد وصلت خمسون سفينة شراعية كبيرة، وهى أضخم السفن الحربية التى طفت فى ذلك الوقت على سطح مياه المحيط. وكان سانتا كروز الذى يعتبر أحسن ضابط فى الاسطول الاسبانى كان هو نفسه فى المدينة، وكان هو الذى سيتولى القيادة. لهذا تكون المغامرة الحقيقية فى تكرار عمل قادش الجرىء – وفى مواجهة مثل هذه الغرائب – بدت عملا مستميتا حتى لدريك، ولكنها مع ذلك كانت واحدة من هذه الفرص التى ترى فيها عبقرية قائد عظيم ذا أعين غير عادية. وبعد ذلك حسبها – كما ثبت – بطريقة صحيحة. ومن المحتمل أن سفن (الارمادا) سيكون عليها نصف قوة الرجال، ومن المحتمل أيضا الايكون عليها رجال بالمرة، بل تكون مزدحمة برجال من البر، الذين يجلبون الى ظهور السفن المؤن، كما أن جوانب سفن (الأرمادا) – وهى رأسية – ستختنق بأعداد من السفن الخفيفة أو الصغيرة ومن الصنادل. وعلى ذلك فلن

يكون فى استطاعتها أن ترفع مراسيها وتنشر أشرعتها أو تتحرك من مراسيها.
وبالرغم مما عرف عن دريك من جسارة، فلم يتوقع أحد على الاطلاق أن يتوجه (دريك) على رأس مثل هذه القوة الصغيرة الى معقل العدو، والاكانت هناك استعدادات لملاقاته. واستطاع (دريك) أن يعتمد على المد والجزر. وكانت الرياح فى هذا الفصل من السنة، هادئة ومستمرة، وكان من الممكن أن يعتمد عليها أيضا فى أن تأخذه الى الداخل أو الى الخارج، وكان يوجد هناك مأوى بحرى فى النهر لسفن مثل سفن المغامرين كى تقوم بالمناورة، وبالتقهقر اذا وجدت مايفوقها. وتبدو هذه المغامرة متهورة لعين غير متخصصة، لكن دريك بالتأكيد كان قد فكر فى ذلك ربما قصد أن يجربها بصورة أو بأخرى، حتى يضع نهاية للغزو الاسبانى لانجلترا. فلم يستطع دريك أن يقوم بمغامرة دون أن يطلب تصريحا فى البداية من سيدته. فهو عرف طبيعتها، وعرف أن خدماته فى قادش ستفوق فى الاهمية استخفافه بأوامرها. وحتى الآن، فلم يكن لديه شىء يخيفه، ومع ذلك عرف أيضا أنها لاتزال تتهافت على السلام، فمن الواجب عليه الايفعل شيئا دون اذنها. وكان من شأنه أن يجعل عملية السلام مستحيلة، وهناك رسالة منه الى الملكة كتبها عندما كان بالقرب من لشبونة، وتبين هذه الرسالة خاصيته وخاصية الوقت. الذى كتبت فيه الرسالة.

ولم يتحدث نلسون Nelson أو اللورد سانت فنست Lord St.Vincent كثيرا عن توقع مساعدة خارقة. واذا كان الأمر كذلك، فاننا ينبغى أن نشك فى استخدامهما للغة العادية، التى كان من الممكن أن تكون أفضل، حتى نتركهما لحالهما. واعتقد السير فرانسس دريك – مثل معاصريه الآخرين العظام – بأنه كان مشغولا بقضية مقدسة، فهو لم يكن خائفا أو خجولا ليقول هكذا. فكان هدفه أن يحتج على أى استدعاء فى غمرة النصر، وقال كان الاسبان رجالا، ومع ذلك كان فى الامكان القضاء عليهم، فكانوا أعداء للحق ومؤيدين لمفهوم داجون Dagon، الذى انهار فى الأيام الأخرى أمام السفينة أرك. ومن الممكن أن ينهار ثانية أمام أى تحد جسور، وطالما هو لديه السفن التى ستطفوا، وطالما يوجد هناك الغذاء على ظهورها للرجال لكى يأكلوا فانه عندئذ، توسل (للملكة) لتدعه يمكث ويضرب، عندما تتاح له الفرصة فالاستمرار حتى النهاية

يثمر مجدا حقيقيا. وعندما كان الرجال يخدمون العقيدة ووطنهم، فان الله الرحيم قد يمنحهم النصر، وسوف لاينتصر الشيطان وأتباعه.

وكان كل شيء معدا في وقته، وسوف يكون لدى دريك الفرصة التي يرغب فيها، بعد عام آخر. وفي الوقت الحاضر، كان الشيطان منتصرا - ويمثل الشيطان المستشارين الكاثوليك لاليزابيث. ووصل ردها. وكان هذا الرد حارا وسخي، واذا لم تستطع أن تلومه على مافعل حتى الآن، ومع ذلك فقد رغبت منه الايثير ملك أسبانيا أكثر من ذلك لأن محادثات السلام كانت قد بدأت، ومن الواجب عدم التدخل فيها.

ومن المحتمل أن هذا التحريم من الملكة منع ما يمكن أن يكون بأعظم عمل بطولي في تاريخ البحرية الانجليزية. وفي ظل الظروف الحاضرة، فانه قد يكون من الممكن تماما لدريك، أن يذهب الى تاجوس، واذا لم يستطع القيام بحرق السفن الشراعية الضخمة فانه يستطيع بالطبع أن يخرج دون أذى، وقد ضمن دريك حالتهم بطريقة صحيحة تماما. وهناك كانت توجد السفن، ولكن لم تكن شركات السفن على ظهورها (أي على ظهور هذه السفن). واعترف سانتا كروز نفسه، بأنه اذا كان دريك قد دخل الى الميناء فانه لم يكن في استطاعته سانتا كروز فعل أي شيء بسبب حاجته الى الرجال، وبدون شك فان دريك كان من الممكن أن يذهب وأن يفعل شيئا يدوي في انحاء العالم لولا أمر سيدته الحاسم. وتباطأ في المسالك عند سنترا Centra، مؤملا أن سانتا كروز سيخرج ويقابله. وكانت كل أسبانيا تتذمر غضبا بسبب تراخي سانتا كروز هذا. وكتب فيليب يحث الأدميرال العجوز على النشاط فيجب الايسمح لنفسه أن يتحداه أسطول قراصنة متغطرسين. فمن الواجب عليه أن يتعقبهم بعيدا عن الساحل أو يدمرهم. ولم يكن سانتا كروز في حاجة الى تحريض. فسانتا كروز بطل المائة معركة، كان غاضبا من عجزه ومع ذلك أجبر أن يخبر سيده بأنه لو رغب في الحصول على خدمات من سفنه الشراعية الضخمة، فلابد لسيده أن يزوده (كروز) برجال يستطيع أن يتعامل معهم، ومن الضروري أن يظلوا فترة طويلة، في مراسيهم، حتى يؤدي مهمته. وعلاوة علي ذلك، أخبره بأن الوقت قد حان له (كروز) بان يبذل جهدا مخلصا، واذا انتظر مدة أطول فان قوة انجلترا ستزداد، ويصبح من الصعب مواجهتها. وكانت

الطاعة العمياء تفرض على (دريك) بأن يعود الى الوطن، ومع ذلك فإن الحملة العسكرية قد جلبت حتى الآن مجدا أفضل من جائزة مالية.

وكان رفاقه فى السلاح (أى رفاق دريك) يحتاجون الى تهدئة خواطرهم بسبب خيبة أملهم فى لشبونة. وتقوم نظرية تسليح المغامرين، على أساس أن التكاليف ينبغى أن يدفعها العدو بطريقة ما، ومن الممكن أن يتأكد أنه اذا أحضر غنيمة أو غنيمتين فان الملكة سوف تطالب بنصيبها فيهما، عندئذ، فانها لم تحاسبه حسابا عسيرا. ومن الممكن مقابلة السفن الشراعية أو السفن التجارية المتجه الى الوطن (أسبانيا) من وقت لآخر فى جزر الأزورس Azors Islands. وعند مغادرة دريك للشبونة، اتجه الى سنت ميتشل، وكان طالعه لايزال في الصعود.

وكانت السفينة سان فيليب San Philip، وهى سفينة فخمة قد وقعت مباشرة فى أيديه (أى دريك)، وكما لو كان أرسل لهذا الغرض وقد قيل أنها كانت محملة بالنفائس من جزر الهند الغربية لدرجة أن كل رجل فى الاسطول بدأ يحسب ثروته، ولم تكن هناك حاجة للانتظار مدة أكثر من ذلك وقد مضى شهران منذ أن أبحر دريك من بليموث، ويستطيع الآن أن يعود الى الوطن بعد رحلة بحرية لم يكتب التاريخ مثلها، عنه أو عن أى وطن آخر. فقد ضرب ملك أسبانيا فى عقر داره. وقد أعجز أو عوق الارمادا المزمع ارسالها لمدة فصل على الاقل. وقد حصل على غنيمة أثناء الرحلة، كما لوكانت عن طريق المصادفة، وتقدر هذه الغنيمة بنصف مليون (من الدوكات) وسوف يدفع منها تكاليف الرحلة. ولكى لايكلف سيدته شيئا رجع بهدية ثمينة لها. وأشك فى أنه قد قدم لأى مجلس عموم تقريرا عن الاسطول مثل هذا، وفوق ذلك، فقد علم دريك الاسبانى الواثق من نفسه أن يكون فى حالة من الخوف منه (أى من دريك). وحقق دريك لرفاقه التعساء نصرا مزدهرا، بحيث أنه كان من الممكن أن يحاربوا الشيطان وأتباعه تحت قيادة دريك.

ولاتزال سجلات وطننا العربى تحكى كيف أن المواطنين انسابوا وهم فى أفخر ملابسهم ليروا (السفينة) سان فيليب العظيمة The Great San Philip وهى تسحب الى ميناء دارموث Darmouth. ولم تكن البروتستانتية الانجليزية مرفأ رديئا تأوى اليه

الأمة فى مثل هذه الأوقات العاصفة. ويتطلب ذلك أن تذكر (هذه الحادثة) بشرف فى كلية للتاريخ فى جامعة انجليزية.

((الفصل الثامن))

ابحار الأرمـادا

كان السلام أو الحرب بين أسبانيا وانجلترا، يمثل قضية فى ذلك الوقت. وكان الهدف من هذا السلام، ضمان الوراثة الانجليزية له (أى فيليب) أو لواحدة من بناته. وتألمت الأمة الأسبانية كلها ألما عنيفا للأهانة التى لحقت بها بسبب حرق سفنها فى قادش. وكانت حماسة فيليب للحرب قد اشتعلت لهيبا. وعلى أية حال فانه قد صمم، أن يعفو عن شقيقة زوجته بشكل كلى، ومع ذلك كان يصر أيضا على منح الكاثوليك فى انجلترا تسامحا أكثر. ولم يفكر بأنه فى امكانه القراصنة الانجليز مهما كانوا جسورين وبارعين الأستطاعة فى مقاومة الاستعدادات الحربية التى كان يعدها للتوجه الى القتال. فلم يكن الاسطول الملكى (الانجليزى) الذى عرفه (فيليب) جيدا، يتجاوز ال ٢٥ سفينة من كل الانواع والاحجام. ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون المغامرون مستعدين للقيام بأعمال حربية جريئة ولكن يجب أن يسحقوا بواسطة أسطول مثل ذلك الذى يعد فى لشبونة. ولهذا السبب ومن أجل نفسه (فيليب) قصد أن يطلب بأن العقيدة الكاثوليكية ينبغى أن تعاد بكامل هيبتها المطلقة، وأن بعض المدن المعينة فى انجلترا لابد وأن يعسكر فيها قوات أسبانية، لضمان حسن سلوك اليزابيث. وغالبا ما كان يحدث هذا مع رجال مترددين عندما يرغمون على قرار، فأنهم فى هذه الحالة يتسرعون، مع أنهم كانوا من قبل ذلك متباطئين. فبعد أن عاد دريك من لشبونة، أرسل ملك أسبانيا أوامره الى أمير بارما بعدم الأنتظار من أجل وصول الأرمادا، ولكن كان عليه أن يعبر القنال على وجه السرعة، على رأس جيش الفلاندرز ويرغم اليزابيث أن تجسو على ركبها. وكان لدى بارما قدر من الفهم أكثر من سيده. وأوضح بارما هذا أنه لايستطيع العبور دون أسطول كى يحمى به طريقة. فمن الممكن أن تمخر المراكب النقل الكبيرة فقط فى المياه الهادئة، سواء أكانت هذه المياه هادئة أو هائجة فان هذه السفن من الممكن أن ترسل الى القاع (أى من الممكن أن تغوص فى القاع) وذلك بواسطة ستة من الزوارق الانجليزية القادمة من التيمس. و لنفرض أنه استطاع أن يرسوا ما فى ثانت Thant ، أو فى مكان أخر، فالأهم من ذلك أن فيليب قد نبه بأنه لا يستطيع أن

يعد أكثر من ٢٥٠٠٠ من الرجال. وكانت المليشيات الانجليزية فى حالة تدريب. وقال الجزويت، أنهم ساخطون ولكن من المحتمل أن يكونوا على خطأ. ومن المحتمل أيضا أن عليه (بارما) أن يحارب أكثر من معركة، وسيكون عليه كذلك أن يترك فرقا عسكرية من اسطوله أثناء تقدمه نحو لندن، كى يحمى خطوط مواصلاته، فلو حدث عكس ذلك فستحل الكارثة. ومع ذلك كان بارما على استعداد للطاعة اذا أصر جلالته، ولكنه مع ذلك، أوصى فيليب بأن يستمر فى أن يلهى الانجليز بمعاهدة حتى تستعد الأرمادا، وبادراك واضح، فان المغامرة ستكون أصعب مما تصوره فيليب، وقال (بارما) رأيه فيها – رغم ماحدث فى قادش – فأنه اذا سلمت اليزابيث المدن المتحفظ عليها فى الفلاندرز Flanderis ، الى أسبانيا، ومنحت الكاثوليك الانجليز درجة معقولة من الحرية، فانه من مصلحة فيليب عندئذ أن يعقد صلحا فى الحال، دون مطالبة بشروط أكثر. وفى هذه الحالة يستطيع فيليب أن يشن حربا جديدة اذا هو أراد ذلك فى المستقبل. وعندما تبدو الظروف أكثر ملاءمة، فمن الممكن أن تميل اليزابيث الى الموافقة (فى ظل شروط كهذه). وقد وضع أهالى الأراضى المنخفضة المدن تحت مسئوليتها (أى مسئولية اليزابيث) فاذا تخلت عنها الى العدو، كى تهئ لنفسها شروطا أفضل، فان ذلك سيكون عملا مشينا بدرجة كبيرة، وسوف يلحق العار باليزابيث الى الأبد. ومع ذلك فهى لم تفكر فى هذه المسألة. وقالت (اليزابيث) أن هذه المدن تخص فيليب، وهى ستعيد فقط ملكيته الخاصة اليه. ويدعوها برغولى، اذا هى أرادت السام، فعليها أن ترجع دريك الى الأزورس Azores وعليها أيضا أن تروع فيليب فى سفن ذهبه. وكانت (اليزابيث) فى ذلك الوقت فى احدى أمزجتها التي من الصعب التحكم فيه، فبدلا من استدعاء دريك مرة ثانية، أمرت اسطولها بأن يجرد من أسلحته، وأن يرابط فى تشاثام Chatham وتنازلت بالأعتذار لبارما Parma على حرق الحمولات فى قادش، لأن هذا كان قد تم ضد أوامرها.

وكان هذا فى ديسمبر من عام ١٥٨٧، أى قبل خمسة شهور من أبحار الأرمادا من لشبونه. ولم تكن هى (اليزابيث) ولا وطنها (انجلترا) قريبان من الدمار فى حياتها مثل ذلك الوقت. وفى تلك اللحظة كان الزمن التام لانجلترا يقع على عاتق المغامرين،

وعلى المغامر [illegible]

وفى [illegible]

كما أعد الأ [illegible]

جاء فيه: أ [illegible]

يعمل. فكا [illegible]

(فيليب) ي [illegible]

الهدوء، و [illegible]

الاثناء، [illegible]

مفاوضا، [illegible]

لدى الأ [illegible]

الأقاليم [illegible]

وعلاوة [illegible]

كان ال [illegible]

اليزابي [illegible]

اللحظ [illegible]

ذلك، [illegible]

فكر [illegible]

اليز [illegible]

الأ [illegible]

دقا [illegible]

هو [illegible]

هذ [illegible]

فى الله [illegible]

كافية [illegible] لم [illegible] فيليب [illegible]

وكان لدى (سانتا كروز) [illegible]

وعموما: على أية حال ، فقد مات سانتا كروز بعد أيام قليلة من مرضة.

وعندئذ، كان على الابحار أن يتأجل حتى يمكن اختيار قائد جديد، وقد أعطى اختيار فيليب برهانا غريبا على قصده من الحملة، فهو فى الحقيقة، لم يتوقع أو يرغب فى حرب خطيرة، فكل ما كان يرغب فيه هو أن يصبح ملكا لانجلترا مرة ثانية، وبموافقة الكاثوليك الانجليز. وهو لم يقصد - اذا استطاع - أن يثير العزة الوطنية بالقوة، أو الغزو. وعندما كان سانتا كروز على قيد الحياة، لم يسمح له الرأى العام بأن يتوارى. فمن الواجب أن يقود سانتا كروز الحملة. وقد عزم فيليب على الذهاب معه، ليمنع وقوع أية اجراءات عنيفة جدا، والآن وقد مات سانتا كروز، ويستطيع فيليب أن يجد الشخص الذى يستطيع أن يعمل ما يؤمر به، فوجوده (فيليب فى الحملة) لم يعد له مايبرره.

وكان دوق ميدينا سيدونا Medina Sidona ، يدعى البيونو El-Bueno، أو الطيب Good ، وهو من أعلى الطبقات، فكان غنيا بدرجة كبيرة، ومغرما بالصيد، واطلاق النيران، وكان فارسا قوى الشكيمة، بالأضافة الى ذلك فانه انسان غير مؤذ، فقد تصل صفاته الى الأربعين، وكان غارقا بأخطائه، ولكنه كان غير مدرك بأن أميرا عظيما مثله ليس فى حاجة إلى اصلاح وكانت تنقصه العزة والطموح ، وكانت سعادته تتمثل فى تجواله فى حدائق برتقاله فى سان لوكان San-Lucan، وهو لم يلم بأى علم مفيد. وكان قائد عام فى الاندلس، وقد فر أو هرب من قادش عندما قدم دريك الى الميناء، كان هذا كل شئ عنه. وقد أصابته الدهشة والأستياء عندما علم بأنه قد وقع عليه الأختيار ليكون قائدا عاما للقوات البحرية فى أسبانيا. فكان عليه أيضا أن يتولى قيادة الحملة الى انجلترا، تلك الحملة التي كثر الحديث عنها. وقد أوضح عدم ملاءمته لهذا العمل، فهو ليس برجل بحر حيث أنه لم يعرف أى شئ عن الحرب فى البحر أو البر، واذا غامر بركوبه فى مركب فانه سيشعر بدوار، كما أنه لم ير أبدا القتال الانجليزى. وبالنسبة للسياسة فلم يعرف أى شئ عنها أو يهتم بها؛ أى أنه لم يعرف أى شئ، وبأختصار، فلم يكن لديه الكفاءة أو الأهلية التى يتطلبها مثل هذا المركز.

وقد أحب فيليب تواضعه، ولكن فى الواقع، كانت أخطاؤه هى التى رشحته لهذا المنصب. فهو سوف يطيع تعليماته (أى تعليمات الملك) وسوف لا يحارب الا اذا كان ذلك ضروريا، وسوف لا يتهور فى القيام بمغامرات. وكل ما أراده فيليب منه هو أن يجد أميرالا، ويفعل ما يأمره به بارما. وأما بالنسبة لفن الملاحة، فسوف يكون تحت أمرته أفضل الضباط. و أما بالنسبة لمايليه فى القيادة فسوف يكون معه دون ديجودى فالديز Don Diegode Valdez – البحار العجوز، المتجهم، الصامت ، الحذر – الذى أحبه فيليب. وقد عاد الدوق الى لشبونه وهو مملوء بالشك والتردد ، ولكن راهبة ما قد أدخلت فى قلبه الشجاعة، قائلة له: أن العذراء قد أرسلتها لتعده بالنجاح. وكان كل جزء من الخدمة جديد بالنسبة له. فكان رجل قلق ينتابه الانفعال، وشرع بنفسه يستعلم عن كل شئ حتى انه كان يتدخل فى الأشياء التي لم يستطع فهمها، وكان من الأفضل له أن يتركها. وكان ينبغى عليه أن يترك التفاصيل الى الرؤساء المسئولين فى الأقسام. وتوهم أنه فى اسبوع أو فى اسبوعين يستطيع أن يشرف بنفسه على كل شئ. وقد أعد ١٣٠ سفينة، ٨٠٠٠ بحار ، ١٩,٠٠٠ ألف جندى مشاة أسبانى وكان من بينهم متطوعون من النبلاء، و ضباط وكهنة، وجراحون وعبيد ليقوموا بالخدمة على المراكب، وقد بلغ عددهم ٣٠٠٠ رجل على الأقل، وكان معهم مؤن تكفيهم ستة شهور. وبعد ذلك، كانت توجد هناك سفن مشحونة بالذخيرة والأسلحة الصغيرة و الكبيرة، وبالبارود، وبالساريات Spars وبحبال السفن وبالأشرعة، وبملايين من الأشياء الأخرى الضرورية التى تحتاج اليها السفن العاملة فى الخدمة. وتولى الدوق التعس بنفسه الاشراف على كل هذا، ولما لم يكن فى استطاعته فهم أى شئ، أو معرفة أى شئ يراه، فانه نتيجة لذلك لم يفحص أى شئ على الاطلاق. وفى الحقيقة كان اهتمام كل فرد، منصبا تماما على الجانب الروحى للموضوع بحيث أنهم لم يستطيعوا الاستماع الى توافه الأمور المبتذلة. وعندما بدأ دون كويكسوت Don Quixote رحلته نسى النقود والمفروشات. وكانت أوربا الكاثوليكية عند ابحار الأرمادا تفوقه فى الأطراء، فكانت كل أسرة نبيلة فى أسبانيا، قد أرسلت بواحد أو بآخر من أبنائها ليحارب من أجل المسيح والعذراء.

ولمدة ثلاثة سنوات، تدفقت الصلوات بشكل كبير من الكنيسة والكتدرائية، ومنابر الخطابة. وقد أفرغ الملك خزانته. فقد قدم النبيل الاسبانى والتاجر اسهاماتهما. ولم تحدث الحملة الصليبية ضد الاسلام نفسه مثلما أحدثته الأرمادا، من انفعال أكثر أو من حماسة أكثر تقديسا. وبذلت كل الجهود لجعل الحملة جديرة روحيا بهدفها. ولم يقترب من السفن أو من الترسانات أى شئ دنس أو أى أمرأة غير طاهرة على وجه الخصوص، ومنعت الشتائم والنزاعات والمقامرة وفرضت عقوبات قاسية. وسميت السفن الشراعية الضخمة التي قامت بتلك المهمة بأسماء الحواريين والقديسين، واعترف كل بحار وجندى للكاهن بذنوبه وتطهر كل واحد منهم عند اعتلائه ظهر السفينة. وعند شروق الشمس كان صبيان السفن ينشدون نشيدهم البينوس دايوس Buenos Dias ، اسفل السارية الرئيسية وعند غروب الشمس واختفائها فى المحيط كانوا يحيون سيدتهم العذراء Ave Maria وكان علمهم الاستعمارى مزخرفا بصور المسيح وبصور أمة، وكشعار للكبرياء و الغطرسة استبدلت كلمة Plus Ultra الخاصة بتشارلس الخامس بكلمات أكثر ورعا وطموحا Exsurge, Deus, et Vindica Causamtuom .

فليس هناك بأفضل من أن ينظر الى المزيد من الضروريات العادية بنفس تلك المساواة الجيدة. ولسوء الحظ فقد تولى مدينا سيدونا فحص هذه الاشياء بنفسه مع أنه كان غير قادر على تصحيح المعلومات التى أختار أى ندل أن يقدمها له. وأخيرا وفى أواخر ابريل أبلغ بنفسه بأنه راض عن كل شئ. فقد بوركت أيضا الراية والرجال والذخيرة على ظهور السفن، وأعدت الارمادا التى لا تقهر لتتخذ طريقها. ولا عجب فان فيليب كان واثقا من نفسه، فكان هناك ١٣٠ سفينة شراعية ضخمة تحمل كل منها مابين ٧٠٠، ١٣٠٠ طن، وكان على ظهورها ٣٠٠٠٠ من الرجال المحاربين، بالأضافة الى العبيد والاتباع، وكانت هذه الأعداد تشكل القوة التى من المحتمل أن العالم سيعتقد بأنها لا تقهر. وكانت المدافع هى أضعف نقطة فيها، ومع ذلك فقد كانت ضعف القوة الانجليزية، و كان الجزء الاعظم من المدافع هى التى تطلق دانات من زنه ٩٠ أو ٦ من الأرطال، وكان كل واحد (مدفع) قادرا على أن يطلق خمسين طلقة. وحتى الآن، فقد كانت الاسلحة التى يستخدمها الاسبان فى حروبهم البحرية قصيرة المدى اذ كانوا

يستخدمون الأسلحة الصغيرة، فكان عليهم أن يتلقوا درسا حول هذا قبل أنقضاء فصل الصيف.

وفى تلك الاثناء ، توقع فيليب نفسه، بجلاء أنه سوف لا يلاقى أية معارضة ، فقد زود من جانب الكهنة ب ١٨٠ من الجراحين ، و بـ ٨٥ فقط من مساعدى الجراحين، من أجل كل الأسطول.

وفى منتصف شهر مايو أرسل (فيليب) أوامره الاخيرة. ولم يكن على الدوق أن يسعى الى معركة. فاذا هو التقى مصادفة مع دريك، كان عليه أن يتجاهله ولكن شكرا لله، وكما قال دوجيرى Dogberry الى الحارس أنه تخلص من مخادع. فكان عليه (أى على قائد الأسطول) أن يذهب مباشرة الى شمال فورلاند North Foreland ، فهناك يرسو ويتصل بيارما والا دميرالات المتمرسين الذين تعلموا فنهم تحت قيادة سانت كروز، وهم مارتنيز دى ريكالد Martinez de Recalde وبدرودى فالدميز Pedro de Valdez ومجويل دى أوكونيدو Niguel de Oquendo ، فقد حرص هؤلاء جميعا وبشدة على الاستيلاء على بليموث Plymouth أو على جزيرة ويت The Isle of Wighte وهم فى طريقهم الى القتال. وكان هذا بوضوح من تخطيط سانتا كروز، وكان ذلك هو الشئ المنطقى الوحيد الذى يتبع. ولكن لم ير فيليب ذلك، اذ لم يعتقد بأن ذلك من الضرورى، ولكن بخصوص ذلك وبخصوص العراك، فقد تركهم، لأنه عرف ماذا يجب أن يفعل لحكمة معينة.

وبعد ذلك، رفع الدوق العلم المقدس فى الهواء على السفينة سان مارتن San Martin، التى اتجهت الى تاجوس Tagus فى ١٤ من شهر مايو ، وتبعها باقى الاسطول. وكانت السفينة سان مارتن هذه مبنية بطبقتين من خشب البلوط حتى لا ينفذ الرصاص منها. فهو لم يحب عمله أفضل من ذلك. وعبثا كان يكرر لنفسه أنها قضية الله. لذلك فلم يعرضهم الله الى أى أذى. وبمجرد أن أصبحوا فى عرض البحر، فانه لم يجد أية قضية مهما ؛كانت قدسيتها بحيث تنقذ الرجال من نتائج أخطائهم. وكانوا متأخرين فى الخروج الى عرض البحر فقابلتهم الرياح التجارية الشمالية، كما تنبأ سانتا كروز. واندفعوا فى اتجاه الريح يوما بعد يوم، حتى اجرفوا الى رأس سنت

فنسنت Cape St. Vencint ، وبذل اهتماما لاحد له للعناية بالحالة الروحية لكل شخص على ظهر كل سفينة. ولم يطرأ أى تفكير عن اهمال يدل على نذالة المقاولين والممونين وكان قد تم الحصول على المياه قبل ذلك بثلاثة شهور. فوجد الماء فاسدا نتناً وكان اللحم البقرى المملح، ولحم الخنزير المملح والسمك قد تعفن، وكان الخبز مملوءا بالديدان والصراصير. وفتح برميل بعد برميل، فكانوا يجدون نفس الشئ. وكان عليهم أن يلقوها من فوق ظهور المراكب الى البحر. ولم توجد فى كل الأسطول كسرة صالحة من الطعام، ولكن كل الذى وجد هو البسكويت والفاكهة الجافة. وأصيب مئات من الرجال بالدوسنتاريا. وقد ندب الدوق حظه ببراعة مثل سانشوبانزا Sancho Banza ، وأمل فى أن يساعده الله. ولم يرغب فى ضرر أى شخص. وقد ترك وطنه وأسرته، ليسعد الملك، ووثق بأن الملك سوف يذكر له ذلك ، وكتب للملك يستغيث به لارسال مؤن طازجة، اذا أراد الملك الا يهلكوا جميعا، وقال الادميرالات أنهم لن يستطيعوا التقدم أبعد من ذلك دون الحصول على مياه نقية، وكان كل شئ مفزع ومريك. وأخيرا اتجهت الريح الى الجنوب، فاتخذوا طريقهم نحو فنستر Finistere ، وبعد ذلك بدأت الرياح فى الهبوب، وعلى أثر ذلك تفرقوا. وبعد ذلك زحف الدوق ومعه نصف الاسطول الى كورنا Corunna. وكان من الصعب على الأطقم أن يزودوا والترسانات بالرجال ، لأنهم حاولوا تركها فى جماعات.

وقد تم العثور على السفن المفقودة الواحدة تلو الأخرى، ولكن بعد أسبوع كانت الثالثة منها لا تزال مفقودة. وأرسل الدوق خطابا آخر يائسا الى سيدة وقال أنه استنتج من مصائبه بأن الله غير راض عن هذه البعثة، وأنه من الأفضل التخلى عنها. وكان هذا نفس رأى ديجو فلوريز Diego Florez . وقال كانت الذخيرة عديمة الجدوى (فاسدة). وكان الرجال مرضى و فى حالة معنوية منخفضة. ولا شئ يمكن عمله فى هذا الفصل. ولم يكن قد أصبحوا سادة لنصف العالم بعدم رجوعهم عند أول صعوبة، ولم ير رفاق سانتا كروز القداما أى شئ فيما أصابهم أكثر من أنه حادث عادى فى الحياة البحرية. وقالوا أنه سيكون من الجبن والعار أن يتخلوا عند أول صعوبة عن مشروع تؤلوه بمثل هذه الحماس ولن تفقد السفن لأنها كانت مختفية. وكان من الممكن

الحصول على اللحم والخبز الطازج. ووضعه على ظهور السفن من كورونا. واستطاعوا أن يقيموا مستشفى على الشاطئ للمرضى. ولم يكن المرض خطيرا ولم تحدث حالات وفاة وكان الأمر يتطلب مجهودا قليلا. وعندئذ سيصبح كل شئ على مايرام مرة أخرى. وأرسل بدرو دى فالديز رسولا الى فيليب يتوسل اليه بأن لا يستمع الى نعيق الدوق. وأرسل فيليب ردا سريعا يخبر فيه الدوق بالا يرتعد من الأشباح.

وفى الواقع لم يوجد شئ مرعب، فقد قضى الماء النقى على الدوسنتاريا. وأرسل الطعام الطازج من الوطن. وملأ البحارة الجالشيين Galician الفراغات الناجمة عن هروب الجند. ووضعت السفن على الشاطئ و كشطت و شحمت، ونصبت الخيام على جزيرة فى الميناء، وزودت بمذابح ، وقسسه واعترف كل واحد مرة أخرى، وتقبل القربان المقدس. وكتب الدوق يقول: " هذه الثروة ضخمة وجوهرة نفيسة، والجميع الآن قانعون ومبتهجون، وقد تجمع ثانية القطيع المبعثر وأصلحت الأضرار، وكان الضرر الوحيد هو ضياع الوقت. ومرة أخرى، يوم ٢٣ من شهر يوليو بدأت الأرمادا طريقها وهى كاملة العدد الى انجلترا، ومخرت عبر خليج بسكاى فى ريح معتدلة، متجهة الى مصب القتال.

ونترك الدوق للحظة، فمن الواجب الآن أن نلقى بنظرة على الاستعدادات التى أجريت فى انجلترا لاستقبال الدوق، وفى الغالب يمكن القول بأنه لا يوجد هناك شئ على الأطلاق. فكانت شهور الشتاء مقفرة و متقلبة، ولكن عقل ملكة انجلترا لم يكن بهذا القفر أو التغير. وفى ديسمبر انطلق اسطولها الى تشاثام، ولكن تسلط عليها بشدة خطر الوطن بدون دفاع نظامى لدرجة انها معه وافقت على أن يعاد تزويد جزء من سفنها بالرجال و العتاد لاعدادها للخدمة الفعلية. و اعطيت " السفينة الانتقام" الى دريك ، فكان على دريك (القائد الأعلى) وهوارد أن يذهبا على رأس أسطول مختلط من الأسطول الملكى ومن أسطول المغامرين الى الساحل الاسبانى. وكان لكل فرد من أفراد الرعية المخلصين رأى واحد فقط هو " الحرب العلانية الجيدة" التى تكون هى الطريق الوحيد لسلام مشرف. فهم الآن وثقوا فى الحرب العلانية التى سيأتى فى النهاية. ولكن بدأت الآمال تصاب بخيبة الأمل، فقد جاءت الأخابر عن موت سنتا كروز، مع التقرير الذى أرسل الى الملكة (ملكة انجلترا) والذى صدقته تماما، وجاء فيه " أن

الأرمادا قد تشتت وأنها لن تأتى على الأطلاق". وتغنى السير جيمس كروفتس Sir James Crofts بالأغنية المعتادة من أن دريك وهوارد رغبا فى حرب، لأن الحرب حرفتهما. ونتيجة لذلك فقد الفت (اليزابيث)، أوامرها. وقالت أنها كانت واثقة من سلام فى ست أسابيع، وبعد ذلك الوقت فسوف لا تكون خدمات الأسطول (الانجليزى) مطلوبة. وطرد نصف الرجال العاملين عليه (أى على الاسطول) فى وقت واحد لكى يوفروا رواتبهم. ومن المحتمل أن يتجول كل من دريك والورد هنرى سيمور Drakeand lord Henry seymour بأربع أو بخمس من سفن الملكة بين بليموث وسلونت Plymouth and solent. وكان على اللورد هوارد أن يبقى فى التيمس Thames مع البقية. وأنا لم أعرف اذا كانت الشتائم قد منعت فى الأسطول الانجليزى، كما منعت فى الأسطول الاسبانى، ولكن من الممكن أن أجيب على ذلك بأن هوارد Howard لم يوفر لغته عندما وصلته هذه الرسالة، وقال "أبدا" فمنذ أن كانت انجلترا " انجلترا" فلن تخدع بمثل هذه الطريقة ولم يصبح لنا سلطان باعادة السفن الى تشاتام. ونحن نشبه الدبية المربوطة الى الوتد، ومن المحتمل أن يأتى الاسبان كالكلاب ليزعجونا ومع ذلك فلم نستطع ايذاءهم.

وكان من حسن الحظ انجلترا أنها كانت تمتلك مدافعين آخرين غير أسطول الملكة الذى يدار بطريقة همجية. ويخبرنا المؤرخون عن كيفية خروج نبلاء الساحل فى سفنهم الخاصة لمقابلة الغزاة. فهم قدموا فعلا، ولكنهم من كانو هم ؟ فالسفن التى كانت تستطيع أن تحارب السفن الاسبانية الشراعية الضخمة، لم تكن تصنع فى يوم أو فى أسبوع. فقد بنيت هذه السفن من قبل. وزودت بالرجال من قبل الرعايا المخلصين، الذين كان شغلهم الشاغل مقابلة عدو وطنهم وعدو عقيدتهم على المحيط الواسع، ولم تكن هذه المقاومة من جانب هؤلاء الذين كانو ا ينتظرون ثورة كاثوليكية بقلوب مترددة.

واستمرت المسيرة ، ووصلت أخبار أكيدة بأن الارمادا لم تتشتت. ومرة ثانية توسل دريك للملكة بأن تدعه يأخذ السفينة " رفنج" Revenge والمغامرين الغربيين الى لشبونه، وكتب مفوضو الحكومة من أوستند Ostend الى اليزابيث وهم مملؤون بالأمل،

ولكن كانت اليزابيث تخشى أن يسئ ملك أسبانيا فهم ذلك وقد وجدت (اليزابيث) أخطاء في مصاريف دريك. و اتهمته بتبديد ذخيرتها في ممارسة ذلك الهدف، وكانت قد سمحت له بمقدار ضئيل، ولم تسمح له بأكثر ما يكفيه لمدة يوم، كما لم تسمح كذلك بنفقات لأكثر من نصف الخدمة، وفرضت قبضة حديدية على شركات المواد الغذائية - ومر شهر ابرايل، وكانت أجمل سفنها - الظفر Triumph والنصر Victory، واليزابيث جوناس The Elizabeth Jonas والسفينة الدب The Bear لا تزال اشرعتها مشرعة، وملتزمة بكنيسة تشاثام Chatham church (أى تتبع لمذهب هذه الكنيسة). وقالت (الملكة) أن هذه السفن لا حاجة بها، واذا أعيد أعدادها فسيكون هذا ضياع للأموال. وأخيرا، ومرة ثانية أجبرت على الخضوع (اليزابيث) وأحضرت السفن الأربعة الى البحر في الوقت المناسب وعوض عمال الترسانات عن مدة التأخير لهذه السفن. وعندما أبحر اسطولها الى القتال، كانت (اليزابيث) لا تزال تحتفظ لديها بما يكفيها من عدد قليل من السفن، ولولا سفن القراصنة، لا نقلب تقدير الأمور عندما بدأت المحاولة. وحينئذ كانت الأرمادا آتية، ولم يعد يوجد شك في مجيئها. وقد ترك اللورد هنرى سيمور مع خمس من سفن الملكة، ومع ٣٠ من سفن مغامرى لندن، لكى يراقب بارما والبحار الضيقة. وكان هوارد يحمل علمه على السفينة ارك رالى The Ark Raleigh، وانضم الي دريك في بليموث ومعه سبع عشرة سفينة أخرى، ومازالت يد سيدته الجامحة تطارده. وتدفقت الأمدادات من المواد الغذائية حتى منتصف يونيو، ولم يسمح بأكثر من ذلك. وفي ذلك الوقت، كان الطقس رديئاً - بحيث كان الصيف عاصف لدرجة لم تعرف من قبل. وسببت العواصف الشمالية الغربية هدير أمواج الأطلنطى، ولذا قبع دريك في الداخل، ربما فيما وراء الجزيرة التى تحمل اسمه. ولجأ هوارد إلى جبل أوجسيمب Mount Edgeccembe ، تجنبا للعواصف، وتمضى الأيام و تنفذ المواد الغذائية وخفضت التعينات حتى يصبح المخزون من المؤن يكفى لمدة أطول. وبسبب تغييرات كثيرة أعد البحارة على درجة من السرعة، فكانت ملابسهم رثه، وكانت التموينات تنقص كل يوم، ومع ذلك فلا يوجد شئ يشكون منه، فكانوا يصطادون السمك كي يعرضوا النقص في غذائهم، وتوسلوا فقط من أجل قدوم العدو على وجه

السرعة، حتى أن هوارد نفسه أضطر قلبه الآن. وسوف يعمل البحارة الانجليز ما يستطيعون عمله كرجال، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحاربوا وهم يتضورون جوعا. وكتب (دريك) الى الملكة يقول " استيقظى يا سيدة، استيقظى من أجل المسيح، وانظرى لترى الخيانات الخسيسة من حولك، وطلب منها أن تأمر بامدادات تكفى لشهو أخر فسوف يكون هذا بالتأكيد هو الأخير. وسأل (دريك) الموننون اذا كان ينبغى عليهم أن يقوموا بمزيد من الأستعدادات. فأجابت الملكة على نحو قاطع بالرفض. ومرة ثانية، مرت الأسابيع، وكما يبدو قد هيمن الموننون على شخصيتها، لأن البيرة التى أعدوها للأسطول قد فسدت بحيث أن هؤلاء الذين شربوها من الجنود مرضوا. وطلب الضباط من واقع مسئولياتهم، نبيذا ونوعا من النشا المغذى للمرضى من بليموث، وكان على هؤلاء الضباط أن يستدعوا للحساب العسير بعد انتهاء كل هذه الأمور. ومرة ثانية، نقصت التعيينات، وجعل مخزون أربعة أسابيع يكفى لستة أسابيع، ومع ذلك، فلم يأت الاسبان بعد.

وهكذا، فان الأمل اليائس لانجلترا اعتبر كأزمة قضاء وقدر. و لم تكن الاستعدادات على الأرض أفضل كثيرا، فقد استدعيت المليشيات Militia، وسجل مائة ألف رجل أسماءهم ونظمت المعسكرات حيث كان عليهم أن يتجمعوا، اذا العدو حاول النزول على البر. ولكن لم يوجد هناك احتياط، ولا مخازن للأسلحة، ولا مؤمن، ولا خيام، ولا يوجد هناك أيضا ضروريات لجيش سوى الرجال أنفسهم، وما تستطيع الموارد المحلية أن تقدمه.

وعلى وجه العموم، فقد اختارت الملكة الايرل أف ليسستر The Earle of leicester، ليكون قائدا " لقواتها" وكان من أهم فضائله اخلاصه لها أما غير ذلك، فهو أسوأ قائد ممكن أن تجده فى كل ممتلكاتها. واذا كان بارما أتيا على وجه الدقة، فهو قادم على رأس أحسن قوات أوربا تنظيما واعدادا. وكان أمل انجلترا فى تلك اللحظة يكمن فى بحارتها الذين كانوا يعانون بصبر فى بليموث ففى كل صباح، كانوا ينظرون بأنفعال باحثين عن السفن الأسبانية. وكان الوقت أسوأ عدو من السفن الشراعية الضخمة. وقد مرت ستة أسابيع، وكان من الواجب عندئذ لسفن الملكة أن تغادر البحار،

حتى لا يموت البحارة جوعا، وكان لدى دريك أخبار مؤكدة عن أن الأرمادا قد أبحرت. فأين كانت هى؟وفى مرة من المرات اندفع نحو أوشانت Ushant، ولكنه عاد خشية أن تمر به الأرمادا ليلا وتجد بليموث دون حماية، وكلما قل أو تناقص مقدار الطعام، كلما شحبت وهزلت وجوه البحارة، ومع ذلك فلم يشكو أحد، فلم يكن لديهم وقت للمرض أو للضعف.

وقد جاء الاسبوع الأخير من شهر يوليو، وخفضت التعينات الى النصف ولم تعد تكفى لمدة أسبوع أو أكثر. وكان يوجد بارود يكفى لحرب تستمر يومين، كان تلك كل شئ. وكانت هذه الحملة الجبارة تعتمد الآن على هذا الكم القليل جدا من الطعام. وفى يوم الجمعة ٢٣ أبحرت الارمادا للمرة الثانية، ولم تقلل عودتها من حماستها الدينية، كما أن هذه الحماسة لم تفتر، ولا تزال أمالها عاليا كما كان. وقد أبحرت فى أيام السبت والأحد والأثنين على مياه هادئة، وبريح جنوبية خفيفة. وفى ليلة الأثنين وجد الدوق نفسه فى مصب القنال بكل ما معه من رجال. وفى صباح الثلاثاء تغيرت الريح الى الشمال، ثم بعد ذلك تغيرت الى الغرب، وهبت بشدة وهاج البحر، ولا طمت الأمواج بشدة جوانب السفن الشراعية الضخمة، و ارغمتها عن البحث عن مأوى فى الموانئ الفرنسية. وانسحب الاسطول لمدة يومين حتى تحسن الطقس. وفى يوم الجمعة بعد الظهر رأوا السفينة ليزارد Leatherd (يبدو أنها انجليزية، فاتخذت الارمادا تشكيل الحرب، فكان الدوق فى الوسط. وكان أولو نزد دى ليفا Alonzo de leyva، يقود سفينته الخاصة المسماه بأسم الراتاكورونادا The Rata coronada. وكان دون مارتن دى ريكالد Don Martinde Recald يحمى المؤخرة. ووصل طول الأسطول (الأسبانى) حوالى سبعة أميال. ورفع العلم المقدس على أعلى صار فى السفينة سان مارتن، فحيته كل سفينة بكامل مدافعها، وركع كل رجل، سواء كان ضابطا أم نبيلا أم بحارا على ظهور السفن عند اشارة معينة يطلبون أرضاء العذراء وأبنها. ونحن سنفقد المعنى لهذه الملحمة البطولية الراقية، اذا نحن لم ندرك من أن كلا الجانبين كان لديه الاقتناع العميق من أنهما كان يحاربان معركة الله. وكان هناك مبدءان يتصارعان لارشاد البشرية، هما الحرية و السلطة. وفى المساء أرسل الدوق قاربين سريعين الى بارما

ليخبره بوصوله الى القنال، وارسل تقريرا علي جانب من الأهمية الى فيليب، وأنبأه فى التقرير بتقدمه، وعن عزمه على التوقف فى جزيرة ويت، حتى يسمع من الأمير (بارما أى أوامر). وعموما، قيل بأن ضباطه نصحوه بأن يتقدم ويحتل بليموث ولكن لا يوجد دليل على ذلك، وكان من الممكن للجزيرة، أن تكون مركزا لهم أكثر فائدة بالنسبة لهم. وفى ظلام يوم الجمعة شوهدت الركيات* وهى مشتعلة على طول الساحل وفى الداخل على قمم التلال. لهذا تقدموا ببطء طوال يوم السبت، دون كامل الاشرعة، وكانو يتحسسون طريقهم – بحيث لا يرى الاشراع واحد. وفى منتصف الليل أمسك مركب بشراعى صغير، بقارب صيد، الذى منه علم (الأسبان) أنه عند رؤية اشارة نارية، فان ذلك يعنى أن الانجليز قد خرجوا هذا الصباح من بليموث، وعندما ارتفع القمر رأوا السفن تمر بينهم وبين البر. وفى مطلع الفجر أصبح المشهد مرئيا وعندئذ، رفعت الستارة عن أول فصل من فصول المسرحية. وكانت الأرمادا بين ريم هيد Rame head ،ايدستونEddystone ، أو كانت على مسافة قليلة منها الى الغرب. وكانت بليموث سوند مفتوحة تماما عن يسارهم. وكان النسيم الذى هبط بالليل منعشا، والذى كان قادما من الجنوب الغربى، وكان أمامهم وفى خارج الميوستون Mewstone ، يوجد احدى عشرة سفينة كانت تقوم بمناورة تعويضا عن الريح. وفى اتجاه الارض كان هناك ٤٠ سفينة أخرى من الاحجام المختلفة، وعلى قدر ما رأوا فان كل هذا كان يكون القوة الانجليزية كلها.

وتقريبا، كان عدد الأسبان يفوق عدد الانجليز بنسبة ٣:١، وبالنسبة لحجم السفن، فلم يكن هناك مقارنة. فهذه المزايا، قرر الدوق أن يشتبك واعطيت اشارة كى يستفيد من الريح، ويبقى العدو منعزلا. وكانت الاحدى عشرة سفينة الموجودة فى

---

* الركيات جمع راكية، وهى عبارة عن حفرة فى الأرض يصل عمقها الى قدم ويصل عرضها الي قدمين، ويوضع فيها الخشب الذى تشعل فيه النيران، ولا تزال تستعمل حتى الآن فى المناطق الريفية والصحراوية على حد سواء. ويتجمع حولها الناس فى الصباح والمساء وبخاصة فى فصل الشتاء(المترجم).

المقدمة، تتبع اسطول هوارد، أما الذين كانوا فى الداخل فهم يمثلون دريك والمغامرون، وبدهشة، رأى الضباط الاسبان هوارد يصل بسهولة فى الاتجاه المعاكس للريح، وبعيدا عن مرمى (الاسبان) وانضم الى دريك. وبعد ذلك مر كل الاسطول الانجليزى فى اتجاه معاكس للريح، وفى طابور من خلفهم (مـــن خلف الاســبان) واندفــع الى مؤخرتهـــم، مستخدما مدافع أكثر قوة من المدافع الأسبانية؛ وأطلقت السفن الانجليزية نيرانها من مسافة آمنة و بتأثير مميت على جوانب السفن الاسبانية. حاول كل من ريكالد Recalde، والونزو دى ليفا Alonzo de leyva وأوكويندو Oquendo ، الذين أتوا لمساعدته – الاقتراب بطريقة يائسة، ولكنهم لم يستطيعوا عمل أى شئ. و أبحروا بعيدا عن مرمى المدافع، واطلق الانجليز خمس قذائف على احدى سفنهم (سفن الاسبان)، وكان التأثير أكثر تدميرا، لأنه كان مثل ما حدث فى حرب رودنى Rodney فى دومنيكا Dominica ، وكانت السفن الشراعية مزدحمة بالقوات، وقد أحدثت القذائف والشظايا خسائر فظيعة بينهم (أى بين الأسبان).

وكانت التجربة جديدة وغير مقبولة. وقد عزلت قوة ريكالد Recald بشكل سيء للغاية، ولاحظ أسبانى من الحاضرين أن بعض الضباط أظهروا جبن، وكانت هذه ضربة للدوق، الذى كان بعيدا عن النيران، واستمرت المعركة حتى الرابعة بعد الظهر. وفى ذلك الوقت، كانت الريح تزداد سرعة ويزداد معها البحر هياجا. وقد مر كلا الأسطولين من السوند Sound فى هذا الوقت. ورأى الدوق أنه لا يوجد شئ يمكن عمله، وأعطى اشارة التحرك بعيدا عن القتال، وتبعهم الانجليز من على مسافة ميلين من المؤخرة. وقد كانت سفينة ريكالد أكثر السفن معاناة. ولوحظ بأن المياه قد تسربت اليها بشكل سيئ، وتخلفت عن باقى السفن تعرضت لخطر الأسر، عندئذ، استدار بدرو فالديز Pedro Valdez، لمساعدته بالسفينه كابيتانا التابعة للأسطول الأندلسى، ولكنه اصطدم بالسفينة سانتا كاتالينا Santa Catalina ، عند استدارته، فتحطمت مقدمة سفينته والصارى الأمامى، و أصبح من العسير السيطرة عليها. وكانت السفينة كابيتانا Capitana، الاندلسية هذه واحدة من أحسن السفن فى الأسطول الاسبانى. وكان دون بدرو واحد من أقدر، ومن أشهر القادة معرفة. فقد كان على ظهرها السفينة كابيتانا)

٥٠٠ من الرجال، ومبلغ كبير من النقود، وكان من بين الكنوز الاخرى التي كانت على ظهرها صندوق من المقابض المرصعة بالأحجار الكريمة، التى كان فيليبب قد ارسلها الى النبلاء الكاثوليك الانجليز. وجاء الليل وخيم الظلام، وبدا البحر والسماء قبيحين واضطر الدوق و أرسل اشارة الى قادة السفن لمواصلة السير، وترك دون بدرو لمصيره وصعد باندفاع من الونز Alonzo ، دى ليفا deleyva و كويندو Quendo على ظهر السفينة سان مارتن San Martin ، للأحتجاج، ولكن لم يكن هناك فائدة. وقال ديجو فلوريز Diego Florez ، انه لم يستطع المخاطرة بأمن الاسطول بسبب ضابط واحد. وقامت السفينة المتروكة كابيتانا Capitana، بدفاع شجاع، ولكنها لم تستطع انقاذ نفسها، وسقطت وعليها السيوف المرصعة بالأحجار الكريمة، ومبلغ ٥٠ ألف من الدوكات، وقدر كبير من الذخيرة فى أيدى دريك.

وكان على ظهر السفينة ستارت Start كارثة جديدة، فكان كل فرد (من بحارتها) فى مزاج سئ كما نشب الشجار بين الجنود والبحارة على ظهر سفينة أو كويندو. وكان لا يزال هو غائبا. والقى بعض اليائسين بشعلة فى مخزن البارود، وقفزوا من على ظهر السفينة الى البحر، وانفجر ظهر السفينة وعليها ٢٠٠ من الرجال.

وهاتان هما الحادثان اللتان تبعتا الاشتباك الفاشل، ولم يوفق الاسبان مع قيادة الدوق. وكان بدرو دى فالديز Pedro de valdez ، محبوبا ومحترما بشكل عام، وهروبه أمام عدو أقل عددا اعتبر جبن مشين. وجاء صباح الاثنين بتثاقل. وكانت الريح قد تلاشت، ولكن الأمواج مازالت عالية، وكان الانجليز لا يزالون يضربون من الخلف. وانقضى اليوم فى اصلاح الاضرار، وفى سد الفتحات التي سببتها القذائف، وتحرك ريكالد الى الامام ليكون بعيدا عن أى أذى، وأخذ دى ليفا مكانه فى المؤخرة.

وعند الغروب كانوا (الأسبان) خارج بورتلاند. واقترب الانجليز منهم أى كانوا علي بعد فرسخ، وقد ساد الهدوء تماما، واندفع (الأسبان) متفرقين مع المد، ولم يفكر الدوق فى شئ، ولكن فى منتصف الليل أيقظه الضباط الأسبان من نومه وحثوه أن يعد سفنه الكبيرة للعمل، فالآن تلك فرصتهم. وجلب لهم الفجر فرصة أفضل، وهى هبوب ريح من الشرق، فكان الجو الان فى صالح الأسبان اذا استطاعوا أن يطبقوا على

السفن الانجليزية، فان تفوقهم العددى سوف يضمن لهم النصر، وأن هوارد فى سيره مع الريح نحو الشاطئ، كان عليه أن يمر من وسط خط الاسبان لكى يستفيد من هذه الميزة. ومهما كان الحال فانها كانت نفس القصة.

ولم يستطع الاسبانيون استخدام أية فرصة عندما كانت لديهم هذه الفرصة فكانت السفن الانجليزية تتمتع بأنماط جديدة منحها التفوق والميزة على السفن الشراعية الضخمة مثل تفوق السفن التجارية، على السفن القديمة ذات الأسطح الثلاثة. وعندما توقف النسيم كانوا يذهبون أينما يريدون، ولما كانت السفن الاسبانية ليست على الند للسفن الانجليزية، فقد حطمتها مدافع أطول مدى من مدافع الاسبان. وتطايرت قذائف مدافعهم عالية، من فوق السفن الانجليزية، بينما كانت كل قذيفة انجليزية تجد طريقها الى جسم سفنهم (الأسبان). وفى هذا الوقت كانت السفينة سان مارتن داخل نيران المعركة فمزقت الواحها الخشبية المزدوجة. وقد شق العلم المقدس الى نصفين، وتسرب الماء من خلال الثقوب الناتجة عن الدانات، وفقد الرجال أعصابهم. وعلى سفن مثل هذه – يخلو من على ظهورها نبلاء – لوحظت عليها اشارات أو علامات تدل على أنها أجفلت أو ارتعدت.

وفى نهاية يوم الحرب هذا، نفذت الذخيرة الانجليزية. فقد كانت هذه الذخيرة تكفى ليومين فقط، هذا على حسب ما سمحت به الملكة. وفى اللحظة الاخيرة، طلب هوارد بالحاح مزيدا من المؤن، وقد تلقى الرد المعتاد الذى جاء فيه : انه من الواجب أن يذكر بدقة كم يحتاج هو قبل أن يرسل اليه المزيد من الأمدادات. وان اشعال الركيات زاد من خفقان قلوب الرسميين قليلا. وارسلت امدادات الى ويموث Way mouth أو الى بول Pool، ولا يمكن عمل شىء أكثر من ذلك حتى تصل هذه الامدادات، وفى غضون ذلك ترك الدوق ليصلح من شأنه، ويسلك طريقه، ولكن كانت انجلترا فى هذا الوقت متيقظة وخرجت مراكب جديدة للقرصنة من موانئ دورستشير Dorset shire Harbours وهى محملة بالذخيرة، واللحم والخبز ، والفاكهة، وبأى شئ استطاعت هذه السفن أن تحصل عليه. وقد أتى السير جورج كيرى Sir George carey من النيدلس Needles، فى الوقت المحدد ليشارك فى شرف المعركة الأخيرة وكما قال فأن الطلقات

كانت في كل اتجاه، تتطاير بكثافة مثل طلقات البنادق في تحرشات على الأرض.

ولاحظ الدوق بصعوبة من على ظهر السفينة سان مارتن بأن مطارديه كانوا يزدادون عددا. فقد صمم بحزم أن يتوجه الى جزيرة ويت، بحيث يأوى اسطوله فى سو لنت Solent ، وينزل على جزيرة ويت ١٠,٠٠٠ من رجاله، وهناك يتخذ موقف الدفاع حتى يتصل به بارما. وكان من الواجب عليه أن يحارب معركة أخرى، علما بأنه قد فقد حتى الآن سفينتين بالصدفة رغم أنه كان قد انعزل ومن المحتمل انه كان يأمل فى أن يشق طريقه بمساعدة سلطات أعلى، التى لسبب خاص، فانه كان يتوقعها معه فى الأشتباك التالى.

وكان يوم السبت ساكتا تماما. فكان الانجليز مشغولين فى امداداتهم. وكانت الارمادا لا تزال قابعة، وترمم الاضرار التي لحقت بها. وكان يوم الخميس يوم عيد الاحتفال بالقديس دومنيك St. Dominic day ، وينتسب القديس دومنيك هذا الى أسرة الدوق. وكان القديس راعى من هذه الأسرة. وكان الدوق على ثقة بأن القديس سيقف الآن الى جانب قريبه.

وجاء الصباح برياح خفيفة عندئذ سيكون الانجليز أقل قدرة على التحرك ولكن بمساعدة السفن الحربية الشراعية الكبيرة ذات المجاديف، كان (دريك) يأمل فى أن يتخذ مواقع قريبة في النهاية. وبدا أن هوارد كان ميالا لأن يحقق له رغبته، وبريح كافية للتحرك قاد قائد عام البحر (دريك) السفينة آرك رالى Ark Raleigh مباشرة الى قلب المواقع الاسبانية، وكانت السفينة آرك هذه قد سبقت السفن الموافقة لها، ووجدت نفسها وحيدة وسط السفن الشراعية الضخمة. وفى تلك اللحظة سكنت الريح. وكانت القوات الاسبانية على ظهور السفن متخذة مواقعها. وكانت الاسطح العليا للسفن مكتظة بحملة البنادق. وفي تلك الأثناء أعدت جميع الكلابات الحديدية كى تلقى بقوة على حبال أشرعة الصوارى الخاصة بآرك.

ومن المتصور فإن الأدميرال كان هدفهم. ولكن كانت تجربة كل يوم تعلمهم درسا جديدا، فقد القى من علي جنبات السفينة أرك Ark ١١ قاربا، سحبتها نفس هذه السفينة، وعندما بدأت هذه السفينة تتحرك ارتفع النسيم مرة ثانية، وملأت الريح

أشرعتها ، وانسابت عبر الماء، تاركة السفن الاسبانية، كما لو كانت رأسية، وفي هذه اللحظة كان الاسبان في دهشة وعجز. وفي تلك اللحظة أيضا جلبت الريح دريك والبقية، وبعد ذلك بدأوا مرة ثانية في الهجوم المرعب بالمدفعية التي قاست منها الأرمادا بدرجة كبيرة. وبدأ في هذا الصباح (للأسبان) أن الانجليز يستخدمون مدافع معدنية أثقل من التي كانت تستخدم في الأيام السابقة، مع أن هذه الأسلحة لم تتغير، انما الذي تغير هو خيالهم (أي الأسبان) الذي كان يرتعد خوفا. وكان لدى الدوق أسباب أخرى تدعوه للقلق، حيث كان المخزون من الأسلحة يتناقص نظرا للطلبات غير المتوقعة عليها. فكان هناك معركة واحدة حاسـمة ، وكان (الدوق) يتطلع اليها. فقد حارب ثلاث معارك، ولم تكن النهاية بأقرب مما كانت من قبل. وكان من الممكن (للدوق) بتصميم وعزم أن يشق طريقه الى مسالك مرسى سانت هلينا St. Helena Roads ، لأنه من الواضح أن الانجليز كانوا يخشون الاقتراب منه. ولكن عندما تخلى عنه سنت دومنيك، فقد صوابه وشجاعته (الدوق). وبفقدانه شجاعته فقد كل شئ. وفي سولنت، كان من الممكن أن يكون في أمن نسبيا. وكان من الممكن أيضا أن يحتل جزيرة ويت بسهولة، ولكن كان تفكيره الوحيد الآن أن يجد الأمن تحت مظلة بارما، وأن يتجه الى كاليه أو الى دنكرك. وافترض (الدوق) أن بارما كان عليه أن يقتحم من قبل بأسطول ثان مسلح – عند السماع بقدومه – الميدان، وأن يقوم بعمل سريع، وأرسل (الدوق) مركبا آخر شراعيا صغيرا يطلب المساعدة والذخيرة بالحاح، ويطلب أيضا مراكب سريعة لحماية السفن الشراعية الضخمة. ولكن في ذلك الوقت كان بارما نفسه يتطلع الى مساعدات الأرمادا نفسها حيث أنه لم يكن لديه أسطول تام بالمرة، وكل ما كان لديه هو اسطول صغير من المراكب النهرية التي تحتاج الى اصلاح يستغرق أسبوعا لأعدادها للعبور.

وقد أعد فيليب أسطولا ممتازا، وجيشا ممتازا بحيث ضم أحسن بحارة في العالم بأستثناء البحارة الانجليز. وقد فشل (فيليب) في أن يدرك أن أكبر الاستعدادات لا فائدة منها مع قائد أحمق. وكان الدوق التعس يستحق اللوم أقل ممايستحق سيده (فيليب). فقد فرضت عليه مهمة، كان يعرف أنه ليس كفأ لها وكان قلقة الوحيد أن يجد بارما، كي يلقى بهذه المهمة على أكتافه وينتهي منها. ..

وفى يوم الجمعة، ترك وحيدا ليشق طريقه عبر القناة تجاه الشاطئ الفرنسي، ولا يزال الانجليز يتعقبونه، ولكنه اعتمد على أنه فى مرسى كاليه، ولن يجرؤ الانجليز على الاشتباك معه. واعتقد عندئذ، بأنهم (الانجليز)، سوف يعودون الي الوطن، ولن يسببوا له مزيدا من المضايقات. وعندما القى بمرساه خارج كاليه، فى مساء يوم السبت رأى باشمئزاز قوة أندمونيادا جنت Endemoniada gent ، التى اطلق عليها (شياطين جهنميين)، قد حضرت معه فى نفس اللحظة حيث كانت خلفه، وعلى مسافة تبعد فرسخ. وقد كان أمله الوحيد فى الأمير بارما. وعلى أية حال كان بارما على مقربة منه الآن.

..

" الفصل التاسع "

هزيمة الأرمادا

كانت توجد صورة رسمها تتيان Titian فى معرض للفنون فى مدريد، وكانت هذه الصورة تمثل عبقرية أسبانيا، وهى آتية لتخليص عروس المسيح من حزنها. وتوفى تتيان، ولكن بقى طابع عصره. وفى دراسة لتلك الصورة العظيمة سترى الروح التى بدأت بها الأمة الأسبانية غزوها لانجلترا. وكانت هذه الصورة لشاطىء البحر، والكنيسة، التى تمثلها ابدروميدا Andromeda العارية، بشعرها الأشعث، وهى مربوطة بأحكام الى جذع شجرة عجوزة بدون فروع، ويرقد الصليب وكأس مقلوب عند أقدامها، وتلدغها من الخلف أفاعى الهرطقة من ذوات القرون. ويندفع غول البحر " وهو الاسطول الاسلامى" أمام النسيم، حيث كان هذا الاسطول متشوقا لفريسته. وفى المقدمة كان يوجد بريسيوس Perseus "عبقرية أسبانيا" وفى يده علم ومعه جماعات من المخلصين، الذين لم يلقون امامه الثياب، ولكنهم كانوا يأتون أمامه دروعا وخوذا، تلك التى تمثل ملابس الحرب من أجل سيدة الأمم لتدثر نفسها بالشجاعة، حتى يمكن لها أن تسحق أعدائها، وفى الأرمادا، قد وصل التعصب الصليبى الى ذروته، فقد كانت انجلترا هى الوتد الذى قيدت عليه العذراء أسيرة، وهى ابنة عمران The daughter of sion وأخيرا أتى برسيوس فى شخص دوق مدينا سيدونا Medina Sidona ومعه كل ماهو أفضل والمع من ريفى كيرفانتس Cervantes ليحطموا قيودها، ويعيدونها الى عرشها. وقد أبحروا الى القتال يحدوهم الأمل الدينى، ومعهم علمهم المبارك الذى يرفرف على رؤسهم. وكان عليهم أن يكونوا منفذين للارادة الالهية، لان ذلك هو أعلى واسمى طموح الهى، ولكن مع ذلك أغفل الرجال وهم فى حالة انفعال عاطفى، الاحتياطات التى لايمكن الاستغناء عنها حتى فى اسمى المهام.

وعندما بدأ دون كويكسوت Don Quixote، فى اصلاح أخطاء الانسانية، نسى أن تغيير المفروشات قد يكون ضروريا، كما كان من الواجب عليه أن يأخذ نقودا معه كى يدفع فواتير فندقه. وقد تصور فيليب الثانى "موكب نصر لا يقاوم" بإرساله الأرماده إلى إنجلترا.

أفراد الدوق). وقد طارده الانجليز كمجموعة من كلاب الصيد، والأسوأ من ذلك كله انهم طاردوه بقوة مضاعفة. وأما بخصوص اسطول التيمس، فقد عبرت منه بالليل، ثلاث سفن من سفن الملكة، وثلاثين سفينة من سفن مغامرى لندن، تحت قيادة الجنرال هنرى سيمور Lord Henry Seymour، والسير جون هوكنز Sir John Hawkins ، وهناك كانوا بينه وبين رأس جريسنز Cap Grisnez وأن أى تعزيزات ترسل للدوق فان الريح ستعرقلها.

وبعد أسبوع من المحاولة فان البحارة الأسبان، كان من الممكن أن يشعروا بالسعادة اذا استطاعوا الحصول على اجازة يوم الأحد. ولكن قد أدت المتعب القاسية التى واجهوها الى انتشار الفوضى فى كل شيء. وكان من الواجب أن يعتنى بالمرضى والجرحى، وكان من الواجب أيضا أن يهتم بالاشرعة الممزقة، ومن الواجب كذلك اصلاح الالواح الخشبية المحطمة، وتطهير أسطح السفن، وتنظيف المدافع والاسلحة، بحيث توضع على أهبة الاستعداد، ولم يسمح براحة لأنه كان هناك عمل كثير فكان كل واحد مشغولا، ولم تقدم التموينات المعتادة، وانقضى يوم الاحد فى صوم. وبعد الظهر ذهب خدم السفينة الى الشاطىء للحصول على اللحم الطازج والخضروات. وعادوا بقواربهم وهى مشحونة، وعندئذ، بدأ الأمل أقل كآبة. وفجأة، وبينما كان الدوق، ومجموعة من الضباط تراقب الاسطول الانجليزى من مؤخرة السفينة سان مارتن San Martin، أطلقت السفينة شراعية صغيرة وقوية – تحمل فى مؤخراتها مدفعا – قذيفة من خطوط هوادر Howard's Lines، فازعجت السفينة سان مارتن، وابحرت من حولها، وأطلقت قذيفة أو قذيفتين أثناء مرورها، وانصرفت دون أن تتعرض لأى أذى. ولم يتمالك الضباط الاسبان من أظهار اعجابهم من هذه الوقاحة التى تدل على اللامبالاة، عندئذ أطلق هيوجودى موناكادا Hugo de moncada، قذيفة خلف هذه السفينة الصغيرة، التى نفذت من شراعها الرئيسى، ولكنها (أى القذيفة) لم تسبب أى ضرر واختفت السفينة الصغيرة مرة ثانية فيما وراء السفن الانجليزية.

وهكذا، وصف ضابط أسبانى المشهد، ولم تتحدث القصة الانجليزية، بشىء عن السفينة الصغيرة، ولكن بلاشك فانها قدمت وعادت، كما رواها الاسبان . وكان الانجليز فى تلك الاثناء فى متاعب لم يكن يحلم الدوق بها. وأنتم ستتذكرون بأن الامدادات

الاخيرة التى سمحت الملكة بها الى الاسطول قد أرسلت فى منتصف يونيو. وكانت هذه الامدادات تكفى لشهر، ومنع المتعهدون من اعداد المزيد وتعلقت الملكة بآمالها الخاصة بخلافاتها، مع فيليب التى سوف تسويها اللجنة فى أوستند Ostend. وخشيت أنه اذا زود كل من دريك وهوارد تزويدا جيدا فانهما سيغامران بضربة جديدة متهورة ضد ساحل أسبانيا، التى من المحتمل أن تفسد بسببها المفاوضات. وقد مدت مؤن شهر الى ستة أسابيع. وعندما ظهرت الارمادا، كانت المؤن الباقية تكفى يومين فقط. ومع ذلك وبهذه المؤن شقوا (الانجليز) طريقهم الى القتال وبالجهود الذاتية، ثم جلبت بعض الأشياء على شاطىء دروست شير Dorsetshire وكان سيمورقد جلب أكثر قليلا عما جلب من قبل. ومع ذلك فانهم (أى الانجليز) كانوا فى حاجة الى مزيد من المؤن.. وقد حذر المتعهدون الحكومة من أنه لن يكون فى استطاعتهم تقديم أى شىء دون الحصول على اشعار (أى أذن بالتنفيذ) ومع ذلك فلم يمنح أى اشعار بعد، لهذا فقد كان المغامرون فى حالة أو فى ظروف أفضل، فكانور قد جهزوا من قبل الملاك. وأما بخصوص سفن الملكة فكان من الواجب فى ظرف يوم أو يومين أن تعود للوطن أو أن بحارتها يموتون جوعا. فقد عاشوا على تعينات مخفضة لمدة شهرين تقريبا. وكان الأسوأ من ذلك، أنهم لايزالون مسمومين من تناول البيرة الفاسدة. وغالبا ماكانت الملكة تغير رأيها ولكنها، مع ذلك أمرت الأسطول أن يجهز للابحار الآن، عندئذ، سحبت تعليماتها السابقة (الخاصة بعدم مجابهة حربية مع أسبانيا) ودفعت مرتبات الرجال. فقد حضر هؤلاء الرجال الذين سجلت أسمائهم بسرعة مع هوارد الى ظهور السفن كما كانوا، وكانت ملابسهم فى حالة رثة. وكان الإشتباك ورؤيتهم للأسبان وهم يهربون أفضل بكثير من اللحم والشراب والملبس بالنسبة لهم (أى الانجليز) وهذا ماجعلهم لايهتمون بأى شىء آخر. ولم يكن هناك خوف من التمرد (من جانب الانجليز)، ولكن كان هناك حد لتحمل المشاق.

وإذا تركت الارمادا بدون ازعاج، فمن المحتمل أن يبقى أمامهم صراع طويل وقد يفيق العدو (الاسبان) من صدمته، وقد يأتى بارما من دنكرك Dunkirk. وقد يؤدى الهجوم عليهم مباشرة فى المياه الفرنسية الى تعقيدات محفوفة بالمخاطر، وكان التأجيل يعنى المجاعة. وكان على الأسطول الأسبانى أن يبدأ من المرسى المختفى

وكان كله ثقة فى العناية الالهية. وقد نسى أن الممولين من المحتمل أن يكونوا نذلاء، فالماء الذى يوضع فى البراميل مدة أربعة شهور، وفى مناخ حار فإنه سيفسد، وأن الماء الفاسد سيسمم البحارة، رغم أن الملائكة كانت تصاحبهم. وقد نسى أن أتباع السيدة الشريرة قد يحاربون من أجلها قبل كل شيء، لذا كان من الواجب عليه ارسال امدادات كافية من البارود. ومع ذلك، فقد كان هناك أسوأ اهمال، تمثل فى تعيين قائد لايفهم عمله على رأس حملة بحرية عظيمة كهذه. فبعد أسبوع من المعارك الطاحنة التى سببت النكبات، وجد دوق ميدينا سيدونا نفسه فى نهايتها فى مرسى مكشوف، وفى تلك الاثناء كان يتبغى عليه أن يلقى بتسع أعشار تموينه من على ظهور السفن لانه كان طعاما غير صالح، كما أن ذخيرته استهلكت نتيجة لمتطلبات غير متوقعة. وكان جنوده وبحارة أسطوله منهكين، وفى روح معنوية منخفضة، ظل ضباطه بدون نوم طوال أسبوع، وقد رسى العدو – الذى طارده أى طارد دوق ميدينا سيدونا من بليموث الى كاليه Calais – على مسافة نصف فرسخ منه، ومع ذلك، وبعد كل مخاطراته المنكوبة هذه، أحضر اسطوله ان لم يكن فى شمال فورلاند Foreland، فانه كان على مسافة أميال قليلة منها، دون أن يصاب مظهره الخارجى بأى ضرر مادى. وقد أسرت سفينتان شراعيتان ضخمتان، وضلت السفينة الثالثة وهى السفينة سانتوا The Santoaua. وقد تخلفت عنه سفنه الشراعية الكبيرة ذات المجاديف، لأنها كانت ضعيفة ولاتستطيع مجابهة مياه العال. ولكن على قدر مارأت الأعين الانجليزية، فان القوات الحربية الكبيرة كانت قد وصلت الى الجهة المنشودة دون أى ضرر جوهرى. وقد قتل مئات من الرجال ومئات أكثر من الجرحى، لذلك اهتزت الروح المعنوية لدى الباقين، ولم يكن فى الامكان، وعلى وجه الدقة تقدير الخسائر فى الارواح فى الاسطول الانجليزى وتركت للتخمين. واستطاع – فقط – الادميرال الانجليزى أن يرى أن الدوق كان الآن على اتصال ببارما Parma. وعرفوا (أى الانجليز) أن بارما لم يكن لديه جيش فى دنكرك، فهو الذى كان عليه أن يعبر الى انجلترا. وكان يجمع الرجال، ومراكب نقل البضائع، وسفن نقل الجند، طوال فصلى الشتاء والربيع. ولم يكن من المتوقع أن تكون استعدادات بارما متدينة، ومع ذلك فلم يكن الاعتماد عليه كبيرا. وكان مرسى كاليه غير آمن، ولكن فى هذا الفصل من السنة، كان من المعتاد أن يستقر الطقس، وبخاصة بعد

صيف ممطر. ومن المحتمل أن يكون الهجوم على الاسبانيين فى ميناء فرنسى خطيرا، لأسباب كثيرة. ولم يكن من المؤكد بعد يوم من الحصار معرفة أى دوق سواء، كان دوق أف جيزThe duke of Guise أو هنرى أف فالوا Henry Valois سيد لفرنسا. وأن أى خرق لقوانين الحياد قد يجر بسهولة فى هذه اللحظة، الجيز Guise، وفرنسا France الى الميدان الى جانب الاسبانيين. وأنه بدون شك، ومع توقعات كهذه، فان الدوق ومستشاريه قد اختاروا كاليه كنقطة يتوقفون عندها. وكان ذلك فى يوم السبت السابع من شهر أغسطس. وتوجه حاكم المدينة فى المساء الى السفينة سان مارتن San Martin، وعبر بدهشة لرؤية الاسطول الاسبانى فى موقعه المكشوف، ومع ذلك، فانه كان مستعدا لتقديم المساعدات الوفيرة، وكان على استعداد أيضا أن يقدم للدوق كل شىء يطلبه من كافة التسهيلات من أجل الاتصال بدنكرك وبارما. ولكن شكره الدوق، وقال أنه من المفروض أن يكون بارما قد وصل بقواته ومستعدا للمرور، وأن مكوثه فى المرسى سيكون قصيرا. وفى وقت متأخر من صباح يوم الأثنين توقع (الدوق) أن تبدأ محاولة العبور، وطلب الدوق من الحاكم الأذن بالرحيل، واستراح الدوق بعد ذلك من قلقه، بحيث ترك ليقضى ليلة هادئة. وفى صباح يوم السبت انزعج بسبب رسالة وصلته من بارما تخبره بأن جيش بارما لن يكون مستعدا قبل أسبوعين. ولم تكن مراكب النقل مستعدة أيضا للابحار. وكانت هذه القوات فى المعسكر. وكانت الاسلحة Arms والذخائر Stores على الرصيف فى دنكرك. واما بخصوص القوارب السريعة، والذخيرة التى كان الدوق قد طلبها، فلم يكن لدى بارما مايستطيع الاستغناء عنه، فانه هو نفسه، كان يتطلع بأن يزود بالمؤن والذخيرة من الارمادا وتعهد بارما ببذل قصارى جهده، ولكن كان على الدوق، أثناء ذلك أن يهتم بأمن الاسطول.

ان مجىء هذه الاخبار السيئة لرجل مضطرب فى مركز قائد جعله يتشوق لأن يتخلص من مسئولياته. واذا كان من سؤ الطالع أن تهب عليه الرياح الشمالية الغربية، فضلا عن وجود المياه الضحلة، والشواطىء الرملية القريبة من مرساه فانه سيكون فى حالة سيئة، كما أن الامور من خلفه لم تكن تنبعث على الراحة. وهناك كمن العدو فى مرمى النيران، رغم أنهم (أى الانجليز) كانوا بالكاد أكثر من نصف عدد أفراده (أى أفراد الدوق). وقد طارده الانجليز كمجموعة من كلاب الصيد، والأسوأ من ذلك كله انهم

بطريقة ما، وهذا مايجب أن يتم فورا.

وبعد ذلك، وفى نفس يوم الاحد بعد الظهر، عقد مجلس حرب جديد بالذكر فى الكابينة الرئيسية للسفينة آرك Ark، فالتقى كل من هوادر Howard، ودريكDrak، وسيمورSeymour، وهوكنز Hawkins، ومارتن فروبشرMartin Frobsher، وأثنين أو ثلاثة آخرين ليتشاوروا وهم على علم بأن حريات انجلترا تقع على عاتقهم فى هذه اللحظة. لذا، اتخذوا قرارهم فى الحال وبحزم، ولم يوجد هناك وقت للحديث. وبعد سدول الليل سيرتفع المد على طول الشاطىء وحتى المرسى الأسبانى. وسيحاول الانجليز عمل ما يمكن عمله مع الحراقات، وأن رحلة السفن الصغيرة التى اعتبرت مظهرا من مظاهر الشجاعة كانت من المحتمل تقوم بمعاينة موقع الارمادا على وجه الدقة. وفى نفس الوقت غطى الانجليز (دهن) أجسام وأشرعة وصوارى ثمان سفن عديمة النفع بالقطران* prich، فضلا عن ذلك فان الانجليز صبوا القطران على أسطح هذه السفن وعلى جوانبها، وأصدرت الأوامر الى مجموعات من (البحارة الانجليز) بتوجيه هذه السفن الى أهدافها المنشودة واشعال النيران فيها وتركها.

ومضت الساعات، وانتشرت الظلمة بعد الفسق، ولم يكن الليل مقمرا وفى وقت متأخر من الليل،تقدم الدوق على ظهر سفينته، وكان لديه احساس بالخطر، ولاحظ الأضواء تتحرك الى أعلى والى أسفل على الخطوط الانجليزية، وتصور أن السفينة أندمونيا داجنت Endemoniadagent – الشياطين الجهنميين – قد تكون على وشك القيام بعمل شرير فأصدر أوامره بالمراقبة الشديدة. وكانت رياح غربية خفيفة تموج المياه. وعند منتصف الليل تبين للمراقبين (الاسبان)، على ظهور السفن الشراعية الضخمة بأن العديد من السفن غير الواضحة المعالم كانت تندفع نحرهم فيما يبدو. فقد كانت تجربتهم منذ عملية بليموث غريبة وغير متوقعة بحيث أن أى شىء غامض كان يقوم به الانجليز يكون مزعجا.

وازدادت الاشباح**اقترابا حتى أصبحوا تقريبا بينهم (أى بين الاسبان) بعدئذ،

---

* هذا القطران كان يحصل عليه من الفحم وليس من البترول الذى لم يكن قد تم اكتشافه بعد (المترجم).

** الاشباح هى السفن الغامضة التى كانت تقترب من الاسبان فى عرض البحر (المترجم)

أصبحوا لهيبا من خط المياه وحتى أسطح هذه السفن، وشوهد الاسطولان بواسطة الضوء المتوهج من الحريق الهائل، كما شوهدت المرسى وحوائط ونوافذ أبنية كاليه، تتلألأ أحمرارا على قدر مرمى البصر، كمالو كان المحيط نفسه يشتعل. وكان من بين الاخطار التى من المتوقع أن يواجهها الاسبان القذائف النارية الانجليزية التى كان يخشاها هؤلاء الأسبان. وعلى وجه الخصوص كانت الحراقات - حيلة ملائمة للمهرطقين - قد أحدثت دماراً بين القوات الاسبانية، عندما ضرب الجسر فى انتويرب Antwerp. وتخيل الاسبان أن آلات جهنمية كانت تقترب من الارمادا. وكان من الممكن لأى قائد قدير أن يرسل عددا قليلا من اللنشات للامساك بالسفن المحترقة (الانجليزية) التى كانت بطبيعة الحال مجهولة، وسحبها بعيدا حتى لاتسبب أى ضرر. ولم يكن البحارة الاسبان جبناء، ولم يحجموا عن الواجب، لأنه قد يكون ذلك خطرا عليهم، ولكن مع ذلك فقد كل من الدوق وديجوفلوريز Diego Florez توازنهما، وبطاقة إشارة واحدة من السفينة سان مارتن San Martin، أمر الدوق كل الاسطول (الاسبانى) أن يرفع مراسيه ويتخذ مواقعه فى البحر. ومن المعروف أن الأوامر التى تعطى فى ذعر، تكون مضاعفة فى عدم حكمتها لأنها تنشر الرعب فى أماكن اصدارها. وكان الخطر من الحراقات أساسا فى التأثير على خيالهم، والدليل على ذلك أن هذه السفن عند مرورها بهم (الاسبان) لم تحدث أى ضرر حقيقى. ومع ذلك، يشهد للاسبان على مهارتهم وشجاعاتهم، وعلى قدرتهم على رفع أشرعتهم، ومغادرة المكان دون أن يصطدم كل منهم بالآخر. وعند منتصف الليل وبانذار فجائى رفعوا حبال سفنهم لتوقعهم العودة الى أماكن رسوهم هذه فى ضوء النهار. وقد قاموا (الاسبان) بمناورة صعبة بنجاح، وكان الدوق مسرور من نفسه. وقد تم احتراق الحراقات دون أذى. وقد تحيز الادوق من اختراع السفينة Endemoniadagent حتى أنها توقفت على بعد فرسخ خارج الميناء، وتصور(الدوق) أن كل الارمادا قد قامت بعمل نفس الشىء، ولسؤ حظه أنه وجدها مقسمة قسمين عند الفجر. فالسفينة سان مارتن ومعها أحسن ٤٠ سفينة شراعية ضخمة مجهزة تجهيزا جيدا كانت قد توقفت معا عند مراسيها. وكانت البقية من هذه السفن تمثل ثلثى الجميع، فلم يكن لها مراسى ثانية جاهزة، ولما لم يكن لديها

خبرة بالمد فى القناة وبتياراتها فقد ظلت قابعة فى مكانها. وفى تلك الأثناء، كانت الرياح الغربية تهب ونتيجة لذلك انزلقت هذه السفن فى اتجاه دون أن تعرف أين تذهب، وأصبحت على بعد فرسخين من جرافيلين Gravelines، وقريبة من الشاطىء بطريقة خطرة. وكان الدوق يجهل أن يدرك الخطر الكامل لموقعه. وأبلغهم (أى أبلغ الدوق السفن الثلاثين) أن يعودوا ويلتحقون به، وكانت عودتهم مستحيلة، وخاصة بعد أن توقفت الريح والجزر، فاقترح (الدوق) أن يتبعهم (هو). وأخبره المرشدون أنه اذا فعل ذلك فمن الممكن أن يفقد كل الأسطول على الشواطىء. وبالقرب من الأرض لم يكن منظر الاشياء مشجعا كثيرا. وفى الليلة السابقة وقعت حادثة واحدة فقط. وكان دون هيوجودى مونكادا Don Hugo de Moncada، على متن السفينة الحربية الشراعية الضخمة ذات المجاديف، كابيتانا Capitana، وبرفقته ثمانمائة من الرجال، وقد أعاق دفتها حبل وهى فى طريقها الى الابحار، وأصبح من المستحيل السيطرة عليها. وقد عصى عبيد هذه السفينة الشراعية الضخمة - ذات المجاديف - الأوامر، فضلا عن أن دون هيوجو كان غير كفء كقائد عام Cammander in chief ، وقد جنحت السفينة كابيتانا هذه على الرمال، وعندما انحسر المد سقطت على جنبها، ورأى هوارد حالتها، وتبعها بالسفينة أراك وبرفقته أربعة أو خمسة آخرين، من سفن الملكة وهاجمها بقوة بسفنه، غير عابىء بقوانين الحياد. وكانت نظرية هوادر، كما قال أن يقتلع رئيس الجناح الاسبانى واحدة بواحدة. وهذه كانت ريشة جديرة بالقلع. وكانت هذه السفينة (الاسبانية) أعظم سفينة من نوعها فى البحر، وكان دون هيوجو هذا واحدا من أعظم النبلاء الأسبان.

وارتكب هوارد خطأ مضاعفا، عندما استولى على السفينة أخيرا، أى بعد ثلاث ساعات من المعركة، وقتل دون هيوجو بواسطة طلقة، ونهبت السفينة الاسبانية هذه حيث استولى رجال هوادر على محتوياتها، وكان هدفهم من وراء ذلك سحبها عند ارتفاع المد. وعندئذ أمرته(هوارد) السلطات الفرنسية أن يبتعد، وهددت باطلاق النيران عليه، وبعد ضياع صبيحة يوم أجبر فيه النهاية أن يتركها، فى المكان الذى قبعت فيه. وكان الأسوأ من ذلك كله أنه (هوارد) قد أضاع ثلاث ساعات ثمينة من الزمن، واضاع معها جلال اليوم العظيم. كان هذا رأى أمير بارما.

وكان دريك وهكنز قد عرفا ماهو أفضل من ضياع الوقت فى اقتلاع الريش واحدة بواحدة. وكانت الحراقات أكثر تأثيرا مما كانا يأملان، ودمر العدو، وجرد الدوق من نصف قوته، ومع ذلك فقد خلصه اللورد من أيديهما. وانطلق الدوق بعد هذا التوقف، وهو مازال يعطى أشارته بطريقة عنيفة، وكان غير متأكد الى أى اتجاه يسير، وانتهت حيرته عندما رأى دريك يتجه إليه بكل الاسطول الانجليزى بأستثناء تلك السفن التى كانت تتلكأ حول السفينة " كابيتانا". والآن يتفوق الانجليز فى العدد، كما تتفوق مدافعهم التى عرفها من قبل (الدوق) فلم تعط سرعتها الكبيرة (أى الدوق) الفرصة له فى أمل الهروب من المعركة. وفى هذا الوقت كان قد بقى مع الدوق ٤٠ سفينة، يدافع بها عن علم الصليبية، وعن شرف قشتالة، ولكن مع ذلك كانت الاربعون سفينة هذه من أكبر وأقوى السفن تسليحا لديه (أى الدوق)، وكان على ظهور هذه السفن أو كويندوا Oquendo ودى ليفا Deleyva، وريكالد Recalde وبريتاندونا Bretandona وهم جميعا من أحسن الضباط فى الاسطول الاسبانى بعد فقد دون بدرو Don Pedro.

وكانت هذه الفرصة الحالية، هى الفرصة الوحيدة لانجلترا، التى لن تعود أبدا. وكان ميدان العمليات يقع بين كاليه ودنكرك. وهو على بعد أميال قليلة من الشاطىء، وعلى مرمى البصر من معسكر بازما، الذى يقرر مستقبل أوربا. ولم يكن هناك مزيد من المناورات بسبب مؤشرات الطقس. كما لم يكن هناك مزيد من الحروب التى تقع على مرمى طويل. وانقض دريك على فريسته، كما ينقض الصقر على فريسته، فقد هبطت عليه فرصة قد لاتعود أبدا، ولم يكن هدفه أيضا حمل هدفه الفخر بحمل الغنائم الى الموانىء الانجليزية، ولم يكن هدفه أيضا حمل الشرف الذى سيضفى عليه اذا استطاع حمل العلم المقدس نفسه ورفعه فى وستمنستر أبى Westminister Abbey، انما كانت فرصته (أى دريك) الوحيدة أن يتعامل مع الارمادا، حتى لاترى مرة ثانية فى المياه الانجليزية، كما كانت فرصته أيضا أن يصوب ضربة الى فيليب، بحيث تهتز معها الامبراطورية الاسبانية. وكانت السفن الانجليزية تتفوق على السفن الشراعية الاسبانية بمثل ماتتفوق به السفن البخارية الآن على السفن الشراعية. فكان لها ضعف السرعة، وكان فى استطاعتها الوقوف فى أقرب نقطتين من مهب الريح وكان فى إستطاعتها أيضا أن تدور حول السفن الاسبانية، على مسافة تقترب من طول حبل

السفينة، وكان فى مقدور السفن الانجليزية أيضا أن ترغم السفن الاسبانية على التجمع الواحدة مع الأخرى، دون أن تترك لها الفرصة فى الامساك بسفينة انجليزية، ثم قذفها بوابل منهمر من القذائف. ولما كان هناك نقص فى الذخيرة (الانجليزية)، فلم يكن فى الامكان ضياع أى شىء منها، وفى هذا الصباح مضت الساعات، وكانت المعركة لاتزال يشتد سعيرها، اذ كان فى امكاننا أن نطلق عليها معركة، حيث كانت الضربات تكال من جانب وتقع الخسائر على الجانب الآخر. ولم يبين الاسبان أنفسهم من قبل - بأنهم كانوا جديرين بحمل اسمهم العظيم، وبإنهم قادرين على القتال فى البر والبحر- مثلما بينوه فى هذا اليوم. ولكن ومع ذلك، ومنذ البداية فلم يستطيعوا فعل أى شىء. وفيما بعد قيل فى أسبانيا أن الدوق أظهر الريشة البيضاء يبدو أنها العلم الأبيض الخاص (بالاستسلام) وأنه هاجم ماسك الدفة ليبعده عن الأذى، وانه حبس نفسه فى كابينته، وأخفى نفسه في بالات الصوف ...الى آخره. وعلاوة على ذلك فانه (أى الدوق) كان له أخطاء كثيرة، ولكن لم يكن الجبن واحدا منها. فهو الذى - كان حتى دخوله القتال الانجليزى - لم يقع بحرب فى الحرب أو فى البر، ولكنه وجد نفسه، وكما قال فى وسط أكثر الحروب ضراوة سجلها التاريخ. فأما مايتعلق ببعده عن الأذى، فان مستوى أعلى صاريه قد جذب أشد النيران عليه. وكانت ألواح خشب السفينة سان مارتن من البلوط. وكان يبلغ سمك هذه الالواح قدم، ومع ذلك، فكانت الطلقة تنفذ من خلالها، بقوة تكفى لتحطيم صخرة. وقد تحول سطحها الى مذبحة، وقتل نصف طاقمها أو جرح. ولم يكن من الممكن سماع أو رؤية المزيد عن سان مارتن، أو عن قائدها، لولا أن كل من أوكيندو Oquendo، ودى ليفا Deleyva، قد أتى لينقذوه وسفينته ويمكنوه من الزحف بعيدا تحت غطائهما، ولم ير هو نفسه (الدوق) المزيد من العمليات الحربية، فالدخان، وكما قال كان كثيفا بحيث لم يستطيع (الدوق) أن يميز أى شىء حتى من أعلى صاريه. ولكن كل مايدور حول ذلك هو تكرار لنفس المشهد. وكانت طلقات الاسبان تتطاير فى الهواء، كما كان الحال من قبل، أى كانت تتطاير من أعلى السفن الانجليزية المنخفضة، وكان الاسبان أنفسهم أهدافا لاحول لهم ولاقوة للمدافع الانجليزية. وأنه من الملاحظ والجدير بالفخر لهم (الاسبان) انه لم تضرب واحة من سفنهم فى أعلامها. وكانت سفينة من سفنهم على وشك الغرق، بعد مبارزة طويلة مع

رجل اجليزى واعجب أحد الضباط الانجليز بالشجاعة التى أبداها الاسبان، فاندفع على عمود فى مقدمة سفينته، وأخبرهم أنهم فعلوا ما يجب أن يفعله الرجال، وحثهم على الاستسلام وانقاذ حياتهم. وكان ردهم(أى الاسبان) أنهم لعنوا الانجليز كجبناء، وضعاف لأنهم رفضوا الاقتراب منهم، وقتل الضابط(الانجليزى). وقد أدى سقوطه الى اطلاق المدافع من جانب واحد (أى من جانب الانجليز) عليهم (أى على الاسبان) وانتهى الأمر وغرق الاسبان، فقد فضل جنود الصليب (أى الاسبان) الموت على الاستسلام للمهرطقين.

وعلت صراخات الموت، وشوهد الدم فى بعض السفن وهو يتدفق من بالوعاتها ومع ذلك لم يوجد هناك استسلام، وقد أظهرت جميع الرتب بطولات متساوية، وكان الكهنة يصعدون وينزلون فى وسط المجزرة، وهم ممسكون بالصليب أمام أعين الذين يموتون. وعند منتصف اليوم – جاء هوادر ليطالب بحصة ثانية فى النصر الذى لم يعد مشكوكا فيه. وبعد الظهر خفت حدة النيران الاسبانية، فقد نفد بارودهم (ذخيرتهم)، ولم يكن فى استطاعتهم العودة الى الرشق بالمدافع، لأن مدافع الانجليز كانت لاتزال تسحقهم، وبعد ذلك اعترفوا بصراحة، بأنه اذا استمر الهجوم لأكثر من ساعتين، فانه لابد وأن يذهبوا الى الشاطىء. وكانت مخازن الذخيرة الانجليزية فارغة أيضا، فكانت آخر خرطوشة قد أطلقت، وانتهت المعركة فقط بسبب عدم القدرة على مواصلتها. وقد حارب كلا الجانبين بتصميم عجيب، وكان يوجد استياء متراكم على الجانب الانجليزى لـ ٣٠ سنة مضت من التهديد لوطنهم ولعقيدتهم من عدو حقيقى. وفى النهاية، أمسك به وقيد. وأما على الجانب الاسبانى فكان هناك احساس بأنه اذا كانت قضيتهم لم تكن قد جلبت أو حققت لهم المساعدة التى بحثوا عنها من عليين، فان شرف وولاء قشتالة لاينبغى له أن يقاسى فى أيديهم.

وفى النهاية، انتهى كل شىء. وانسحب الانجليز بأسف لأن سيدتهم البخيلة قد حدت من امكانات حربهم التى خوضت من أجلها. وبذلك ألزمتهم أن يتركوا عماهم، بعد أن انجزوا نصفه. وعندما توقف هدير المدافع، ارتفعت الريح، وتدحرج الدخان، وعند غروب الشمس استطاعوا أن يروا نتائج الحرب.

وكانت سفينة شراعية ضخمة من سفن أسطول ريكالد تغرق بكل من عليها من

رجال، وانحرف كل من السفينة سان فيليب San Philip والسفينة سان ماتيو San Mateu الى الساحل الهولندى دون صوارى، حيث تحطمتها هناك بعد ذلك. وأما السفن التى تركت بأشرعتها، فكانت تتقدم ببطء خلف زميلاتها التى لم تشتبك فى المعركة، وكانت صواريها محطمة حيث انها استطاعت بالكاد حمل أشرعتها. وأمكن حصر الضحايا بالتخمين، وبدأ أن العدو كان مخيفا، وكانت الرياح الشمالية الغربية تهب وكانت تضغط على السفن المعطوبة وتدفعها نحو المياه الضحلة، التى يبدو منها انه من المستحيل على السفن فى حالتها المشلولة هذه أن تكون قادرة على العمل. وتركها دريك مدة الليل وهى على هذه الحالة لا ليستريح، ولكن ليجمع من أى مكان يستطيعه مزيدا من الطعام والبارود. فقد شلت الأفعى، ولكنها لم تقتل، المقصود بذلك الارمادا أى الأسطول الأسبانى فأكثر من نصف الأسطول الكبير (الأسبانى) كان بعيدا، أى بعيدا عن مرمى النيران، ولعله يكون فى مقدور الاسبانيين أن يحاربوا معركة ثانية اذا هم استردوا شجاعتهم. واذا توقفت الريح، فانه يكون فى الامكان تتبعهم ومطاردتهم (من جانب الانجليز) نحو الشاطىء أو نحو البحر الشمالى، أو الى أى مكان، حتى لايترك لهم فرصة الانضمام الى بارما مرة ثانية. وأن يستغل (الانجليز) الوقت قبل أن يفيقوا (أى الاسبان) من ضربات (الاسطول الانجليزى). وكان ذلك ضروريا فى تلك اللحظة. وكان دريك واتباعه التعساء جوعانين، وفى ملابس رثة، ولكن لاهو ولاهم لديهم وقت للتفكير فى أنفسهم، فكان هناك فكرة واحدة أجمع عليها الجميع، هو أن يعاودوا مطاردة العدو الهارب، وكان هوادر على نفس تصميم دريك، وقد انجز بسرعة كل ماهو ممكن عمله. وكان على سيمور وأسطول التيمس أن يمكثا فى المضايق ليراقبا بارما. فمن كل مصدر ممكن جمع الطعام والبارود للبعثة – وباختصار وبكل الوسائل الممكنة – كما قال دريك " صممنا أن نتجاسر وأن نواصل كما لو كنا لا نحتاج الى شىء" وقبل الفجر، عاود الأدميرال هو المطاردة.

ولم تكن الحاجة ماسة، الى الجسارة، فقد أنجز مايستطيع الانسان عمله، وأما الباقى فقد ترك للعوامل الطبيعية، ولم يستطيع البحار الاسباني أبدا، أن يواجه مدافع الانجليز مرة أخرى. وهم تحت قيادة ميدينا سيدونا، فكان على رأسهم غبى (أى أنهم كانوا تحت قيادة قائد غبى) وقد هجرتهم القوى الخفية التى لقنوا بأن يثقوا فيها،

وتبددت ثقتهم وتحطمت روحهم المعنوية، وانبثق الصباح بكآبة على الدوق، ورفاقه فى اليوم التالى للمعركة. وقد تجمعت الارمادا فى الليل. وفى تلك الأثناء، قويت الرياح الشمالية الغربية، وتحولت الى عاصفة هوجاء، وكانت السفن (الاسبانية) تجاهد بشدة وانحرفت انحرافا قاتلا نحو المياه الضحلة.

وكان ذلك فى يوم عيد القديس لورانس St.Lawrence، الذى كان نصيرا لفيليب، والذى استعان فيليب به فى الحصول على كنوز سكوريال The Escurial، ولكن القديس لورانس هذا لم يكن مهتما (بمثل هذه الأمور) مثل القديس دومنيك. وكان عمق الماء تحت السفينة سان مارتن ست قامات.وأما السفن الأخرى التى كانت أكثر قربا من الارض، فكان العمق يشير الى خمسة قامات، ورأوا أمامهم مباشرة الرغوة البنية للأمواج التى كانت تتموج فوق الرمال، وتحت شعاع الجو. وكانت السفن الانجليزية – التى تطاردهم كشبح الموت وكالكلاب المسعورة – على مسافة ميل من بليموث. ولقد كان البحارة والجنود الاسبان بدون طعام منذ المساء، عندما رسوا فى كاليه. وفى طوال يوم الأحد كانوا فى عمل، ولم يسمح لهم بالراحة لتناول الطعام وفى مساء نفس اليوم فزعوا من نومهم بواسطة الحراقات. وفى يوم الاثنين كانوا يحاربون، وفى مساء نفس اليوم القوا بموتاهم الى البحر. والآن بدأ أنهم فى طريقهم مباشرة الى التدمير المحتوم. وعندما خمدت الريح، كان لايزال يوجد أمامهم فرصة من الوقت ليرتدوا ملابسهم ويهربوا الى الشواطىء، ولكن عندئذ كان عليهم مواجهة العدو الذى بدا محجما عن مهاجمتهم. وبينما كانوا هم فى طريقهم الحالى، فان الرياح والأمواج سوف تقضى عليهم (أى على الاسبان) دون تدخل الرجال. وقد حضر كل من ريكالد، ودى ليفا وأوكونيدو، وضباط آخرين الى السفينة سان مارتن للمشاورة. وأتى كويندو أخيرا. وقال الدوق الى كويندو: وماذا سنفعل ؟ فأجابه كويندو بجسارة تطلب من سعادتكم أن تأمروا بتعمير المدافع مرة ثانية. ولكن كان هذا مستحيلا. وقال دى ليفا نفسه أن الرجال سوف لايحاربون الانجليز مرة ثانية. ونصح فلوريز بالاستسلام، ولكن تردد الدوق، ويقال أن قاربا كان قد أنزل بالفعل ليتجه الى هوادر بهدف عقد اتفاق ولكن أقسم كويندو أنه إذا غادر القارب السفينة سان مارتن لهذه المهمة فسوف يلقى فلوريز Florez فى البحر. وكان من الممكن أن تكون نصيحة كويندو أكثر أمنا لو

استطاع الدوق الأخذ بها. ولايزال يوجد سبعون سفينة من سفن الارمادا غير مصابة بأضرار كبيرة. وكان الانجليز يتاهبون كما قال دريك مع أنهم أنفسهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم باشتباك آخر خطير. وقد جعل المزاج الكلى للأسطول (الاسبانى) الطريقة الشجاعة مستحيلة. ولكن كان هناك كويندو واحد. وتبدد النظام، وكان الجنود فى يأس، واستولوا على القيادة من البحارة. وفقد الضباط والرجال الأمل على حد سواء... ولم يكن هناك أية امكانية انسانية للخلاص فركعوا (الاسبان) على أسطح السفن وتضرعوا الي الله لينزل عليهم الرحمة وقد مر أسبوعان منذ ركوعهم على نفس تلك الاسطح عند رؤيتهم للشاطىء الانجليزى لأول مرة يشكرون الله، لأنه أرسلهم لمهمة جليلة مثل هذه المهمة فأسبوعان، وأى أسبوعان فقد كان الاسبان محطمين، وقد مزقتهم طلقات المدافع فمات منهم أوكان على وشك الموت عشرة آلاف - هذه الخسارة التى قدرت فى المعركة - والآن يستطيع الاحياء أن يتوسلوا الى الله كى ينقذهم من الموت البشع، بواسطة العوامل الجوية. فغالبا، تتغير الأعاصير والرياح فجأة وتتجه الى الجنوب وتتغير من الشمال الغربى الى الغرب، ومن الغرب الى الجنوب وفى تلك اللحظة، وكما لوكان ردا على توسلاتهم، فان تغيرا من هذه التغيرات الفجائية للريح أنقذتهم من خطر داهم وارتدت العاصفة الى الجنوب والجنوب الغربى S.S.W، وتوقفت عن دفعهم الى المياه الضحلة. واستطاعوا فرد أشرعة سفنهم، والانطلاق بها الى عرض البحر، واتخذوا طريقهم الى وسط بحر الشمال، وهكذا، ذهبوا الى الشمال وأكتفى درسك أن يتركهم دون أن يتعدى عليهم. واذا مااتجهوا الى أقصى الشمال، فانهم يستطيعون الذهاب الى حيث يشاءون، وفى ذلك الوقت لم يرغب هوادر ولادريك فى حرب غير ضرورية، وبخاصة اذا كان لديهم نقص فى ذخيرتهم أما اذا عادت الارمادا، فمن الواجب عليهما أن يطبقا عليها. واذا استمرت فى طريقها الحالى فعليهما أن يتبعوها حتى يتأكدا أنها لن تتصل فى هذا الصيف مع أمير بارما. وفكر دريك أنه من الممكن أن يشقا طريقهما الى البلطيق أو الى احدى موانىء النرويج، وقد لايستقبلان بالحفاوة أو بكرم ضيافة سواء أكان ذلك من جانب السويدين Swedes، أم من جانب الدنمركيين Danes، ولكن كان عليهما أن يحاولا. وهناك خطر محتمل، كان عليهما أن يعدا العدة له. فاذا اتجها الى فورث Forth، فانه فى هذه الحالة لايزال من الممكن للاسبان أن

ينتقموا لهزيمتهم، وأن يهزوا عرش اليزابيث. وكان من الخطط التى أعدت لغزو انجلترا هو الانزال فى اسكتلندا، وكانت هذه أفضل الخطط. وقد فضل الجيز Guise دائما اسكتلندا، عندما قصد أن يكون هو القائد. وقد كان سانتاكروز على تفاهم وثيق مع الجيز فى هذا الموضوع، ولابد وأن كثيرا من الضباط فى الارمادا، كانوا على علم بآراء سانتاكروز. وكان لايزال النبلاء الاسكتلنديون الكاثوليك فى غضب عارم، بسبب اعدام مارى ستيوارت. ولوكانت الارمادا قد رست فى مرسى ليث Leith، وعلى متنها ٢٠ ألف رجل، ونصف مليون من الدوكات، وعلى رأسها سانتا كروز، فلربما أن تشتعل المنطقة الممتدة من أرض جون جروت John Grout، الى أرض بوردر Border، لهيبا فى تلك اللحظة.

ولكن لم يطرأ على الدوق ميدينا سيدونا مثل هذا الهدف، فمن المحتمل أنه لم يعرف أى شىء بالمرة عن اسكتلندا، أو عن أحزابها. وكان من بين أوجه النقص الكثيرة التى حاول أن يقنع بها فيليب على عدم ملائمته للقيادة، أنه قال بأن سانت كروز كان لديه معارف من بين النبلاء الانجليز والاسكتلنديين، بينما أنا دوق "ميدينا سيدونا "لاأعرف أحداً منهم.

وأن معلوماته القليلة لاتتعدى حدائق برتقاله أو اصطياده لسمك التونة. وكانت ميزته الرئيسية أنه كان على دراية بعدم كفاءته للعمل. وقد نبذ العمل الذى ضللته فيه راهبة غير متزنة. وكان شغفه الوحيد هو أن يعود الى الوطن الذى وضع تحت مسئولياته الاسطول الكبير دون مزيد من الخسارة. وكان هناك المحيط الشاسع فيما وراء اسكتلندا والجزر الاسكتلندية، وفى المحيط الشاسع هذا لم يكن يوجد هناك شواطىء رملية، ولامدافع انجليزية، وهكذا، واصل الدوق الابحار بكل الاشرعة المفرودة يدفعه الريح، ولكن راقبه كل من دريك وهوادر حتى أنهما رأوه قد مر بفورث Forth، وعندئذ عرفا انه لم يكن هناك خوف وفى هذا الوقت، كان عليهما أن يهتما باحتياجات رفاقهما التعساء الذين تحملوا بصبر، وحاربوا بروعة فائقة. وفى الثالث عشر من شهر أغسطس رأيا الارمادا لآخر مرة. فاستدارا وشقا طريقهما الى تيمس.

ولكن ما زال للقصة بقية، لتروى المصير لمغامرة عظيمة من أجل انجلترا. فقد كانت هذه المغامرة الهدف الذى تعلقت به وبحرارة، آمال العالم الكاثوليكى لمدة طويلة،

ولقد كانت هذه الحملة حربا صليبية دينية، حيث كانوا يتفاخرون بها. وقد صاحب الاستعدادات لها احتفالات مهيبة وغريبة.

وفى أعين المخلصين كانت هذه الحرب تنفيذ لعدالة السماء على أميرة شريرة وشعب شرير. وكانت هذه الحملة فى أعين الملايين من الناس – الذين كان اقتناعهم أقل حسما – تمثل طلبا لحكم الله كى يحكم بين حركة الاصلاح الدينى وبين البابا. ومن المناسب القول كذلك، بأن هناك أسبابا أخرى بجانب عمل الانسان، لابد وأنهما اتحدا فى تدمير هذه الحملة.

وكان الاسبان بحارة ذى خبرة، فرحلة حول أوركنيز Orkneys، وحول ايرلندا، ثم الى أسبانيا، من المحتمل أن تكون شاقة، ولكن يبدو أنه فى هذا الفصل من السنة، لم يكن هناك مخاطر ولاصعوبات. وعلى أية حال، وعند الاستقصاء وجد أن حالة الاسطول (الاسبانى) كانت مفزعة للغاية، فالمؤن التى شحنت بها السفن فى لشبونة كانت لاتصلح كغذاء، وتقريبا ألقيت جميعها فى النهر، وأما المؤن الطازجة، التى تم الحصول عليها من كورونا Corunna، فقد استهلكت تماما. وبهذه النسبة الحالية وجد أنه لن يتبقى شىء فى ظرف ١٤ يوم وكان الأسوأ من ذلك ان براميل المياه التى أعيد ملؤها هناك (فى كورونا) قد عبثت باهمال، واخترقتها الطلقات أثناء الحرب، فأصبحت فارغة، كما لم يوضع فى الاعتبار الملابس أو أى وسائل أخرى للراحة بالنسبة للمناطق الباردة التى كانوا يعبرونها، فالقى بالبغال والخيول من على ظهور السفن الى البحر وقد أبلغت القوارب الاسكتلندية الصغيرة التي تبعت الاسطول المنسحب، من أنها ابحرت لعدة أميال بين جثث طافية.

وكان هناك نقص شديد فى المؤن، فكان كل رجل يحصل على نصف رطل من البسكويت يوميا، وكوب من الماء وآخر من النبيذ. وهكذا ترك الجرحى فى حالة من المرض والجوع تحت رعاية ضابط طبيب، الذى كان يتنقل من سفينة لأخرى، وقد خصصت الصلوات لحمايتهم من طقس شمال الأطلنطى. وقد لام الدوق الجميع عدا نفسه، وأعدم أحد القباطنة التعساء لاهماله فى الأوامر ، وكان من الممكن أن يشنق قبطان آخر لوكان لديه الجرأة، ولكن قد فقد سلطته، ومرت الحملة على الاوركنيز Orkneys، كتلة واحدة وبعد ذلك، قيل أنها تفرقت فى الضباب، ولكن كان على كل قائد

أن ينتبه لنفسه ولرجاله. ففى كل سفينة كان من الواجب أن يتم الحصول على الماء من أى مكان، والاسوف يموتون، فالسفينة سان مارتن، ومعها ستون سفينة مرافقة، اتجهت جميعها الى شمال خط عرض ٦٠°. وكان المرشد قد وعدهم بأنه سيأخذهم من تلك النقطة الى الساحل . ولاتزال الريح تهب الى الغرب، فكل يوم كانت تهب أشد من اليوم السابق. وعندما لفحت الرياح الصوارى المعطوبة تطايرت فى الهواء، وانفصلت حبال أشرعتها وسارياتها. وفى ظل أكبر صعوبة تمكنوا من قطع مسافة كافية. وتدحرجوا الى حد ما، حتى أصبحوا بعيدا عن مرأى الشاطىء، وهم يدفعون سفنهم بعوارضهم الخشبية فى البحار الشاسعة، وتوجهت سفينة أو سفينتين ممن تبقوا الى وسط الجزر الغربية وهناك، أصبحوا حطاما، واتخذ أطقمهما أو جزء منهما طريقهما عبر اسكتلندا الى الفلاندرز. وذهب الآخرون شمالا الى شتلاند Shitland، أو الى جزر الفارو Faro، وافرى مابين ٣٠، ٤٠ بأن يبقوا على السواحل الايرلندية. وكان يوجد رجال ايرلنديون فى الاسطول، الذين لابد وأنهم أخبروهم (أى أخبروا الاسبان) بأنهم سوف يجدون الماء هناك، الذى بسببه كانوا على وشك الهلاك، كما أنهم سيجدون مرافىء آمنة، وشعبا كاثوليكيا صديقا. فقدوجدوا أما موانىء لم يستطيعوا الوصول اليها، أو رمالا كسحتها مياه البحر أو صخورا. وهناك دمروا جميعا فى أماكن مختلفة بين دونيجال Donegal، والبلاسكت Blasket، وكان حوالى ثمانية آلاف من التعساء نصف الغرقى يناضلون للوصول الى الشاطىء أحياء، وكان الكثير منهم من النبلاء الاسبان يرتدون ملابس ثمينة وجاكيتات قطيفة، وسلاسل وخواتم ذهبية. وكانت مرتبات الجنود والبحارة قد صرفت لهم قبل بدء مهمتهم. فكان كل منهم يملك حقيبة من الدوكات، مربوطة فى وسطه عندما نزل الى البر عبر الأمواج. وقد أغرت هذه الغنائم الايرلنديين البربريين على الساحل، فضربوا عددا من الأسبانين غير معروف على رؤسهم بالبلط، أو سلبوا ملابس الآخرين وتركوهم يموتون من البرد. وقد حصر ضابط انجليزى ١١٠٠ من الجثث على شريط رملي طويل فى سليجو Sligo، وسمع بأنه كان يوجد هناك الكثير على مسافة أميال قليلة.

وأسرع رؤساء أولستر Ulster، والأورورك Orourk، والأودونيل O'donnell، فهؤلاء هم الأفضل تعليما – ليوقفوا عملية القتل الجماعى، كى يبعدوا ايرلندا عن خزى

قتل الأصدقاء الكاثوليك الذين لاحول لهم ولاقوة. وقد وجد الكثير من الاسبان الحماية فى القلاع الايرلندية، ولم يعرف بالضبط كم كانوا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بدأ، كما لو كان القدر المهلك قد طارد جميع من أبحروا على هذه الحملة المشئومة. فقد شق أولونزو دى ليفا Alonzo de Leyva، ومعه نصف مائة من النبلاء الاسبان الشباب من الرتب العالية - الذين كانوا تحت مسئوليته الخاصة - طريقهم فى سفينة شراعية كبيرة الى كيلبج Killbeg. وقد عجز أولونزو دى ليفا نفسه على الرسو، وأستقبله رئيس الاودونيل O'donnell، واهتم به وبرفاقه. وبعد البقاء فى قلعة رئيس الاودونيل مدة شهر استرد صحته (أولونزو دى ليفا). وفى تلك الأثناء بدأ الطقس فى التحسن، وأصلحت السفينة، وغامر أولينزو دى ليفا فى محاولة ليشق طريقه بها إلى أسكتلندا وقد مر بأسوأ الأخطار، حيث كانت اسكتلندا على مرمى بصره تقريبا، ولكن القدر له ضحاياه، فارتطمت سفينته بصخرة أمام دونلوس. وتحطمت الى قطع، وعندئذ، اكتسحت المياه دون الونزو دى ليفا، وشباب النبلاء الذين كانوا قد أبحروا معه على الشاطىء وهم موتى ليدفنوا فى قبر غير مميز فى انتريم.

وكان الاسبانيون الذين يستحقون الشفقة، هم أولئك الذين سقطوا فى أيدى الحاميات الانجليزية فى جولوى Jalway، وميو Mayo. فقد شقت السفن الشراعية الضخمة طريقها الى خليج جولوى، وكانت واحدة من هذه السفن (الاسبانية) قد وصلت الى جولوى نفسها، وكان البحارة (الاسبان). على وشك الموت بسبب المجاعة، فكانوا يستبدلون برميل من النبيذ بآخر من الماء. وكان سكان جولوى انسانيين. فحاولوا أن يطعموهم ويهتمون بهم، ولكن مع ذلك فقد ساءت حالات معظم هؤلاء، بحيث كان من الصعب افاقتهم، وماتوا من الاجهاد وكان من الممكن أن يسترد البعض صحته، ولكن اذا استردوا صحتهم فانهم سيكونون خطرا على الدولة (الانجليزية). وكان الانجليز فى غرب ايرلندا قلة قليلة فى وسط سكان غاضبين شبه مقهورين. فكان الرماد الذى تخلف عن ثروة دسموند Desmond، مازال ينبعث منه الدخان، وما زالت ذكرى دكتور ساندرز Sanders، ولجنته الذى كان يرأسها ممثل البابا ماثلة فى الأذهان أيضا، وكان من الممكن أن تكون المعلومات عن هزيمة الارمادا فى القتال غامضة بالنسبة للانجليز فى ايرلندا. وكل ماكان يمكن أن يعرفه الموظفون الانجليز بدقة لابد وأن ذلك كان عن بعثة

ضخمة أرسلت إلى إنجلترا بواسطة فيليب كى يستعيد سلطة البابا. وكان الاسبانيون الذين وجدهم الانجليز يرسون وسطهم على البر بالآلاف، كان معهم (أى الاسبان) أسلحتهم ونقودهم.

وفى هذه اللحظة انتابت الكآبة (انجلترا ايرلندا) ومع ذلك فانهم كانوا متأكدين من أنه اذا سمح لهم (أى الاسبان) الوقت باستعادة قوتهم مرة أخرى، فانه فى هذه الحالة يكون فى امكانهم اشعال كانوت Cannaught، ولم يكن لدى انجليز ايرلندا حصون كى يعتقلوا فيها هذا الكم الكبير العدد من المساجين (الاسبان)، ولم يكن لديهم أيضا رجال يزيدون عن الحاجة لاصطحابهم الى دبلن Dublin، وكان هؤلاء (انجليز ايرلندا) مسئولين أمام حكومة الملكة عن أمن الوطن. فلم يأت الاسبان فى مهمة طلب الرحمة والعفو منها (أى من الملكة). لذلك أصدرت الأوامر الصارمة بقتلهم جميعا أينما يكون فى الامكان الامساك بهم أو ايجادهم، فأكثر من الفين شخص، أما اطلقت عليهم النيران، أو شنقوا، أو ضربوا بالسيف. فياللفظاعة، نعم (أنها لفظاعة)...فالحرب نفسها فظيعة ولها ضرورياتها الخاصة.

وأخيرا نجحت الستون سفينة التى تبعت السفينة سان مارتن فى الدوران من حول رأس كلير Clear، ولكن كان أفرادها فى حالة ليست بأقل تعاسة من رفاقهم الذين هلكوا فى ايرلندا. فمات نصف هؤلاء الزملاء وكان موتهم بسبب الجروح الشديدة التى اهملت أو بسبب الجوع والعطش أوبسبب حمى المجاعة. وكان الأحياء منهم عبارة عن هياكل متحركة، وكانوا أشباحا أكثر منهم أحياء، ولم يكن لديهم القوة على جذب حبل أو ادارة دفة. ولم يكن يوجد ماء كاف فى بعض السفن، بحيث يكفى لمدة ١٤ يوم. وكان الطقس فى خطوط العرض السفلى قد فقد جزءا من عنفه أو من حرارته، ولولا ذلك ما وصل واحد منهم الى أسبانيا مرة ثانية، وبينما كانت الحالة هكذا، نزلوا خارج سيساى Scilly واتجهوا الى خليج بسكى TheBay of Biscay. وفى الاسبوع الثانى من سبتمبر تساقطوا الواحد بعد الاخر. وتمكن ريكالد، الذى كان أكثر نجاحا من الباقين فى التوجه الى كورونا. ولم يكن الدوق يعرف فى أى مكان هو، فقد وجد نفسه على مرأى من كورونا أيضا. وكان بحارة السفينة سان مارتن منهكين، ولم يستطيعوا تشغيلها. عندئذ، أرسلوا اشارة من أجل الاستغاثة، ولكن مع ذلك فلم تأت أية مساعدة،

، اندفعوا بعيدا مع الريح الى بلباو. وكان اوكيندو لايزال بعيدا عن سانتاندر Santander. ووصلت بقية الستين سفينة فى الايام التالية الى أحد موانىء خليج بسكى أو الى موانىء أخرى. وكان على متن هذه السفن تسعة آلاف من ٣٠ ألف رجل كانوا قد تركوا هذه الشواطىء قبل ذلك بشهرين، وهم فى قمة الأمل والحماس والانفعال. هذا اذا اعتبرنا هم أحياء ومن المؤثر قراءة خطاب من مدينة بلبا ويعبر عن فرحتهم بالشمس الاسبانية الدافئة وعن منظر العنب المتسلق على الحوائط البيضاء، وعن طعم خبز الوطن الطازج والماء مرة ثانية. ولكن هذه الأشياء أتت متأخرة لانقاذهم، لأن هؤلاء الذين استعادت أجسامهم القوة ماتوا من الحزن العميق ومن الأحلام الفاشلة. فمات رفاق سانتا كروز القداما، قبل أن يروا تدمير الاسطول الاسبانى. ومات ريكالد بعد يومين من نزوله فى بلباو. وكانت سانتا ندر موطن أوكويندو. وكان له زوجة وأطفال هناك. ولكنه رفض أن يراهم، فأدار وجهه الى الحائط ومات أيضا. وكان البحارة بصفة عامة والجنود فى حالة من الضعف لدرجة أنهم لم يستطيعوا معها مساعدة أنفسهم، وكان لابد وأن يتركوا على ظهور السفن المسممة حتى تستعد المستشفيات لاستقبالاهم. وقامت سلطات الكنيسة والدولة بعمل مايستطيع الرجال انجازه أو عمله، ولكن كانت الحالة تفوق أى مساعدة. وقبل انقضاء شهر سبتمبر لم يكن الجميع، بل مئات قليلة فى حاجة الى المزيد من العناية.

ويجب القول من أجل فيليب، بأنه لم يأل جهدا فى التخفيف من البؤس والشقاء. فقد حصلت الأرامل والأيتام على معاش تقاعد من الدولة وأستقبلت الضربة التى وقعت بخضوع جلل لأغراض السماء المبهمة. وفى هذه الأثناء هرب ديجو فلوريز Diego Florez، الى بورجورس Burgos بعد أن صدر حكما بعقابه. ولم يعاقب شخصا آخر على الأخطاء التى وقعت أساسا، لأن الملك فيليب نفسه، افترض وكما تخيل بأنه أداة الله. واعتقد الدوق نفسه، أنه قد أخطىء فى حقه أكثر مما سببه هو من أخطاء ومع ذلك فلم يمت مثل ريكالد وأوكيندو، ولم يجد مناسبة لموته. وتخلى عن قيادته وتقاعد في قصره فى سان لوكان San Lucan. وكان فيليب بعيدا عن تحمل مسئولية فقدان الارمادا الذى وقع على عاتق قائدها، والذى جعله يستمر في منصبه حاكم لقادش، حيث وجد أسكس Essex الدوق بعد ذلك بسبع سنوات، فهرب الدوق منه، كما هرب من

قبل من دريك.

ولم يقم الاسبان بمحاولة لاخفاء حجم هزيمتهم. كما لم يكن لديهم الرغبة بالاقرار بأن القوى العليا كانت ضدهم، انما أرجعوا هزيمتهم بكل صراحة الى القوة الحربية الانجليزية المتفوقة.

وقال الامير بارما أن الانجليز أنفسهم كانوا متواضعين فى انتصارهم. فلم يقم الاسبان وزنا كبيرا لبسالة الانجليز، وبالنسبة الى الاسبان فان هزيمة وتدمير الاسطول الاسبانى يرجعان الى حكم الله فى قضية وطنهم. وقد استعان الطرفان بالسماء، ولكن السماء أعطت أوقالت كلمتها. وجاء دور المد، وانحسرت من هذه اللحظة موجة اعادة فتح الاراضى المنخفضة. فلم يستولي بارما على مدن أكثر من الهولنديين. وقبل الاشراف و النبلاءالكاثوليك فى انجلترا – الذين كانوا بمعزل عن الكنيسة القائمة، والذين كانوا ينتظرون ثورة دينية – حكم الله. واكتشفوا أنهم يستطيعون فى ظل العقيدة الانجليكانية الاحتفاظ بعقيدة آبائهم، وفى الوقت نفسه سيظلون علي اتصال برفاقهم البروتستانت ويستخدمون نفس طقوسهم الدينية ويصلون فى نفس أماكن تعبدهم (كنائسهم). للوهلة الأولى، ومنذ تحطيم والد اليزابيث لقيود روما – أصبح الانجليز أمة متحدة مرتبطة بتعصب دينى مخلص للملكة، وكانوا مقتنعين منذ ذلك الحين بأنه ينبغى ألايفرض قسيس ايطالى العشور أو أى رسوم فى ممتلكات الملكة.

وانتهى كل ذلك، ولكن انتقال صولجان البحار من أسبانيا الى انجلترا، لابد وأن يترك ذلك الى محاضرات أخرى أو الى محاضرين آخرين، الذين تكون أمامهم فرصة أكثر منى وكان موضوع بحثى هو المغامرون البروستانت التعساء الذين حاربوا أسابيع خطيرة فى القتال الانجليز، وانقذوا وطنهم وحرية بلادهم.

الفهرس

رقم الإيداع ١٩٩١/٣٠٨٤

الترقيم الدولى 319 - 212 - 177


غلاف
مطبعة الانتصار
ELENTSAR PRESS